سلسلة في رحاب القرآن

١

وعي القرآن

بقلم

الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

دار القرآن الكريم

سلسلة في رحاب القرآن

وعي القرآن

(١)

بقلم

الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

دار القرآن الكريم

للعناية بطبعه ونشر علومه

الحوزة العلمية

ايران

قم

بمناسبة المؤتمر الثالث للأبحاث والدراسات القرآنية

في ايران، قم، دار القرآن الكريم ٢٧ رجب ١٤١١

هوية الكتاب

الكتاب: وعي القرآن ــ (١)

المؤلف: الاستاذ الشيخ محمّد مهدي الآصفي

الناشر: دارالقرآن الكريم ــ ايران ــ قم ــ صندوق البريد ١٥١

شارع ارم ــ تلفون ٣٣٠٧٨ ــ الرّمز: ٠٢٥١

المطبعة: امير ــ قم المقدسه

المطبوع: ٣٠٠٠ نسخه

الطبعة: الأولىٰ

التاريخ: ٢٧ رجب المرجب ١٤١١ هـ . ق ــ بهمن ماه ١٣٦٩

ثمن النسخة: ٦٨٠ ريالاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

﴿إِنَّ هذاَ الْقُـرآنَ يَهْدي لِلَّتي هيَ اَقْـوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤمِنينَ الَّذينَ يَعْمَلوُنَ الصَّالِحاتِ اَنَّ لَهُمْ اَجْراً كَبيراً﴾

الاِسْراء ـ ٩

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

هذه إضبارة من الدراسات والابحاث القرآنية ينتظمها محوران:

المحور الأول: البحث عن خصائص القرآن وقيمته في حياة الانسان المسلم.

والمحور الثاني: كيف نقرأ القرآن.

وهذه الاضبارة من الابحاث القرآنية هي في الأصل مجموعة من المحاضرات القرآنية كنت قد القيتها على طلبة الدراسات الاسلامية في الحوزة العلمية بقم المقدسة ثم يسّـر الله تعالى تدوينها وبنفس الاسترسال الذي تتطلبه المحاضرات والدروس عادة، دون ادخال أي تعديل عليها حين التدوين لاغراض لا تخفى على القارىء

اسأل الله تعالى أن يجعله جهدا نافعا لاهله، كما يسّر تدوينه من قبل، وان يتقبله من كاتبه بفضله ورحمته، انه ولي النعمة والتوفيق.

محمد مهدي الآصفي

في ١٧ رمضان ١٤٠٨

خصائص القرآن وقيمته في حياة الانسان المسلم

القرآن هو الصراط الى الله

القرآن هو صراط الله الذي رسمه لعباده. وهذا هو الصراط الوحيد الذي يوصل الانسان الى الله تعالى، وهو يتطابق بشكل دقيق مع فطرة الانسان، ويرسم حركة الفطرة البشرية إلى الله تعالى،

وهو صراط قيم ومهيمن على شؤون الانسان كلها، ينظم كل جوانب حياته ويتصدى لتنظيمه وادارته، ويتولى القيمومة عليه بكل ابعاده. فلا يهمل له شأناً، ويتولى شأناً آخر، كما في السبل الاخرى التي تتولى جانبا من حياة الانسان وتهمل آخر، تتولى الجانب الحيواني من شخصية الانسان، وتهمل الجانب الروحي او بالعكس

وهذا الصراط بالدقة هو مسار الفطرة الانسانية، وهو لذلك قيّم علي الانسان ومهيمن عليه بكل ابعاده، فلا يخرج من دائرة قيمومته جانب من جوانب شخصية الانسان. يقول تعالى في صفة القرآن: ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدي لِلَتّي هِيَ اَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤمنيِنَ الّذينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحاتِ اَنَّ لَهُمْ اَجْراً كَبيراً﴾[1].

والاقوم هو الاكثر قيمومة وهيمنة على الانسان.

وليس في هذا الصراط عوج عن خط الفطرة، وما بايدي الناس من الخطوط

(١) الاسراء: ٩.

فيه استقامة واعوجاج، او كله اعوجاج وانحراف عن مسار الفطرة، اما القران فهو الصراط المستقيم الذي أقامه الله للناس على خط الفطرة، فهو الذي خلق فطرة الانسان، وهو ادرى بمسار الفطرة وحاجتها وحركتها، ووضع للناس هذا الصراط قيّما غير ذي عوج.

* يقول تعالى ﴿اَلْحَمْدُ للهِ الّذي اَنزَلَ عَلى عَبْدِهِ اْلكِتابَ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بأساً شديداً، من لدنه، ويبشر المؤمنين﴾[1] ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾[2]

ويصف القرآن هذا الصراط الذي يهدي اليه القرآن بالنور تارة، وبالبرهان اخرى:

﴿كِتَابٌ اَنْزَلْنَاهُ اِلَيْكَ، لِتُخْرِجَ اْلنَّاسَ مِنَ اْلظُّلُمَاتِ اِلى النُّور باذْنِ رَبِّهِم اِلى صِرَاطِ الْعَزيزِ الْحميدِ﴾[3] ﴿يا ايها الناس : قد جاءكم برهان من ربكم، وانزلنا اليكم نوراً مبيناً﴾[4] ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[5].

القرآن نور وبرهان

ان القرآن هو صراط العزيز الحميد، وهذا الصراط يخرج الله تعالى به الناس من الظلمات فهو نور وبرهان في حياة الناس ومعنى ذلك انه لا يحتاج الى نور وبرهان كي يهتدي اليه الناس .

ان الناس اذا حكّموا فطرتهم في الاختيار والاهتداء لم يسلكوا غير هذا

(١) الكهف: ١ ـ ٢.
(٢) الزمر: ٢٨.
(٣) النساء: ١٧٤.
(٤) (٥) المائدة: ١٥ و ١٦.

الصراط، واذا فتحوا قلوبهم وصدورهم على كتاب الله لم يترددوا في سلوك هذا الطريق ... فان ما يرسمه هذا الصراط للناس هو ما ترسمه الفطرة، وما يعطيه هذا الصراط هو ما يحتاجه الانسان، فهو بنفسه نور وبرهان، ولا يحتاج الى نور وبرهان.

اننا نحتاج الى النور لكي نهتدي به إلى الاشياء، ولا نحتاج الى البرهان في اثبات البرهان.

وانما يضل الناس عن صراط العزيز الحميد لانهم يواجهون القرآن بالاعراض والصدود، وإلّا فان القرآن نور لا ظلمة فيه، وبرهان لا ريب فيه، ولا نحتاج معه الى نور او برهان يهدي اليه.

يقول تعالى ﴿ذٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1].

ويقول تعالى ﴿هذا بَيَانٌ للناس ِ﴾[2].

وهذه خصائص عجيبة لكتاب الله يصفه بها تعالى، فهو نور، ولا يحتاج الى نور ليكشف عنه، وبرهان قائم بذاته، ولا يحتاج الى دليل وبرهان لاثباته، وهو بنفسه بيان، ولا يحتاج الى بيان ليقدمه للناس ، ولا ريب فيه ، وانما يحتاج الشيء إلى بيان وبرهان ودليل اذا كان فيه لبس أو ريب.

ولا تجتمع هذه الخصائص العجيبة في شيء إلّا عندما يتطابق تطابقاً دقيقاً مع الفطرة، فيجد فيه الانسان مرآتا لنفسه وفطرته، فيُقبل عليه دون تردد او تلجلج. فمن تدبر في القرآن لا يجد فيه ريبا او لبساً، وانما يتردد الناس في هذا القرآن في حالات انغلاق النفوس والقلوب وفي حالات الصدود والاعراض .

﴿اَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ اَمْ عَلى قُلُوبٍ اَقْفالُهَا﴾[3].

وإلى هذا المعنى تشير الرواية عن الرسول صلى الله عليه وآله: «القرآن

(١) البقرة: ٢.
(٢) آل عمران: ١٣٨.
(٣) محمد (ص): ٢٦.

هدى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الاحداث، وما عدل احد من القرآن إلّا إلى النار»[1] فالقرآن هو الهدى، والنور، والبيان، ولا يعدل عنه احد إلّا إلى النار، فليس بين الهدى والضلال من برزخ.

فمن انحرف عن القرآن سقط لا محالة في الضلالة والنار. عن رسول الله: «ان هذا القرآن هو النور المبين... من استضاء به نوّره الله، ومن طلب الهدى من غيره اضلّه الله، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوّله الذي ينتهي اليه آواه الله الى جنات النعيم»[2].

ان الذي ينحرف عن النور يقع في الظلمة لا محالة، والذي ينحرف عن الصراط المستقيم يقع في الضلالة.

﴿قد جاءَكم مِن الله نُورٌ وكتابٌ مبينٌ، يهدي به اللهُ مَنْ اتبعَ رضوانَه سُبُلَ السلام ويخرجهم من الظلماتِ الى النورِ بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾[3]

القرآن مأدبة الله

الاوعية الثلاثة:

يحتاج الانسان في حركته الى الله تعالى الى تغذية وامداد متصلين، وهذه التغذية هي حاجة كل المصادر والاوعية التي تمنح الانسان الحركة والقدرة والعزم في سيره وحركته الى الله تعالى.

وهذه المصادر على ثلاثه اقسام رئيسية:

١ـ مصادر واوعية للوعي: كالعقل، والفؤاد، والصدر، والقلب، والفطرة، على اختلاف في طريقة تلقيها للوعي.

(١) اصول الكافي ٢/٤٣٩.

(٢) بحار الانوار ٩٢/٣١. عن تفسير الامام العسكري (ع).

(٣) المائدة ١٥ ـ ١٦.

٢ـ مصادر واوعية للتنفيذ: الارادة والعزم.

٣ـ وبين النوع الاول (مصادر الوعي)، والنوع الثاني (مصادر التنفيذ) لا بد من موضع ثالث في نفس الانسان للتحكيم، وذلك ان العوامل المؤثرة في نفس الانسان ليس فقط من النوع الأول عوامل وعي وخير، وانما هناك نوع آخر من عوامل الفجور والشهوات تعمل وتؤثر في نفس الانسان، ويتزاحم هذان العاملان على عامل الارادة والعزم في مقام التنفيذ، ولذلك فلا بد في نفس الانسان من موضع للتحكيم والحسم، ومن محكمة للفصل والحسم، والاحكام الصادرة من هذه المحكمة تدخل في مرحلة التنفيذ، وهذه المحكمة هي (الضمير)، وهو الوعاء الثالث في نفس الانسان.

فالنوع الأول من المصادر تتعلق بشؤون الرؤيه والبصيرة والوعي، وهي الشرط الاول في الحركة، والنوع الثاني يشكل القوة الباعثة على التحرك في الانسان، والنوع الثالث يشكل المحكمة الداخلية في نفس الانسان للحل والحسم وفصل القضايا، وهو الضمير.

وهذه المصادر جميعاً بحاجة الى تغذية متصلة كما يحتاج الجسم الى الغذاء تماماً في فعالياته الحيوية. وهي ليست صفحات بيضاء واوعية فارغة تملأ بالتربية والتعليم والعوامل والمؤثرات الاجتماعية، كما يقول علماء الاجتماع، كما انها ليست كنوزاً جاهزة، وعيونا مخبوءة في نفس الانسان، يصدر عنها الوعي، والرؤية، والارادة، صدوراً تلقائياً، كما يقول اخرون، وانما هي اوعية، على درجة عالية من الاستعداد لتلقي النور، والوعي، والبصيرة، والعزم، والارادة، والقوة من عند الله تعالى، تستنزل رحمة الله تعالى بفعل هذا الاستعداد العجيب الكامن في هذه الاوعية، وعلى قدر استعدادها تتلق من الله وتستنزل رحمته تعالى، فمنها اوعية كبيرة واسعة ومنها اصغر من ذلك، ومنها دون ذلك، ومنها النفوس التي تفقد بصورة نهائية الاستعداد لتلقي رحمة الله تعالى، واولئك هم اليائسون من رحمة الله تعالى بما ظلموا انفسهم.

ولا شك ان هذا الاستعداد وسعته وضيقه، من عند الله تعالى، ومن شؤونه ونكنه ـ تعالى ـ قد وهب الناس جميعاً حدا من الاستعداد لقبول رحمته ـ تعالى يمكنهم من الاستقامة على الصراط المستقيم، والحركة والكدح الى الله.

والانسان كلما يستقيم على صراط الله المستقيم ويتقدم في الحركة الى الله تزداد قدرته واستعداده لتلقي رحمة الله، وكلما ينحرف ويظلم نفسه، ويستجيب لعوامل الهوى في نفسه يفقد هذا الاستعداد، ويضيق وعاء نفسه لقبول رحمة الله ـ تعالى ـ وهداه، حتى يبلغ مرحلة يفقد فيها كل استعداد وامكان لقبول رحمة الله، وتلقي رزق الله النازل على عباده.

هذه المصادر والاوعية تتلقى من عند الله النور، والبصيرة، والرحمة، والعزم، والقوة، وتمد الانسان في حركته الى الله بما يمكنه من السير بنور وعزم، ولكي تبقى هذه الاوعية صالحة لتتلقى من جانب الله تعالى، وتمنح الانسان من جانب آخر بما يحتاج اليه في حركته الى الله لا بد له من غذاء دائم، وهذا الغذاء هو التوجيه والامداد الذي يمكن هذه الاوعية من مواصلة عملها من التلقي والعطاء ومن دون هذا الغذاء تتعطل هذه الاوعية، وتفقد القدرة على اداء دورها في حياة الانسان.

والقرآن الكريم هو الغذاء الرباني للانسان وهو النور، والهدى، والبصيرة، والعزم، واليقين الذي يحتاجه الانسان في حركته الى الله تعالى.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبة الله ما استطعتم انه النور المبين والشفاء النافع، تعلموه، فان الله يشرفكم بتعلمه»[1].

مأدبة الله فتعلموا من مأدبة الله ما استطعتم: أي خذوا من هذه المأدبة ما استطعتم، فلا نفاد لهذه المأدبة، ولهذا الغذاء الرباني الذي اعده الله تعالى للانسان.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): «كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض ولا يختلف في الله، ولا

(١) مستدرك الوسائل ٢٨٧/١.

يخالف بصاحبه عن الله».[١].

الأخذ والعطاء بالقرآن:

«كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به»:

والانسان يقع بين هذين: بين الاخذ والعطاء، وبالسمع والبصر يأخذ الانسان (وليس المقصود السمع والبصر الجارحة)، وبالنطق يعطي الانسان ما يأخذه بالسمع والبصر، وبكتاب الله يسمع الانسان ويبصر، فلا يسمع إلّا هدى، ولايبصر إلّا نوراً ولايتلقى بسمعه وببصره إلّا الحق، وكأن كتاب الله ينقي له ما يسمع وما يبصر، فلا يدخل نفسه إلا النقي من الحق الذي لايشوبه باطل ولا زيف

ثم يتفجر كتاب الله على لسانه، فينطق به، ويسدد القرآن نطقه وكلامه، فلا يقول إلّا الحق وينقي كتاب الله ما يجري على لسانه، فلا يخالطه ما في نفس الانسان من هوى وعصبية وانفعال.

القرآن كتاب ناطق:

(وينطق بعضه ببعض): على عكس تصور الناس عن القرآن انه الكتاب الصامت الذي يمكن تأويله وتوجيهه بالطريقة التي تمليها اهواء الناس، ولا يفصح هو عن نفسه، ليسد الطريق على تأويل المتأولين وتفسير المنحرفين فإن الامام (عليه السلام) يقول: ان القرآن كتاب ناطق وليس بالصامت كما يقول الناس.

كيف نستنطق القرآن:

يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «ذلكم القرآن فاستنطقوه» إلّا إننا

(١) نهج البلاغة خطبة رقم ١٣٣ وبحار الانوار ٩٢/٢٢.

لا نحسن ان نستنطق القرآن، ولا نعرف كيف نستنطقه، ولو كنا نستنطقه لما بقي بيننا وبين معاني القرآن من حجاب، ولفتح القرآن لنا صدره، واعطانا ما أودع الله ـ تعالى ـ فيه من كنوز المعاني والمفاهيم، والامام (عليه السلام) يعطينا مفتاح ذلك لو اننا استعملناه لنطق لنا القرآن بما فيه، ولما التبس علينا مما فيه شيء، يقول عليه السلام: «ينطق بعضه ببعض».

بعض القرآن يشرح بعضه، وبعضه يهدي الى بعض ، وبعضه يزيل اللبس عن بعض ، والقرآن في دلالته كما في احكامه كل لا يتجزأ، فمن اراد ان يأخذ ببعض احكـامه ويترك بعضاً، فانه سوف لا يستطيع ان يستقيم على الصراط، وان يحصد ثمرات القرآن، كذلك القرآن في دلالاته.

فمن انتزع شطرا من كتاب الله وفصله عن سائر اجزائه، فحاول ان يتعرف به على هدى الله ورسـولـه، فسوف لا يستطيع ان يبلغ هدى القرآن في كثير من الاحيان، واما من كان يستنطق بعض القرآن ببعض، ويهتدي ببعضه الى بعض ، ويضم دلالات ايات الله الى بعض فان القرآن يفتح له صدره، ويكشف له عما اودع الله تعـالى فيه من كنـوز المعاني، ولذلك يقول الامام (عليه السلام) (ينطق بعضه ببعض) (ولا يختلف في الله): وانما يتراءى للناس ان في القرآن اختلافاً لانهم يأخذون كل جزء منه مفصولاً عن الأجزاء الاخرى، فاذا ضموا هذه الاجزاء الى بعض ، وربطوا مفاهيم القرآن ومعانيه ببعض ، واقاموا من القرآن صورة واحدة في نفوسهم وعقولهم لما اختلفت اجزاء هذا الكتاب لديهم في الله، ولما خالف بصاحبه عن الله كما يقول الامام (عليه السلام).

القرآن اداة لشرح الصدور:

كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول اذا ختم القرآن: «اللّهم اشرح بالقرآن صدري، واستعمل بالقرآن بدني، ونور بالقرآن بصري، واطلق بالقرآن لساني، واعني

عليه ما ابقيتني»[١].

والقرآن فى كلام الامام هنا، ليس فقط الغذاء والنور الذي يعمر الله تعالى به صدور عباده، وانها هو أداة لشرح الصدور ايضا.

فلكي تحل معاني القرآن ومفاهيمه الربانية في صدور الناس لا بد من أن تتسع له الصدور وتستوعبه، فاذا كانت الصدور ضيقة حرجة فلا تستوعب من مفاهيم كتاب الله إلاّ النزر القليل فلا بدّ من ان تتسع اواني الصدور لما ينزل عليه من رحمة الله وهو دعاء العبد الصالح كليم الله موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ حيث دعا الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[٢].

فيدعو الله تعالى اولاً ان يشرح صدره ليتلقى من نور الله وهديه، وهذه هي المرحلة الأُولى، ثم يحلّ عقدة من لسانه، لتجري عليه الحكمة، وليفقهوا قوله، ولينفذ كلامـه الى نفوس الناس ، وهذه هي المرحلة الاخيرة في هذا الشوط من الدعاء، فالقرآن (غذاء) والقرآن (وعاء) والقرآن (عطاء).

والامام (عليه السلام) يدعو الله تعالى لهذه المراحل جميعاً، وهو من اروع الدعاء، وافضله، واشرفه.

المراحل الثلاثة في دعاء ختم القرآن:

فهو يدع الله تعالى، اولاً، ان يشرح صدره، وان يمنح اناء صدره وقلبه سعة، ليستوعب هدى الله ونوره ومعاني القرآن، ومفاهيمه الربانية: (اشرح بالقرآن صدري).

ثمّ يدع الله تعـالى: ان ينزل على صدره وقلبه وسمعه وبصره نوره وهديه

(١) بحار الانوار ٩٢/٢٠٩.

(٢) طه: ٢٠/٢٧.

ورحمته (ونوّر بالقرآن بصري).

ثمّ يدع الله: ان يجري هذا النور والهدى الذي اتاه على لسانه، وهذه مراحل ثلاثة مجتمعة في هذا الدعاء ان يشرح الله صدر عباده اولاً، ثمّ ينزل على صدورهم نوره ورحمته، ثمّ يجري ما انزل على صدورهم على السنتهم(١).

ومن العجيب ان الامـام عليه السـلام يطلب من الله تعالى هذه المراحل الثلاثة كلها بالقرآن. فالقرآن هو مفتاح شرح الصدور، ومفتاح استنزال النور والهدى من لدن الله، والمفتاح الذي به يجري الله تعالى ما يرزق عباده من حكمة وهدى على السنتهم، ومفتاح العطاء.

ونقرأ الدعاء مرة اخرى للمزيد من التأمل في هذه الفقرات العجيبة من كلام الامام (عليه السلام):

«اللّهم اشرح بالقرآن صدري واستعمل بالقرآن بدني، ونور بالقرآن بصري، واطلق بالقرآن لساني، واعني عليه ما ابقيتني».

ومن دون القرآن لا نور للابصار، ولا هدى في الصدور.

وليست القلوب والصدور والافئدة كما قلنا منابع ومصادر للنور، وانما هي أوعية صالحة لاستقبال النور من عند الله تعالى وهذا النور والسداد واليقين هو كتاب الله، فاذا فتح الانسان منافذ قلبه وصدره على القرآن تلقى من القرآن هذا النور والوعي والبصيرة، الذي يمكنه من توجيه حركته الى الله، وتلقى من الله العزم والقوة التي تمكنه من مواصلة السير في هذا الطريق، وإلّا فان القلب يبقى اناء مظلما لا نور

(١) قد يدعو الفلاح ان ينزل الله عليه مطرا، وهذا دعاء مفيد ولا شك ولكنه غير كافي وقد يدعو ان ينزل الله عليه مطرا ويرزقه ارضا خصبة تنتفع بالمطر. فان الارض السبخة لا تنتفع بالمطر مهما نزل عليها وهذا دعاء افضل من الدعاء الاول بلا شك ولكنه غير كاف. فان الله قد ينزل المطر ويرزق الفلاح خصوبة في ارضه. ولكن بعض الاعراض الارضية والسماوية تتلف عليه ثمرة ارضه وقد يدعو الله تعالى ان يرزقه مطرا وارضا خصبة وثمرة طيبة مباركة، وهذا هو الدعاء الكامل. ودعاء امير المؤمنين عليه السلام يشبه هذا الدعاء فهو يطلب من الله النور والوعي ويطلب منه شرح الصدر ويطلب منه تعالى ان يجري ما انزل على صدره على لسانه ويستعمل به بدنه.

فيه.

بالقرآن تخصب القلوب:

وان القلوب اذا استنارت بالقرآن، واخذت هداها من مائدة القرآن اخصبت واثمرت كما تخصب الأرض وتثمر في الربيع، وكما تعطي الأرض ثماراً مباركة طيبة كذلك القلوب عندما تأخذ من مائدة القرآن تعطى ثماراً طيبة مباركة في حياة الانسان، وهذه الثمار هي اليقين، والاخلاص ، وحب الله، والبراءة من اعداء الله، والحب في الله، والبغض في الله والخشوع، والتضرع، ومخافة الله، والتواضع بين يدي الله، وذكر الله، وما يتصل بهذه الثمرات من ثمرات القلوب.

وان القرآن يدخل في قلوب المؤمنين فيتحول فيها الى مثل هذه الثمرات المباركة، ويحول القلوب القاحلة الى قلوب خصبة، كما يحول الربيع الارض القاحلة الجدباء الى تربة خصبة مثمرة.

يقول امير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن «جعله الله ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء»[1].

ويقول عليه السلام ايضا في صفة القرآن «فيه ربيع القلب وينابيع العلم وما للقلب جلاء غيره»[2].

وهذه صفة يختص بها القرآن، انه يحول القلوب القاحلة الى قلوب مخصبة، فمن وجد في قلبه جدبا فعليه بالقرآن، فانه يمنح القلوب ريا وينعشها، ويمنحها حيوية وخصوبة وقد «جعله الله ريا لعطش العلماء»[3]. وان القلوب اذا اخصبت تحولت الى جنة خصبة كثيرة البركات، واذا اجدبت كانت ارضاً قاحلة لا تعطي غير

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٧٦.
(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٧٦ وبحار الانوار ٢٤/٩٢.
(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٧٦.

الشوك والعوسج.

وفي القرآن كفاية للانسان:

وفي هذه المائدة الالهية كفاية للانسان عن أية مائدة اخرى. فمن لجأ الى القرآن اغناه عن كل شيء، ومن عدل عن القرآن لا يغنيه بشيء، فقد جعل الله تعالى في كتابه كل ما يحتاج الانسان في حركته اليه تعالى من نور وبصيرة وهدى وعزم.

يقول تعالى:﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء، وهدى، ورحمة، وبشرى للمسلمين﴾(١).

﴿هذا بيان للناس، وهدى، وموعظة للمتقين﴾(٢).

﴿هذا بصائر من ربكم، وهدى، ورحمة لقوم يؤمنون﴾(٣).

﴿هذا بصائر للناس، وهدى، ورحمة لقوم يوقنون﴾(٤).

فالقرآن تبيان لكل شيء يحتاج الانسان في حركته الى الله من الهدى والموعظة، والبصائر، واذا عرف الانسان الهدى، وتزود بالموعظة والبصيرة، واوتي فقهاً ووعياً وبصيرة في حياته وحركته، فلا يحتاج بعده الى شيء.

روى البيهقي عن ثوبان قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: ما احب ان لي الدنيا وما فيها بهذه الآية﴿قُلْ يا عِبادي الّذينَ اَسْرَفوا على أنفُسهم لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله فَانَّ الله يَغْفِرُ الذُنُوبَ جَميعاً﴾(٥)

فهذه آية واحدة من القرآن اعز عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الدنيا وما فيها.

(١) النحل: ٨٩.
(٢) آل عمران: ١٣٨.
(٣) الاعراف: ٢٠٣.
(٤) الجاثية: ٢٠.
(٥) الدر المنثور ٥/٣٣١.

القرآن يختص بالموقنين والمتقين:

ومن العجب ان القـرآن يخص المؤمنـين والمـوقنـين والمتقين بهذه البصائر والموعظة والهدى: ﴿وَبُشْرى لِلْمُؤمِنِينَ﴾ ـ ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ ـ ﴿وَرَحْمَةً لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾.

وان هذا التخصيص ليستوقف الانسان، فإنّ الانسان اذا انغلق على كتاب الله، فلا ينفعه شيء من كتاب الله، وهداه، وانما ينتفع الانسان بهذا الكتاب ويستنير به، ويأخذ منه الموعظة، والهدى، والبشرى، والبصائر اذا فتح قلبه عليه، واما الذين يواجهون كتاب الله بالإنغلاق ولاعراض والصدود فإن القرآن سوف يزيدهم شقاء على شقائهم، ومرضاً على مرضهم، ويسلب الله تعالى من قلوبهم النور والهدى والرحمة.

يقـول تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمُؤمنينَ ولا يزيدُ الظّالِمينَ إلاّ خَساراً﴾[1] ﴿وَاذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ، فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ: أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إيمانـاً؟ فَأَمّا الذينَ امَنُوا فَزادَتْهُمْ ايماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمّاالذّينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ، ومَاتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾[2].

وهذه سنة من كتاب الله اذا فتح الانسان قلبه عليه زاده أيماناً، واذا اعرض عنه استدرجه الله تعالى الى المزيد من الاعراض والصدود.

انه نقطة تحول في حياة الناس فأما أن يزيدهم هدى على هدى، ونوراً على نور، أو يزيدهم اعراضاً على اعراض ، وصدوداً على صدود، ومرضا على مرض.

ليس بعد القرآن من فاقة:

فالقرآن اذن تبيان لكل شيء يحتاج الانسان في حركته وسعيه إلى الله تعالى،

(١) الاسراء ٨٢/١٧.

(٢) التوبة ١٢٥/٩ ـ ١٢٤.

وليس بعد القرآن من فاقة في حياة الانسان كما ليس للانسان غنى عن القرآن من دون القرآن. عن انس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال: «من هداه الله للاسلام وَعلّمه القرآن، ثم شكى الفاقة كتب الله الفاقة بين عينيه الى يوم القيامة»[١].

يقول أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في صفة القرآن: «اعلموا انه ليس على احد بعد القرآن من فاقة، ولا لاحد قبل القرآن من غنى»[٢].

ويقول عليه السلام: «القرآن غنى لا غنى دونه، ولا فقر بعده»[٣].

ومن دون القرآن يبقى الانسان في فاقة وفقر، وليس شيء آخر كالقرآن قادر على ان يسد فاقة الانسان وعجزه في حركته هذه الى الله في الحياة الدنيا. فاذا عدل الانسان عن كتاب الله الى سبيل آخر من سبل الجاهلية فسوف تلاحقه الفاقة والفقر. والفاقة والفقر هنا ليس هو الفاقة والفقر في الجانب المادي من حياته، فذاك أثر يسير في حياة الانسان، ولكنه فاقة الفطرة والضمير والروح والقلب. وهذه هي الفاقة التي لا يسدها شيء غير القرآن.

ان الحضارة الجاهلية، مهما امنت للانسان من حاجاته ورغباته، فلا تكاد تتجاوز حاجات ورغبات الشطر الحيواني والشطر المادي من حياة الانسان، اما الشطر الاخر وهو الشطر الاهم والسامي في حياة الانسان فيبقى يعاني من ظروف الحياة الجاهلية من الفقر والفاقة والفراغ فان هذه الاوعية التي خلقها الله تعالى في الانسان من الفطرة والضمير، والعقل والقلب، والعاطفة تتطلب ـ بحكم كونها وعاء ـ غذاءا وامدادا بصورة مستمرة ولا شيء غير القرآن يستجيب لهذه الحاجات. ومن دون القرآن يبقى الانسان يعاني من هذه الحالة التي يسميها الامام (عليه السلام) بـ(الفاقة)، ويشعر بصورة مستمرة بهذا العجز والفقر في حياته.

(١) نور الثقلين ٣٠٧/٢.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٧٦ وبحار الانوار ٢٤/٩٢.

(٣) مجمع البيان ١٥/١.

وأول ما يصيب الانسان من جراء هذا العجز والفقر الروحي هو توقف حركة نمو الانسان وتوقف حركته الى الله تعالى والمصيبة الأخرى التي تصيب الانسان على هذا الصراط المنحرف الجدب الروحي الذي يصيب الانسان والذي يحوله الى تربة قاحلة غير مثمرة والى كائن عقيم غير ذي ثمر.

القرآن عصمة ووقاية

يتعرض الانسان في الحياة الدنيا لاحتكاك دائم بعوامل الفساد والتخريب والانحراف والاغراء، والانسان ـ في هذا الاحتكاك ـ سريع التأثر، ضعيف في المقاومة يقول تعالى : ﴿وخلق الانسان ضعيفاً﴾[1].

المثلث الضاغط على الانسان:

والانسان في ابتلائه في الحياة الدنيا يقع تحت عوامل ضغط ثلاثة تشكل مثلثاً رهيباً ضاغطا على الانسان، وهذه العوامل هي: الاهواء والشهوات من داخل النفس، والمغريات والمثيرات في واقع الحياة الدنيا، والشيطان يقوم بينهما بدور السمسار والوساطة.

فالهوى عامل ضاغط قوي من داخل نفس الانسان يجر الانسان باتجاه المغريات في الحياة الدنيا وهو عامل قوي مؤثر.

يقول القرآن عن لسان امراة العزيز: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[2] وقد اكدت الآية الكريمة شأن النفس والهوى، وقوتها ودورها في افساد الانسان بمختلف وسائل التأكيد في اللغة العربية من تصدير الكلام بـ(ان) واستعمال صيغة المبالغة (الامّارة).

(١) النساء: ٢٨.

(٢) يوسف ١٢/٥٣.

في صفة النفس، وتصدير كلمة الامّارة بـ (اللام).

وعن العامل الثاني (المغريات) التي تستدرج الانسان في الحياة الدنيا يقول تعالى:﴿زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ، وَٱلْبَنينَ، وَٱلْقَناطيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ، وَٱلْأَنْعامِ، وَٱلْحَرْثِ، ذٰلِكَ مَتاعُ ٱلْحَياةِ الدُّنْيا، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ ٱلْمآبِ﴾(١).

وهي مجموعة واسعة من عوامل الاغراء منتشرة في الحياة الدنيا لها قدرة كبيرة في جذب الانسان واستدراجه.

وهذان العاملان: (الهوى والمغريات) هما الطرفان المتقابلان الضاغطان على الانسان، فان المغريات تجذب الاهواء والشهوات، والاهواء والشهوات تنجذب لهذه المغريات في الحياة الدنيا.

ويقوم (الشيطان) بينهما بدور الوسيط والسمسار يجذب هذا الى ذاك، ويقرب ذاك الى هذا، ويزين هذه لتلك ويجذب تلك لهذه، ويقوم بدور العامل المساعد في ايصال الاهواء والشهوات الى المغريات.

يقول تعالى في قصة ادم ودور الشيطان في هذه القصة بين ادم ـ عليه السلام ـ وشجرة الخلد: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا ادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾(٢)، ويقول تعالى في دور الشيطان﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ﴾(٣)، ويقول تعالى ايضا عن دور الشيطان: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنّيهِمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاّ غُروراً﴾(٤).

وتحت ضغط هذا المثلث الرهيب يقع الانسان في ابتلائه في الحياة الدنيا، وهذه العوامل الضاغطة الثلاثة تجره بقوة الى الفساد والانحراف والسقوط.

(١) آل عمران ٣/ ١٤.

(٢) طه ٢٠/ ١٢٠.

(٣) النمل ٢٧/ ٢٤ والعنكبوت ٢٩/ ٣٨.

(٤) النساء ٤/ ١٢٠.

ولا بد للانسـان تحت تأثـير هذه العوامل الضاغطة من وقاية تحميه من السقوط والانزلاق، والقرآن يشكل هذه الوقاية والعصمة في حياة الانسان.

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في صفة القرآن: «عصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن»[1].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً، في صفة القرآن: «من عقد به اموره عصمه الله»[2] ومعنى (العقد) هنا ان يربط الانسان شؤونه ومصيره وحياته بالقرآن، فيعصمه الله تعالى.

وعن امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «عليكم بكتاب الله فانه الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والري الناقع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق، لا يعوج فيقام، ولا يزيغ فيستعتب»[3].

وهذا اجمال لا بد له من تفصيل وشرح

حصانة (الذكر) و (التقوى):

فنقول: ان الله تعالى جعل في حياة الانسان حصانتين تحصّنان الانسان، وتعصانه من السقوط والفساد، وتمنحان الانسان وقاية ومناعة امام عوامل الفساد والسقوط، وهاتان الحصانتان هما (الذكر) و (التقوى):

و (الذكر) هو الانشداد الى الله، والارتباط بحبل الله، ولا شك ان ذلك يحفظ الانسان من ان تجذبه عوامل الاغراء في الحياة الدنيا، ومن الانجرار الى الهوى، ومن استدراج الشيطان له، و (التقوى هي الاحتماء بحدود الله تعالى، وعدم تجاوز دائرة الحدود الالهية من الحلال والحرام، وليس من ريب ان هذه الدائرة تحمي الانسان من السقوط، ولا يستطيع الشيطان ان ينفذ اليها، والقرآن يذكر بالله تعالى، فهو كتاب

(١) الكافي ٢/٤٣٩.
(٢) بحار الانوار ٩٢/٣١.
(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٥٦.

(ذكر)، ويدعو الى التقوى، فهو كتاب (التقوى) يقول تعالى في صفة القرآن:

﴿إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[١].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟﴾[٢].

﴿إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾[٣].

ويقول تعالى ايضاً في صفة القرآن:

﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾[٥].

﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٦].

ولنقف عند كل من هاتين الحصانتين في القرآن وقفات قصيرة.

١ـ حصانة الذكر

الذكر: هو تنبيه الفطرة وازالة الغفلة عنها، وليس بمعنى اضافة شيء جديد الى ما عند الانسان كما في العلم، فان العلم يأتي بمعنى اضافة شيء جديد على ما عند الانسان، اما الذكر فلا يزيد الانسان شيئا ليس عنده، وانما يُذهب عنه الغفلة فقط.

ومعنى ذلك أنّ لفطرة الانسان ولقلبه ارتباطاً مباشراً وفعالاً بالله تعالى، وان الفطرة موصولة بالله اتصالاً مباشراً، كما ان القلب موصول بالله تعالى اتصالاً مباشراً،

(١) يس ٣٦/٦٩.
(٢) القمر ٥٤/١٧.
(٣) التكوير ٨٢/٢٧.
(٤) البقرة ٢/٢.
(٥) مريم ١٩/٩٧.
(٦) الزمر ٣٩/٢٨.

وهذا الاتصال قد يختل احياناً فيصيبه الضعف والفتور، وعامل الضعف هنا (الغفلة) التي تصيب الناس كثيراً فتصرفهم عن الله تعالى وتحجبهم عنه ـ عزّ وجلّ ـ، والذكر فيه هذه الحالة يعيد اتصال الانسان بالله تعالى، ويربط الانسان من ناحية القلب والفطرة ومنابع الوعي من وجوده بالله ـ عزّ وجلّ ـ.

الذكر يحصّن الانسان:

وهذا الارتباط والانشداد، الذي هو محتوى الذكر وحقيقته يحمي الانسان، ويحفظه من السقوط والفساد، فان الشيطان يتمكن من استدراج الانسان واسقاطه عندما لا يكون حبل الانسان موصولاً بحبل الله، اما عندما يوصل الانسان حبله بحبل الله، ويربط نفسه بالله ـ عزّ و جلّ ـ فلا يكون للشيطان عليه سلطاناً، ولا يقوى عليه الشيطان.

﴿إنَّ عبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إلاّ مَن اتّبَعَكَ مِنَ ألْغاوينَ﴾[(١)].

﴿إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٢)].

فالذكر ـ اذن ـ يحصن الانسان من الشيطان، واغوائه،وتزيينه، ووسوسته، ويحصن الانسان من الاهواء، والشهوات، ومغريات الحياة الدنيا، والذي يوصل حبله بحبل الله، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

فانما يسقط الانسان ويجره الشيطان ويستدرجه على قدر ضعف علاقته بالله، أو بمقدار ما يصيب الانسان من الغفلة عن الله، فاذا كان ذاكرا لله تعالى، فلا يكون للشيطان عليه من سلطان في شيء.

معنى الذكر:

(١) الحجر ٤٢/١٥.

(٢) النحل ٩٩/١٦.

ان (الذكر) ليس بمعنى ان ينشط قلب الانسان الى مجموعات من العلائق والارتباطات، ويكون الارتباط والتعلق بالله تعالى واحداً من هذه المجموعة المتفرعة من التعليقات فيكون للانسان تعلق بزوجه، وابنائه، وامواله، ومستقبله، ومركزه الاجتماعي، فيما يكون له تعلق بالله تعالى ضمن هذه المجموعة من التعلقات...

ليس (الذكر) بهذا المعنى، وليس معنى الذكر: ان يتوزع قلب الانسان على مجموعة من المحاور يشكل المحور الالهي واحداً منها، وانما معنى الذكر هو الانصراف الكامل الى الله تعالى، والانقطاع اليه من كل شيء.

الذكر (شاغل) و (صارف) للانسان في وقت واحد:

ولا يكون الذكر ذكرا حقا إلّا عندما يكون شاغلًا وصارفا للانسان في وقت واحد، شاغلا لقلبه بشكل كامل فلا تبقى مساحة فارغة لغير الله، وصارفاً للانسان عن كل شيء اخر عدا الله ـ تعالى ـ.

وهذا هو معنى الانقطاع الى الله، فلذكر الله تعالى ـ اذن ـ وجهان:

احدهما هو (قطع) كل علاقة غير العلاقة بالله تعالى، والاخر هو (الانقطاع) والانصراف الى الله، ولا يتم (الانقطاع) إلّا (بالقطع)، ولا يمكن ان ينقطع الانسان الى الله تعالى وهو مشدود بهذه الحياة الدنيا ومغرياتها بالتعلق، والحب، والاهتمام.

فلا يسع هذا القلب ان يقبل في وقت واحد العلاقة بالله تعالى والعلاقة بغير الله تعالى، ولذلك فان مراكز ومواقع الاهتمام والعلاقة في حياة الانسان المسلم في الدنيا، تقع تحت سلطان علاقته بالله، ولا تشكل محاور مستقلة للعلاقة والحب والاهتمام في قلب الانسان المسلم فالعلاقة بالله هي المحور والاساس والحاكم في قلب الانسان المسلم، والذكر هو بؤرة الاستقطاب الوحيد في القلب. يستقطب كل اهتمام وحب وتعلق الانسان المؤمن، وما عدا ذلك من الاهتمام والحب والارتباط في حياة الانسان

المسلم فيجب ان يقع في امتداد هذه النقطة او محكومة لها، ولا يشكل محاور حاكمة في عرض هذا المحور والى جنبه.

المداومة على الذكر والاكثار منه:

ولذلك فاننا نرى ان القرآن الكريم يعطي للذكر قيمة كبرى، ودوراً كبيراً في حياة الانسان المسلم.

فيأمر بالاستمرار والمداومة على الذكر على كل حال:

﴿الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ﴾[1].

﴿وَاذْكُر اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصيلاً﴾[2].

ويأمر بالاكثار من الذكر:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كثيراً، وَسَبِّحْ بالْعَشِيِّ وَالابْكار﴾[3].

﴿يا أيُّها الَّذينَ امَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثيراً﴾[4].

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كثيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5].

ويأمر بالذكر عند النعمة:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْداءً، فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبكُمْ﴾[6].

﴿يا أيُّهـاَ الَّذينَ امَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ اِذْ هَمَّ قَوْمٌ اَنْ يَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ﴾[7].

(١) آل عمران: ١٩١.
(٢) الانسان: ٢٥.
(٣) آل عمران: ٤١.
(٤) الاحزاب: ٣٢ ـ ٤١.
(٥) الجمعة: ١٠.
(٦) آل عمران: ١٠٣.
(٧) المائدة: ١١.

ويأمر تعالى عباده بالذكر عند كل غفلة ونسيان:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسيتَ﴾(١).

ويأمر تعالى بالذكر بعد الصلاة:

﴿فَاذا قَضَيْتُمُ الصَّلاة فَاذْكُرُوا الله قِياماً، وَقُعُوداً، وَعَلى جُنُوبِكُمْ﴾(٢).

﴿فَاذا قُضِيَتِ الصلاةُ، فَانْتَشِرُوا في ٱلأَرْضِ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله، وَاذْكُرُوا الله كَثيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾(٣).

ويأمر تعالى باعلان الذكر واخفائه، فيأمر باقامة الصلاة واعلانها، وهي من اظهر مصاديق ذكر الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾(٤).

وأمر باخفاء االذكر في النفس:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ في نَفْسِكَ، تَضَرُّعاً، وَخيفَةً، وَدونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ، بِالْغُدُوِ وَٱلاصالِ وَلاتكُنْ مِنَ ٱلغافِلينَ﴾(٥).

ترى لماذا هذا التاكيد والتكريس والاهتمام بامر الذكر في السرّ والعلن، وفي كل الاحوال، وبالاستمرار والدوام، وكثيرا وبعد كل نعمة، وبعد كل نسيان وغفلة، والتكريس الذكر والصلاة ونسك الحج؟

ان الجواب على هذا السؤال واضح نكتشفه من هذا الاهتمام بالذكر في القرآن بالذات، فان الذكر كما ذكرنا هو البؤرة التي تستقطب كل اهتمامات وحب وتعلق ومشاعر الانسان، وكل حب وتعلق واهتمام اخر يأتي في امتداد هذا الحب ويكون محكوما له، فلا ينهى الاسلام الانسان من ان يأخذ بحظه من الدنيا ومتاعها (ولا تنس نصيبك من الدنيا)(٦).

(١) الكهف: ٢٤.
(٢) النساء: ١٠٣.
(٣) الجمعة: ١٠.
(٤) طه: ١٤.
(٥) الاعراف: ٢٠٥.

ولكن بشرط ان لا تتحول الدنيا ومتاعها وحطامها الى محور حاكم في نفس الانسان في قبال المحور الالهي، والى جنبه، وفي عرضه.

ولا يجوز ان يتوزع قلب الانسان المسلم على مجموعة محاور ومراكز للاهتمام والتعلق وانما القلب لله تعالى فقط، وذكر الله هو المحور الاول والاخير في القلب.

الذكر (وصل) و (فصل): فللذكر في حياة الانسان المسلم، وفي قلبه (وصل) و (فصل) فصل عن غير الله، ووصل بالله، و (قطع) و (ارتباط) قطع عن غير الله، وارتباط بالله تعالى، و(اشتغال) و (انصراف) اشتغال بالله وانصراف عن الدنيا.

التبتل في الذكر: هذا هو معنى (التبتل) في الذكر فان التبتل هو الانقطاع والله تعالى يامرنا بالذكر ويامرنا بالتبتل اليه في الذكر ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[1]، فلا ينفع الذكر، ولايؤدي دوره في حياة الانسان الا عندما يكون مقرونا بهذا التبتل والانقطاع الى الله.

وليس معنى هذا التبتل والانقطاع ان يقطع الانسان العلاقة بالحياة الدنيا، فهذا معنى لايرغب فيه الاسلام ولا يأذن به، وانما نقصد بذلك ان يخلص الانسان المؤمن قلبه لله تعالى عن كل حب، وتعلق، واهتمام اخر، ويجعل اي حب واهتمام وتعلق اخر في امتداد حبه واهتمامه، وتعلقه بالله تعالى، عند ذلك فان الله تعالى يحب لعباده ان يتمتعوا وينتفعوا بما خلقه لهم من الطيبات، ويشكروه على ما انعم عليهم من الطيبات.

تكريس الذكر في حياة الانسان المسلم: ولتعميق وتثبيت هذا المعنى من الذكر وموقعه المحوري والمركزي في قلب الانسان يوجه الاسلام اهتمامات الانسان المسلم المختلفة، لتكون منطلقة من ذكر الله ونابعة عن ذكر الله.

فيوجه الاسلام الانسان المسلم بان يبدأ حياته بالصلاة، في كل يوم وهي من ذكر الله، وان تتخلل الصلاة حياته اليومية عدة مرات في النهار والليل، في وضح النهار

(١) المزمل: ٨.

عند دلوك الشمس وفي غسق الليل، ولدى قرآن الفجر.

ويوجه الاسلام الانسان المسلم الى ان يربط حياته كلها بذكر الله، فيبدأ حركته في السوق بذكر الله، ويبدأ الاكل بذكر الله، ويذهب الى النوم بذكر الله، ويبدأ مباشرة العلاقة الزوجية مع زوجه بذكر الله تعالّى، ويبدأ سفره بالذكر، ويذكر الله حين الوصول الى بيته وعند الخروج، وعند كل مصيبة، وعند كل نعمة، وعند كل مهمة، وعند كل عسر، وعند كل يسر.

وبذلك فان الاسلام يوجه بصورة عملية حياة الانسان المسلم لتكون اهتماماته كلها منطلقة من ذكر الله ونابعة منه. ولهذا التوجيه التربوي دور كبير في تخليص القلب من كل حب واهتمام وتعلق غير التعلق والحب لله تعالى.

حصانة الذكر: وبعد فان الذكر ـ بهذا المعنى المحوري والموقع الرئيسي في القلب ـ يحمي الانسان ويحفظه من جاذبية الدنيا، ومن وساوس الشيطان وتزيينه واغوائه، ويحصن الانسان ضد الشيطان وضد الهوى وضد التعلق بالدنيا والميل والانجرار اليها، فان القلب الموصول بالله تعالى بالذكر لن يكون مزرعة للشيطان والهوى، ولن يكون للشيطان ولمغريات الحياة الدنيا سلطان عليه.

وقد ورد في النصوص الاسلامية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن ادم، فاذا ذكر الله خنس ، واذا نسى النعم فذلك الوسواس الخناس»[1].

وعن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام: (ذكر الله دعامة الايمان وعصمة من الشيطان)[2].

ومن كلمات الامام امير المؤمنين في نهج البلاغة: «اشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له، شهادة ممتحنا اخلاصها فانها عزيمة الايمان وفاتحة الاحسان

(١) تفسير نور الثقلين: ٧٣٥/٥.

(٢) غرر الحكم:

ومرضاة الرحمن ومدحرة الشيطان»[١].

وعنه عليه السلام ايضا: «ذكر الله مطردة الشيطان»[٢].

والانسان يهم بالمعصية فيذكر الله تعالى فيعصمه الذكر منها ويحفظه من ان يتلوث بها.

عن الامام محمّد الباقر عليه السلام: ثلاث من اشد ما عمل العباد: انصاف المرء من نفسه، ومواساة المرء اخاه، وذكر الله على كل حال، وهو ان يذكر الله عزّ وجلّ عند المعصية يهم بها فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[٣].

وعن الحسين البزاز قال: لي ابو عبد الله عليه السلام: الا احدثك بأشد ما فرض الله عزّ وجلّ على خلقه؟ قلت: بلى. قال: انصاف الناس من نفسك، ومواساتك لاخيك، وذكر الله في كل موطن، اما اني لااقول: «سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر»، وان كان من ذاك ولكن ذكر الله فى كل موطن اذا هممت على طاعته او معصيته[٤]

القرآن كتاب (الذكر)

وبعد: فان ذكر الله من اهم عوامل حصانة الانسان وحفظه، والقران كتاب للذكر، وصفة الذكر من اهم اوصاف القرآن يقول تعالى في صفة كتابه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[٥].

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٦].

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢.

(٢) غرر الحكم:

(٣) بحار الانوار: ٣٧٩/٩٣.

(٤) بحار الانوار: ١٥٤/٩٣

(٥) يس : ٦٩/٣٦.

(٦) المدّثر: ٥٤/٧٤ ـ ٥٥.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

ولقد يسر الله تعالى كتابه للناس ليكون ذكرا لهم:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(٣).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٤).

فالقران كتاب (ذكر)، و (ذكرى) و (تذكرة) للمؤمنين يشد المؤمنين بالله تعالى بحبل الذكر، ويصل قلوبهم به تعالى، فهو الحبل الموصول بين الله تعالى وبين عباده واذا ارتبط الانسان بالله وشد حبله بحبل الله، فلا يستطيع الشيطان عندئذ ان يقطعه عن الله، ويجره اليه.

ان الشيطان انما يستدرج القلوب غير الموصولة بحبل الله، فاذا اوصل الانسان قلبه بالله تعالى وفتح بينه وبين الله طريقا مفتوحا فلا يستطيع الشيطان ان يقهره ويشده الي الدنيا، ويجعل همه وتعلقه وحبه وهواه في الدنيا ومغرياتها.

عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) «ان هذا القران هو النور المبين، والحبل المتين والعروة الوثقى»(٥).

وعن امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام): «ان الله لم يعط احدا بمثل القران، فانه حبل الله المتين، وسببه الامين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره مع انه قد ذهب المتذكرون وبقى الناسون والمتناسون فاذا رأيتم خيرا فاعينوا عليه واذا رأيتم شرا فاذهبوا عنه»(٦).

(١) التكوير ٢٧/٨١.
(٢) الانعام ٩٠/٦.
(٣) القمر ١٧/٥٤ و ٣٢.
(٤) الدّخان ٥٨/٤٤.
(٥) بحار الانوار: ٣١/٩٢.
(٦) نهج البلاغة: رقم ١٧٦ وبحار الانوار ٢٤/٩٢.

ويقول امير المؤمنين عليه السلام ايضا في صفة القران:

«ثم انزل عليه الكتاب ـ اي على رسول الله صلّى الله عليه وآله ـ حبلا وثيقا عروته، ومعقلا منيعا ذروته، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدى لمن ائتم به»[١].

وايضا عن امير المؤمنين عليه السلام في صفة القران: (عليكم بكتاب الله، فانه الحبل المتين والنور المبين، والشفاء النافع، والري الناقع والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق لايعوج فقيام لايزيغ فيستعتب)[٢].

٢ ـ حصانة التقوى

والتقوى هي الحصانة الثانية في حياة الانسان تحمي الانسان وتحصنه من الشيطان والهوى ومن تأثير مغريات الحياة الدنيا.

والقرآن كتاب المتقين: والقران كتاب المتقين، يدعو الى التقوى ويرسم معالمها.

﴿ذلكَ ألْكتابُ لا رَيْبَ فيه، هُدىً لِلْمُتَّقينَ﴾[٣]

﴿فَإنَّما يَسَّرناه بِلسانِكَ لِتُبَشِّرَ بهِ المتقين، وَتُنْذِرَ بهِ قَوْماً لُدّاً﴾[٤].

﴿وَكَذلِكَ أنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً، وَصَرَّفْنا فيهِ مِنَ الْوَعيدِ، اَوْيُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾[٥].

﴿هذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقينَ﴾[٦].

﴿وَهذا كِتابٌ أنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فاتَّبِعُوهُ وَاتَّقوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[٧].

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٩٨.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٥٦ وبحار الانوار ٢٣/٩٢.

(٣) البقرة ٢/٢.

(٤) مريم ٩٧/١٩.

(٥) طه ١١٣/٢٠.

(٦) آل عمران ١٣٨/٣.

(٧)الانعام ١٥٥/٦.

التقوى حصن الله:

وحقيقة التقوى هي الالتزام بحدود الله تعالى (الواجب والحرام)، والاستقامة على الصراط الذي رسمه الله تعالى للانسان، وهي العمل والحركة والعيش ضمن الدائرة التي يرسمها الله تعالى لعباده، وهي دائرة الحدود الالهية (الواجبات والمحرمات) التي لايأذن الله تعالى لعباده ان يتخطوها.

وما دام الانسان يعيش ويتحرك ضمن هذه الدائرة، ولا يتجاوزها، فان هذه الدائرة تحصنه وتحميه من السقوط والهلاك ومن السيئات والمزالق. انها حصن الله المنيع في حياة الانسان، فاذا لجأ الانسان اليها حمته من السيئات.

فان الصدق من حدود الله يحمي الانسان عن الوقوع في الكذب، وحفظ اللسان وكفه عن ذكر الاخرين بالسوء حد من حدود الله تعالى يحمي الانسان من الغيبة والافتراء، والتهمة، والوشاية، والنميمة، والفحش وكلام السوء، والصلاة تحمي الانسان من السوء والفحشاء والمنكرات ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرَ﴾(١).

هذه الدائرة ـ اذن ـ دائرة محمية من المنكرات والسوء والفحشاء والسيئات، والمزالق والمهالك كلها تقع خارج هذه الدائرة، فاذا احتمى الانسان بها حمته من جميع السيئات والمنكرات، ولم ينزلق قدمه الى سوء وسيئة، وكانت له حصنا منيعاً وسياجا يحميه عن السقوط والهلاك.

كما ان هذه الدائرة (دائرة التقوى) تحصن الانسان من الشيطان ايضا، فلا يستطيع الشيطان ان ينفذ الى هذه الدائرة من الخارج، وان يستدرجه للخروج من حدود الله، ويوقعه في المهالك بما له من وسائل الاغراء والوسوسة والتزيين، ولا يستطيع ان يخترق هذا السياج الحامي (حدود الله) وينفذ اليه من دائرة التقوى الا

(١) العنكبوت ٢٩/٤٥.

ان يطوف به طيفـا خفيفـا ضعيفا فتنذره التقوى وتذكره، فيتبصر الانسان فيطرد الشيطان عن نفسه طردا عنيفا.

يقول تعالى: (**إنَّ الَّذينَ اتَّقَواْ إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإخْوانُهُمْ يَمُدّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ**)[1].

فالشيطان لايملك على الانسان سلطانا اذا كان في دائرة التقوى وعبودية الله تعالى وطاعته:

﴿**إنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ، إلاّ مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوينَ**﴾[2].

﴿**إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ، إنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾[3].

وانـما يطوف الشيطان بالمؤمنين طيفا خفيفا من بعيد، كما تطوف الاحلام بالانسان طيفا في المنام ثم تزول.

واذا كان فعل الشيطان وتأثيره على المتقين تأثيرا ضعيفا، فان رد الفعل الذي يبديه المتقون في مقابل فعل الشيطان رد قوي وسريع، وانذار مبكر ﴿**تَذَكَّرُوا فَاذا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾ هكذا في رد سريع وانذار مبكر يتذكرون، فاذا هم مبصرون مسلحون بكل ما يتطلبه الامر من بصيرة وذكر لطرد الشيطان.

فالتقوى اذن-حصن منيع في حياة الانسان، يقول امير المؤمنين عليه السلام:

«التقوى حصن حصين لمن لجأ اليه»[4].

«التقوى حصن المؤمن»[5].

«التقوى حرز لمن عمل بها»[6].

«التقوى اوثق حصن واوقى حرز»[7].

(١) الاعراف ٧/٢٠٢ و ٢٠١.

(٢) الحجر ١٥/٤٢.

(٣) النحل ١٦/٩٩ و ١٠٠.

(٤) و(٥) و(٦) و(٧) غرر الحكم للامدي في كلمات الامام أمير المؤمنين عليه السلام.

«امنع حصون الدين التقوى»[١].

«الجأوا الى التقوى، فانه جنة منيعة من لجأ اليها حصنته، ومن اعتصم بها عصمته»[٢].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام ايضاً:

«اعلموا عباد الله: ان التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل لا يمنع اهله ولا يحرز من لجأ اليه، إلاّ بالتقوى قطع حمة الخطايا»[٣].

التقوى حصن ام سجن؟:

فالتقوى في حياة الانسان حصن و(الحصن) و (السجن) يشتركان في انهما يحددان الانسان، ولكن السجن يحرس المجتمع من السجين، والحصن يحرس المتحصنين به من الاعداء، وكلاهما يتطلب التحديد، ولكن احدهما لحفظ المجتمع وسلامته، والاخر لحفظ الذين يلجأون الى الحصن وحمايتهم، وبالتالي فان السجن عقوبة، والحصن حماية، والتعبير هنا عن التقوى بـ(الحصن) لئلا يتصور الناس ان الضوابط والحدود التي تضبط وتحدد المتقين هي من قبيل الحدود والقيود التي تسلب الانسان حريته.

والتقوى (دار حصن عزيز): والحصن العزيز هو الحصن الذي يقاوم تأثير العوامل ونفوذها الغريبة من الخارج ويرفض نفوذ العوامل الغريبة.

يقول العرب ارض عزاز للارض الصلبة التي ترفض قبول تأثير العوامل الجوية والامطار.

التقوى دار حصن عزيز تحمي صاحبها من نفوذ الهوى والشيطان ومغريات الحياة الدنيا، ولا يتمكن الشيطان من النفوذ الى دائرة هذا الحصن واختراق سياجه

(١ و ٢) غررالحكم العدهدى فى كلمات الامام اميرالمؤمنين عليه السّلام.

(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٥٧.

وحدوده. وهي تقطع (حمة الخطايا) فان الخطايا تلدغ وتسمم الانسان كما تسمم الانسان الحشرات السامة، والتقوى تقطع عن الانسان حمة الخطايا.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام ايضاً:

«اوصيكم عباد الله بتقوى الله، التي هي الزاد وبها المعاد زاد مبلغ ومعاذ مبحح عباد الله ان تقوى الله حمت اولياء الله محارمه والزمت قلوبهم مخاوفه»(١).

التقوى زاد للطريق ومعاذ ومفتاح للتوفيق:

والتقوى (زاد) ووقود للطريق الطويل الى الله، والتقوى (معاذ) وملجأ للانسان في هذا الطريق مما يحف به من الشرور والفجور والاهواء (زاد ومعاد)، والتقوى تحمي وتحرس اولياء الله من تجاوز حرمات الله تعالى ومحارمه، والتقوى تمنح قلب الانسان مخافة الله وتأملوا في هذه الكلمة العلوية في نهج البلاغة حول التقوى واثارها ودورها في حياة الانسان:

(ان تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة)(٢).

ان التقوى (مفتاح) للتسديد والتوفيق في حياة الانسان، ان كنوز التوفيق والتسديد ليس بيد الانسان، وانما هي بيد الله تعالى، ومفتاحها التقوى، فمن يتقي الله يهديه الله ويسدده، ويوفقه ويجعله على بصيرة من امره، ويبلغه حيث يرتضيه له من خير الدنيا والآخرة.

والتقوى(ذخيرة معاد)، ولا يدخر الانسان ليوم القيامة ذخيرة افضل من التقوى، ولا يأخذ الانسان معه الى الله تعالى بضاعة افضل من التقوى.

(وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة): وعلى عكس ما يتصور الانسان

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٥١.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ٢٢٨.

فان ضوابط التقـوى وحـدودهـا ليس من قبيل القيد والسجن للانسان، وانما هو الانعتاق والانطلاق من قيود الهوى والشهوات في حياة الانسان؛ عتق من كل ملكة: (هوى)، ونجاة من كل هلكة.

التعاطي بين الانسان والتقوى[1]:

وكما تحصننا التقوى وتحفظنا وتحرسنا فان علينا في المقابل ان نحفظ التقوى في حياتنا ونحرسها ونصونها، وهذا التعاطي المتقابل بين الانسان والتقوى من افضل المعاني للتعاطي والتبادل.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«ألا فصونوها وتصونوا بها»[2].

فان التقوى لباس الانسان يستره ويحفظه و يحميه ﴿وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ﴾[3].

وكما يحمي الانسان لباسه ويحفظه ويقيه من البرد والحر والغبار والاوساخ ومن عيون الناس، كذلك على الانسان ان يحفظ ملابسه من الاوساخ والغبار ومن ان تخلق وتبلى.

وهكذا العلاقة بين التقوى وصاحبها تحمي هي صاحبها ويحميها في المقابل صاحبها ويحرسها من الضياع والضعف.

والقرآن كتاب التقوى:

وبعد فان القرآن كتاب التقوى يدعو الناس الى تقوى الله تعالى ويرسم لهم

(١) هذه الالتفاتة للشهيد الشيخ مرتضى المطهري في كتابه القيم العدل الالهي.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٩١.

(٣) الاعراف ٧/٢٦.

معـالم التقـوى وحدود الله، ويحفظهم ضمن هذه الحدود من الشيطان وجنده، ومن الاهواء والفجور، ومن مغريات الحياة الدنيا.

فالقـرآن بذلك يشكل معقلاً منيعاً وحصناً ومعاذا في حياة الانسان يحميه ويحفظه ويحصنه من الشيطان والاهواء.

القرآن معقل منيع:

وقد ورد التعبير عن القرآن بـ (المعقل المنيع) في كلمات الامام أمير المؤمنين (عليه السلام).

«ثم انزل عليه الكتاب ـ أي على رسول الله ـ معقلا منيعا ذروته وعزا لمن تولاه»[1].

وهـذان نوعـان من الحصانة، في الاول يمنع القرآن عن اطلالة الشيطان وعوامل الفساد على الانسان، واشرافه واستعلائه عليه، فان القرآن معقل شامخ منيع الذروة لا يتمكن الشيطان من ان يتسلقه، ويطل ويشرف منه على الانسان.

ومن الثـاني يمنـح القرآن الانسان حصانة من نوع آخر يمنع الشيطان وعوامل الانحراف من النفوذ في نفوس حملة القرآن والذين يتولونه:

(وعزا لمن تولاه)، والعز بمعنى الصلابة ورفض نفوذ العوامل الغريبة، وبهذا المعنى يقال (ارض عزاز) أي ارض صلبة تأبى نفوذ وتأثير العوامل الخارجية فيها كما ذكرنا قريبا.

وفي نفس الكلمة يقول الامام في صفة القرآن «وجنة لمن استلام»[2] فان القرآن ليس فقط سلاحاً يقاتل به المسلم ائمة الكفر وشياطين الجن والانس ، وانما هو (جنة) ايضاً بيده يحميه من عدوان الشيطان واوليائه، كما تحمي الجنة وتقي الدروع

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٩٨.

(٢) نفس المصدر.

صاحبها من ان ينال منه العدو.

القرآن تثبيت للافئدة:

وان النفوس قد يسرع اليها ضعف الانسان عند مواجهة اعصار الحوادث والابتلاءات، وفي ساحات الصراع ومواجهة الطاغوت وائمة الكفر، فتهتز النفوس الثابتة وتضعف، فيجد الشيطان له طريقا من خلال نقطة الضعف هذه، فيمنحها القرآن ايمانا وثباتا ويقينا بتأييد الله تعالى ونصره للقله المؤمنة من حزب الله في صراعه ضد اولياء الشيطان، ويمنحه الرؤية الربانية الشاملة لساحة الصراع، وسنن الله تعالى في هذه الساحة في الابتلاء والنصر: ابتلاء المؤمنين لتمحيصهم، وابتلاء اولياء الشيطان لمحقهم وهلاكهم، ثم ضمان النصر للمؤمنين في نهاية الشوط بعد رحلة العذاب والمعاناة الطويلة... فيثبت القرآن بذلك افئدة المؤمنين في ساحة المعركة، كما ثبت سبحانه وتعالى بالقرآن من قبل فؤاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرانُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتيلاً﴾(١).

فالقرآن كما يعصم حامله من نفوذ الشيطان ووساوسه واغرائه وتزينه ويحفظه من عوامل السقوط والفساد، كذلك يعصم حامله من الضعف والقلق الذي يصيب الانسان عند المواجهة في ساحة الصراع.

في القرآن شفاء للقلوب المريضة:

ولا بد ان نتوقف قليلا عند كلمة (القلوب المريضه) أو (امراض القلوب)، لنعرف دور القرآن في شفاء هذه القلوب، وهو مصطلح قرآني ولا نعرف ما اذا كان لهذا المصطلح وجود قبل القرآن أم لا.

(١) الفرقان ٢٥/٣٢.

ويقصد القرآن بهذا المصطلح: القلوب التي تنحرف عن حالة السلامة، والتي تفقد سلامتها وبالتالي لا تستطيع ان تقوم بدورها في توجيه الانسان الى الله تعالى.

وقد روي عن امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (ان للجسم ستة احوال: الصحة، والمرض ، والموت، والحياة، والنوم، واليقظة، وكذلك الروح، فحياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شكها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها(أي ذكرها)[1].

وبناء على هذا النص، فان القلوب تحيى بالعلم، وتموت بالجهل، وتمرض بالشك والريب، وتصح باليقين، وتنام بالغفلة، وتستيقظ بالذكر.

ثلاث طوائف من القلوب:

وقد ورد في الآية المباركة التالية ذكر لثلاثة طوائف من القلوب : القلوب المريضة ، والقلوب الميتة (القاسية) ، والقلوب السليمة.

يقول تعالى ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاّ إِذا تَمَنّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ اياتِهِ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ امَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

فما يتمنى رسول ولا نبي ان يستجيب الناس للدعوة وينقادوا لله تعالى إلّا عمل الشيطان في افساد هذه الرغبة والامنية، واثارة الشكوك والوساوس حول دعوة الانبياء، ثم ينسخ الله عمل الشيطان، ويحكم دعوة الانبياء الى اياته، فيكون ما يلقي الشيطان من وساوس وشكوك في دعوة الانبياء سببا لافتتان طائفتين من القلوب:

(١) بحار الانوار: ٦١/٤٠.

(٢) الحجّ ٢٢/٥٢ ـ ٥٤.

(القلوب المـريضـة)، و(القلوب القـاسية)، (فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم)، واما القلوب السليمة التي استجابت لدعوة الانبياء وعلمت انها الحق فتزداد ايمانا وتخبت لها (أي تلين وتخشع).

فهذه ثلاثة طوائف من القلوب، تذكرها الآية المباركة.

ومنها يظهر ان القلوب القاسية غير القلوب المريضة، فان القلوب المريضة هي التي تتعـطل بصورة جزئية وفي بعض الجوانب، اما القلوب القاسية فهي التي تتعطل بصورة كاملة وتفقد كل دورها، فالقلب القاسي كالحجر الصلب لا يأخذ ولا يعطي، ومهمة، القلب هي الأخذ والعطاء ان يأخذ من الله ويعطي للانسان. يأخذ من الله النور والوعي والقوة والعزم، ويعطي ذلك لصاحبه في حركته الى الله. اما القلوب القاسية فهي لا تأخذ من لدن الله تعالى شيئا بسبب قسوتها وبالتالي لا تعطي للانسان شيئا.

ان الارض الهشة الرخوة تاخذ من المطر والهواء والشمس ، وتمنح ذلك للنواة التي تنميهـا في جوفهـا، وبـذلك تزدهر وتخصب وتخضر وتثمر، اما الارض الصلبة الصخرية فلا تأخذ شيئا ولا تعطي، وبذلك تبقى قاحلة جدباء، وهكذا القلوب القاسية.

فالقلوب القاسية في الحقيقة قلوب ميتة وعاطلة تماماً عن اداء دورها في حياة الانسـان، فهاتان طائفتان من القلوب:القلوب المريضة، والقلوب القاسية (الميتة) تفتتنان بوساوس الشيطان والقاءاته.

واما القلوب المؤمنة فتزداد ايمانا وصلابة تجاه الباطل، واخباتا وخشوعا ولينا تجاه الله تعالى، وهذه الصلابة واللين وزيادة الايمان والاخبات تكتسبها هذه القلوب من طبيعة المواجهة مع الشيطان في ساحة الدعوة، فان المواجهة كما تضع اناسا ترفع اناسا آخرين.

فهذه ثلاثة طوائف من القلوب في هذه الآية الكريمة.

القلوب السليمة:

والقلوب السليمة هي التي تؤدي دورها اداء سليما، وليس لغير الله تعالى فيها حظ او شرك، فتخلص لله تعالى في حبها وبغضها، وفي التوكل والرجاء، وتشخع لله تعالى وتخبت، وتحب في الله، وتبغض في الله، وتنقاد لامر الله وتطيع ولا تقدم شيئا على امر الله تعالى ورسوله، وهذه امارة سلامة القلب.

يقول تعالى: ﴿يا أيُّهَا الَّذينَ امَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا الله﴾[1].

فالقلب السليم هو الذي لا يتقدم بحب ولا بغض بين يدي الله ورسوله، وانما يجعل حبه وبغضه تابعا لما يريد الله ورسوله، وكلامه وحركته تبعا لامر الله.

والقلب السليم هو الذي يسلم من كل انحراف وزيغ، ومن الاستجابة للهوى والشيطان، ومن الحب في غير الله والبغض في غير الله، وهو كذلك مصطلح قرآني محدد كما كان الأمر كذلك في القلب المريض يقول تعالى:

﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إلاّ مَنْ اَتَى الله بِقَلْبٍ سَليمٍ﴾[2].

فلا ينفع الانسان يوم القيامة بضاعة مهما كان نوعها بين يدى الله إلاّ من جاء الى الله بقلب سليم، فهو وحده البضاعة التي يتقبلها الله تعالى من عباده في ذلك اليوم.

القلوب المريضة:

وفي مقابل (القلب السليم) يقع (القلب المريض)، وهو كما ذكرنا مصطلح قرآني محدد يستعمله القرآن الكريم كثيرا يقول تعالى: ﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ الله

(١) الحجرات ٤٩/١.

(٢) الشعراء ٢٦/٨٨.

مَرَضاً﴾[١].

﴿يا نِساءَ النَّبِيّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ اِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[٢].

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمنافِقُونَ وَالَّذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ في الْمَدينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾[٣].

والقلب المريض في مقابل القلب السليم، هو القلب الذي يضعف في عمله ويتعطل في بعض الجوانب عن اداء وظيفته ودوره في عملية الأخذ والعطاء (الأخذ من الله والعطاء للانسان).

والقلب اذا ضعف في التلقي من لدن الله تعالى ضعف في امداد صاحبه بالنور والوعي والقوة والعزم بصورة طبيعية، والقلب المريض بعكس القلب السليم يستجيب لغير الله ويكون لغير الله حظ وشرك ونصيب في حبه وبغضه واقباله واعراضه واستجابته وصدوده ويكون للهوى دور وسلطان فيه، ومن ثم يستجيب لها ولا يتمكن من الاخلاص لله تعالى في حبه وبغضه ورجائه وخوفه، ولا تكون مرضاة الله تعالى هي المحور الذي يستقطب كل شؤونه وعمله واهتمامه.

سيئات الجوانح والجوارح:

وانما يمرض القلب بالسيئات والذنوب، وللقلوب سيئاتها وذنوبها كما للاعضاء والجوارح، وهذه رؤية جديدة وفهم جديد على البشرية للسيئة تماما يطرحها القرآن الكريم، فالناس يفهمون (السيئة) و(الذنب) في دائرة الجوارح والاعضاء فقط، اما سيئات القلوب وما يخفيه الانسان في نفسه فهو امر جديد على تصورات

(١) البقرة ٢/ ٣.
(٢) الاحزاب ٣٣/ ٣٢.
(٣) الاحزاب ٣٣/ ٦٠.

الناس للمعصية والذنب والسيئة.

يقول تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾[٣].

فهناك من السيئات ما يخص القلوب ولا علاقة لها بالجوارح والاعضاء، وسواء يظهر الانسان ما في نفسه او يخفيه فان الله تعالى سوف يحاسبه عليها.

واوضح منها جميعا قوله تعالى:

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[٤].

فان باطن الاثم او الاثم الباطني هو الاثم الذي ترتكبه القلوب ويستبطنه الانسان في نفسه، وقد امرنا ان نكف عن الذنوب ظاهرها الذي ينعكس على الجوارح والاعضاء وباطنها الذي تكتسبه القلوب. وهذه الذنوب والاثام في داخل النفوس والقلوب هي اساس الذنوب التي تكتسبها الاعضاء والجوارح. فالحسد ذنب من ذنوب القلوب، والكره والبغضاء من اثام النفوس ، والعجب من معاصي القلوب، ولكن لهذه المعاصي جميعاً انعكاسات واسعة على جوارح الانسان واعضائه.

ومهما يكن من امر فان هذه الاثام هي اساس امراض القلوب وانحرافاتها وهي اساس شقاء الانسان وبؤسه.

القرآن شفاء للقلوب المريضة:

وبعد هذه الجولة السريعة في دائرة امراض القلوب نعود لنقول ان الله تعالى قد جعل القرآن شفاءً للقلوب المريضة.

(١) البقرة ٢/٢٢٥.

(٢) البقرة ٢/٢٨٣.

(٣) البقرة ٢/٢٨٤.

(٤) الانعام ٦/١٢٠.

يقول تعالى: ﴿يا أيُّها النّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبّكُمْ وَشِفاءٌ لِما في الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلّذينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالّذينَ لا يُؤْمِنُونَ في آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنَ مَكانٍ بَعيدٍ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِين ولا يَزيدُ الظّالِمِيَن إلاّ خَساراً﴾[3].

اسباب امراض القلوب:

ولنقف بعض الوقت عند هذه الايات المباركات:

ان حالات مرض القلب تنشأ من امرين:

من الشك في الله تعالى.

ومن سلطان الهوى والشهوات على النفس.

١ـ الشك في الله: وهذا هوالسبب الأول لحالات امراض القلب، فان الشك يزلزل القلب عن مستقره في الايمان والعقيدة، ويعصف به ويعتم عليه الرؤية الصافية والواضحة ويسلبه اليقين، وعند ذلك يتحول الانسان من عنصر هادف يملك رأيا وموقفا محددا وخطا فكريا وسياسيا واتجاها واضحا الى خشبة طافية في مجرى التيار يلعب به التيار ويسلب منه الموقف والرأي والوضوح والخط.

ويفرز هذا الشك جملة من امراض القلب وليس هذا الشك دائما في ذات الله فقد يكون الشك في صفات الله واسماء الله الحسنى، وهو يساوق الشك في ذات الله. فالحسد وهو من اهم الأمراض النفسية وأشدها نابع من الشك في صفة الرازقيّة في

(١) يونس ٥٧/١٠.

(٢) فصّلت ٤٤/٤١.

(٣) الاسراء ٨٢/١٧.

وصفة الحكمة والعدالة من صفات الله واسمائه الحسنى، فان الانسان اذا امن بان الله هو الرزاق ذو القوة المتين لا بخل في ساحته ولا ينقص الجود والكرم لعباده شيئا من خزائن رحمته، وانما يوسع على من يشاء من عباده بالرزق ويقدر على من يشاء لما يراه من حكمة ومصلحة تخفى علينا.

اذا آمن الانسان بهذه الحقائق فلا يحسد الناس على ما اتاهم الله من الرزق والرحمة، فله ان يسأل الله ان يرزقه ما رزق غيره، فلو كانت المصلحة والحكمة تقتضي ذلك فليس في ساحة الله تعالى بخل ولا ظلم تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وانما يحسد الناس بعضهم بعضا لشك يخالج نفوسهم في عدالة الله تعالى، او في رزاقيته، او في عدله، والشك في كل واحد من هذه الصفات شك في ذات الله تعالى. وكذلك الطمع والجشع والتهالك على السعي في تحصيل حطام هذه الدنيا نابع من الشك في واحد من هذه النقاط بالضرورة. ولو ان الناس امنوا بالله وبصفاته الحسنى ايمانا كاملا لم يحسد بعضهم بعضا واجملوا في السعي في طلب الرزق ولم يحترقوا بنار الطمع والجشع والحسد.

وقد ورد في الادعية كثيرا الاشارة الى هذه النقطة (واجعلني بقسمك راضيا)، فان الانسان اذا امن بحكمة الله تعالى وعدله ورزقه برئ من الحسد والطمع واجمل في السعي في طلب الرزق.

٢ـ سلطان الهوى والشهوات على النفس : والسبب الآخر لامراض القلب سلطان الهوى والشهوات على النفس ، فيتوزع القلب بين الاستجابة لله تعالى، وسلطان الهوى والشهوات. يطيع الله تارة، ويعصي الله تعالى في الاستجابة والانقياد لاهوائه تارة اخرى. ويعطي حبه لله تعالى حينا، ولغير الله من مغريات الدنيا حينا اخر. ويجعل لله تعالى شريكا في قلبه في الطاعة والاستجابة والحب، وهذا نوع من (الشرك) ودرجة من درجاته. ومن خلال هذه الاستجابة لسلطان الهوى يمتد الشيطان الى حياة الانسان ويحتل قلبه ويفرض سلطانه ونفوذه على قلبه وعقله ويسلبه البصيرة والعزم والتقوى. وتتمكن من نفسه الاهواء والشهوات.

وكل ذلك يكون سببا لان يتجاوز الانسان حدود الله تعالى ويرتكب الذنوب والمعاصي وتكثر الذنوب ويتكرر السقوط في حياة الانسان، ثم تتحول هذه المعاصي والذنوب التي يرتكبها الناس في الاستجابة لاهوائهم وشهواتهم الى رين وصدأ على قلوبهم تحجبهم عن معرفة الله ورؤيته، وتحجب عنهم النور وتسلبهم البصيرة والوعي، ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

فهذه طائفة واسعة من امراض القلب تنشأ من سلطان الهوى والشهوات على قلوب الناس ، وتستدرجهم بالنتيجة الى الشرك بنحو من الانحاء وبدرجة من الدرجات، وتسلبهم الاخلاص والايمان بدرجات مختلفة.

الشرك في الطاعة والشرك في الحب

يقول تعالى:﴿وَما يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[3].

﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾[4].

والقرآن الكريم يعالج هذه الامراض التي تصيب قلوب الناس وتفسد عليهم قلوبهم بطريقته الخاصة المتميزة فيبرئ القلوب من امراض الشك بتنبيه فطرة الانسان وازالة الشكوك من نفسه باعادة الانسان الى فطرته وتذكيره وتوعيته، وطريقة القرآن في هذا الجانب طريقة قوية ومؤثرة متميزة. يبرئ القلوب من الامراض الناشئة

(١) المطفّفين ٨٣/١٤.

(٢) يوسف ١٢/١٠٦.

(٣) النساء ٤/٦٥.

(٤) التوبة ٩/٢٤.

عن سلطان الهوى على النفوس بالتذكير، والوعظ، والترغيب والترهيب، والقصص، والعبر، والامثال. وطريقة القرآن في هذا الجانب ايضا طريقة مؤثرة وقوية، فالقرآن شفاء للقلوب يبرئ القلوب مما فيها من الامراض المستعصية، وليس من داء في النفس إلّا وفي القرآن له دواء، لو ان الانسان استجاب لدعوة القرآن، وقد حفلت النصوص الاسلامية بهذا المعنى.

وعن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): «ان هذا القرآن هو النور المبين والحبل المتين والعروة الوثقى والدرجة العليا والشفاء الاشفى من استضاء به نوره الله، ومن عقد به اموره عصمه الله ومن تمسك به انقذه الله، ومن لم يفارق احكامه رفعه الله، ومن استشفى به شفاه الله»(١).

وعنه صلى الله عليه وآله ايضا: «استشف بالقرآن، فان الله عزّ وجلّ يقول: شفاء لما في الصدور»(٢).

وايضا عنه صلى الله عليه وآله: «القرآن هو الدواء»(٣).

وعن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن اخبركم عنه الا ان فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم امركم»(٤).

وعن امير المؤمنين عليه السلام ايضا: «واعلموا انه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لاحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من ادوائكم واستعينوا به على لأوائكم: (محنتكم وشدتكم) فان فيه شفاء من اكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال»(٥).

(١) بحار الانوار: ٩٢/٣١.
(٢) بحار الانوار: ٩٢/١٧٦ عن (عدة الداعي).
(٣) بحار الانوار: ٩٢/١٧٦.
(٤) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٥٨ (١٥٦) وبحار الانوار: ٩٢/٢٣.
(٥) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٧٦.

وعن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «في القرآن شفاء من كل داء»[١].

وليس لامراض النفوس والقلوب من شفاء في غير القرآن، ومهما سعى الانسان وبحث عن الشفاء لما يعانيه من بؤس وشقاء في ظل الحضارة المادية فسوف لن يحصل على شيء. فقد ابى الله تعالى ان يجعل شفاء الانسان من شقائه وازماته إلّا في كتابه المبين.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله حيث يقول كما يروي عنه الرواة: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله»[٢] او «ومن استشفى بغير القرآن فلا شفاه الله»[٣].

فليس في غير القرآن دواء وشفاء لشقاء الانسان وبؤسه، ومهما يبحث الانسان بعيداً عن هدى الله وكتابه عن شفاء ودواء لبؤسه وشقائه، فلا يزيده ذلك إلّا بؤسا على بؤسه وشقاءً على شقائه.

القرآن القول الفصل

من خصائص كتاب الله انه القول (الفصل) والكلمة (الحاسمة) و (الفرقان) في تمييز الحق عن الباطل وفرز بعضه عن بعض ، والذين يؤتيهم الله تعالى بصيرة ونور بالقرآن لا يختلط لديهم الحق بالباطل، ولا تلتبس عندهم الخطوط، ويمكنهم كتاب الله من فرز الحق عن الباطل والهوى عن الهدى بصورة دقيقة وواضحة.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَما هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾[٤].

(١) مكارم الاخلاق: ٤٢٠ باب الاستشفاء بالقرآن.

(٢) مكارم الاخلاق: ٤١٨ باب الاستشفاء بالقرآن.

(٣) مستدرك الوسائل: ٢/١.

(٤) الطّارق ١٤/٨٦.

أي قول فاصل بين الحق والباطل.

ومن اسماء القرآن (الفرقان)، لانه يفرق بين الحق والباطل، ويفرز هذا عن ذاك ويميز بعضها عن بعض .

يقول تعالى: ﴿وأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالانجيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّاسِ وَأَنْزَلَ الفُرْقانَ﴾(١) ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده، لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذيراً﴾(٢).

ويقول تعالى في صفة القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهدى وَالْفُرْقانِ﴾(٣).

والقرآن ميزان دقيق للتشخيص ومعرفة الحق عن الباطل والهدى عن الضلال لايخطىء:﴿اَللهُ الذّي اَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْميزانَ﴾(٤).

التباس وتداخل الحقّ والباطل:

من طبيعة الحياة الدنيا انها تخلط الحق بالباطل، حتى يكاد يصعب على الانسان التمييز بينهما وفرز بعضهما عن بعض .

ويتداخل الحق والباطل في المجتمع، فلا يكاد الانسان، يميز اصحاب الهدى والحق عن اصحاب الهوى والباطل، ففي الناس الصالحون، وفيهم الفاسدون، وفي الناس اصحابُ القلوب السليمة وفيهم اصحاب القلوب المريضة، وليس من السهل فرز الناس بعضهم عن بعض، وتمييز الصالح منهم عن الطالح، وتتداخل الخطوط والاتجاهات والاراء والمواقف في الحياة ألدنيا فلا يكاد يميز الانسان احياناً الحق منها عن الباطل، ويحير في تشخيص الحق من هذه الخطوط والاتجاهات والاراء والمواقف.

ويعتلج الحق والباطل في داخل النفوس فيتداخل الهوى والهدى، والحق

(١) آل عمران ٣/٣.
(٢) الفرقان ٢٥/١.
(٣) البقرة ٢/١٨٥.
(٤) الشورى ٤٢/١٧.

والبــاطل، والنور والظلمة في داخل نفس واحدة، ويتوزع الانسان بينهما ويحير في التشخيص والتمييز واتخاذ القرار من بينهما.

وقد جعل تعالى في حياة الانسان اربع مفارز تفرز الحق عن الباطل، وتميز هذا عن ذاك، وترفع الالتباس بينهما بصورة دقيقة، وهذه المفارز الاربع ثلاث منها في الدنيا وواحدة في الاخرة.

اما التي في الآخرة فيوم الفصل.

يوم الفصل: من خصائص يوم القيامة انه يوم الفصل والتمييز بين الناس، ففي الحياة الدنيا يدخل الناس بعضهم في بعض، فلا يكاد يميز الانسان بين الصالحين وغيرهم من الناس، اما في الاخرة فيتميز المجرمون عن الصالحين.

﴿وَامْتازُوا الْيَومَ أيُّها الْمُجْرِمُونَ﴾(١).

وفيه ينشــطر الناس الى شطرين صالح وفاسد ويفصل يوم القيامة بينهما فصلا دقيقا.

ومن اسماء القيامة في القرآن (يوم الفصل).

﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الذّي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾(٢).

﴿إنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ميقاتُهُمْ أجْمَعينَ﴾(٣).

﴿وَإذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ * لأيِّ يَوْمٍ أُجِلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾(٤).

﴿إنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ ميقاتاً﴾(٥).

ان الحياة الدنيا تلبس الناس جميعا اقنعة متشابهة فيختلط الناس بعضهم ببعض، وتسترهم هذه الاقنعة فلا يكاد الانسان يميز الناس بعضهم عن بعض اما

(١) يس ٣٦/٥٩.
(٢) الصافّات ٣٧/٢١.
(٣) الدخّان ٤٤/٤٠.
(٤) المرسلات ٧٧/١٣ ـ ١١.
(٥) النبأ ٧٨/١٧.

يوم القيامة فتسقط هذه الاقنعة عن الوجوه ويتعرى الناس، ويحشرون عرايا من دون قناع ولا ستر ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾[١].

وفي الحياة الدنيا تصيب الانسان حسناته وسيئاته كما تصيبه حسنات غيره وسيئات غيره، فاذا احسن المحسنون، وتضرعوا الى الله واتقوا، فإن الله تعالى ينزل رحمته على تلك الجماعة وتصيب هذه الرحمة المحسن والمسيىء منهم على نحو سواء، كما ان الناس اذا اساءوا فإنّ شر هذه الاساءة تصيب الناس جميعا المسيئين منهم وغير المسيئين، واذا استنزلت هذه الاساءة غضب الله تعالى فان الغضب الالهي يصيب تلك الجماعة المسيءمنها والمحسن على نحو سواء، وهذه سنة الهية في الثواب والعقاب في الدنيا، يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً﴾[٢].

اما الاخرة فينفرز الناس بعضهم عن بعض، ويصيب كل واحد من الناس تبعات واثار عمله خاصة ان خيرا فخير وان شراً فشر.

يقول تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾[٣].

ولا يحشر الناس في الاخرة كما يحشرون في الدنيا جميعاً، بعضهم مع بعض يصيب بعضهم حسنات الاخرين وسيئاتهم، وانما يحشر الناس في الاخرة كل بانفراده ويحاسب فردا ﴿وَكُلُّهُمْ اتيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾[٤].

امّا الفصل والفرقان في الدنيا ففي ثلاث:

١ـ التقوى فرقان: والتقوى في حياة الانسان نور وفرقان تمنح صاحبها القــدرة على التشخيص والتمييز، فلا تختلط عليه الامـور، ولا يلتبس لديه الحق بالباطل، ويميز بينهما بدقة.

(١) الطّارق ٨٦/٩.
(٢) الانفال ٨/٢٥.
(٣) الزمّر ٣٩/٧ والاسراء ١٧/١٥ وفاطر ٣٥/١٨ والانعام ٦/١٦٤.
(٤) مريم ١٩/٩٥.

يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الذّينَ امَنُوا انْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾[١].

وتمنح التقوى صاحبها نورا وبصيرة وعلما تمكنه من ان يمشي به في الناس ويميز به الحق عن الباطل، والهوى والنور عن الظلمة.

يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الذّينَ امَنُوا اتَّقُوا الله وَامِنُوا بِرَسُولِه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِه وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾[٢].

يؤتكم كفلين من رحمته: اجران وليس اجرا واحدا، ويجعل لكم نورا تمشون به: نورا في العمل والمعاشرة واالسلوك، وليس للتنظير والتفكير فقط.

ويغفر لكم: وهذه الثالثة مغفرة وتطهير للذنوب.

ويقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾[٣].

الذين يتقون الله تعالى يعلمهم الله ما لا يعلمون، ويهديهم الله الى الصراط المستقيم من بين المسالك والطرق الكثيرة، ويبصرهم الحق من بين شعب الباطل والهوى.

٢ـ الفتنة والابتلاء فرقان: والفتنة والابتلاء في الحياة الدنيا من اقوى عوامل الفرز بين الحق والباطل يفرزان الباطل عن الحق في نفس الانسان، ويفرزان الباطل عن الحق في المجتمع ايضا وهذان دوران للفتنة والابتلاء في فرز الباطل عن الحق، ففي داخل النفوس يعتلج الهوى والهدى دائما.

﴿وَنفْسٍ وَما سَوّاها فألْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾[٤].

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذَّينَ امَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلكافِرينَ﴾[٥].

(١) الانفال ٨/٢٩.

(٢) الحديد ٥٧/٢٨.

(٣) البقرة ٢/٢٨٢.

(٤) الشمس ٩١/٧٩٨.

(٥) آل عمران ٣/١٤٠ ـ ١٤١.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما في صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما في قُلُوبِكُمْ﴾[1].

والتمحيص هو تخليص النفس مما فيها من الهوى والفجور والزيغ والباطل.

الفتنة تشطر المجتمع شطرين:

والدور الاخر للفتنة هو فرز الناس بعضهم عن بعض، ان الناس ليتداخلون في حالات اليسر والرفاه، ويختلطون ببعض، وفيهم المتقون الصالحون، وفيهم اصحاب القلوب المريضة، وتحشرهم الحياة الاجتماعية على صعيد واحد في السوق والعمل وفي المسجد، وفي ساحات الحياة المشتركة الاخرى، فلا نكاد نتبين اصحاب القلوب السليمة من اصحاب القلوب المريضة. فاذا حلت الفتنة بساحة المجتمع اختلف الحال، وشطرتهم الفتنة شطرين متميزين الى اليمين والى اليسار، كما يتميزون يوم القيامة تماما، فان الفتنة خافضة رافعة تخفض اناسا وترفع اخرين وتميز هولاء عن اولئك، تصمد في الفتنة طائفة من الناس، فيزيدهم الله نورا على نورهم وصلابة على صلابتهم، وينهار اخرون، ويستسلمون لتيار الضلال والانحراف، فيجرفهم التيار معه الى حيث يحب الشيطان من السقوط والهلاك، وتعبير القرآن بهذا الصدد دقيق: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذينَ امَنُوا، ويَمْحَقَ الْكافِرينَ﴾.

ففي الوقت الذي تمحص الفتنة طائفة من الناس، وتطهرهم وتخلصهم من الدنس والفجور تمحق طائفة اخرى وتهلكهم. يقول امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في الفتنة التي حدثت بمقتل عثمان بن عفان وما استتبع هذه الفتنة من البلبلة والارتباك في صفوف المسلمين: «الا وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه (صلى الله عليه وآله)، والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة، ولتغربلن غربلة حتى يعود اسفلكم اعلاكم، واعلاكم اسفلكم، وليسبقن سباقون، كانوا قصروا، وليقصرنّ

(١) آل عمران ٣/١٥٤.

سباقون كانوا سبقوا»[1] ويقول عليه السلام ايضا في نفس الفتنة: «والله لتمحصن، والله لتميزن، والله لتغربلن، حتى لا يبقى منكم الا نزر»[2].

بلبلة، وتمحيص، وتمييز، وغربلة، ثم لا يبقى في عملية الغربلة هذه الا القليل النادر من الناس . فالفتنة تفرز الناس الى شطرين اثنين، وفي الفتنة يسقط أناس كانوا من السباقين والبارزين في ساحة العمل، ويسبق أُناس لم يكن لهم شأن أو اسم يذكر من قبل.

قوانين السقوط والصعود في الفتنة:

وهذا السقوط والتخلف، والسبق والصعود لا يحصل بصورة عفوية، وانما يحصل بموجب قوانين وسنن الهية دقيقة، فالذين اتقوا وخافوا مقام ربهم يسلمون من هذه العاصفة، والذين استسلموا لاهوائهم تأخذهم عاصفة الفتنة معها. يقول امير المؤمنين عليه السلام وهو الخبير بامر الفتن وقد فقأ عينيها كما يقول هو عليه السلام «ايها الناس انما بدأ وقوع الفتن من اهواء تتبع، واحكام تبتدع، يخالف فيها حكم الله، يتولى فيها رجال رجالا»[3].

وحيث يتبع الانسان ويتولى اهوائه، فان الله تعالى يوكله الى نفسه، واذا اوكل الله الانسان الى نفسه جرفه تيار الفتنة وسلبه القدرة على المقاومة والصمود، فلا يكاد يكون للانسان حول وقوة امام عاصفة الفتنة الهوجاء اذا تخلى عنه الله تعالى واوكله الى نفسه.

يقول امير المؤمنين عليه السلام ايضا: «ان ابغض الخلائق الى الله رجلان: رجل وكله الله الى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة، ودعاء

(١) بحار الانوار: ٢١٨/٥. ونهج البلاغة الخطبة رقم ١٦.

(٢) بحار الانوار: ٢١٦/٥.

(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم ٥.

ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمال خطايا غيره رهن بخطيئته»[١].

واما اذا ما اتقى الانسان الله تعالى وخاف مقام ربه فان الله عز وجل يلتزمه ولا يكله الى نفسه ويتولى اموره ويرزقه الحول والقوة، فلا يصيبه من هذه العاصفة سوء. يقول امير المؤمنين عليه السلام: «اعلموا انه من يتق الله يجعل له مخرجا من الفتن، ونورا من الظلم»[٢] ويقول عليه السلام ايضا: «يا ايها الناس شقوا امواج الفتن بسفن النجاة»[٣].

الفتنة تخلط وتفرز:

ومن العجب ان الفتنة تقوم بدورين اثنين متعاكسين: تبلبل وتخلط وتشبه وتسلب من الناس بصائرهم فيلتبس عندهم الحق بالباطل والباطل بالحق، وفي نفس الوقت تفرز وتميز اصحاب الحق والمتقين عن غيرهم.

وقد سمعنا الامام يقول في الفتنة: «لتبلبلن بلبلة، ولتغربلن غربلة، حتى يعود اسفلكم اعلاكم، واعلاكم اسفلكم»، والبلبلة والغربلة فعلان متعاكسان، فان البلبلة خبط وخلط، والغربلة تمييز وفرز.

ويقول الامام امير المؤمنين عليه السلام ايضا في الفتنة ودورها في الخبط والخلط والتلبيس: «ان الفتن اذا اقبلت شبهت واذا ادبرت نبهت يشبهن مقبلات ويعرفن مدبرات»[٤].

فان اعصار الفتنة اذا اقبل يشبه ويلبس الامر على الناس، ويحدث لناس بلبلة وتشويشا في الرؤية، ويسلبهم القدرة على التشخيص، فاذا ادبرت الفتنة، وانتهى

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٧.
(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ٨٣ ـ ١٨٣.
(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم ٢.
(٤) كتاب الغارات، لابي اسحاق الثقفي ٦/١ وما بعده.

الاعصار انتبه الناس الى هذا الخلط والخبط الذي اصابهم في ظروف الفتنة وعند هبـوب الزوبعة. وليس في هذا التعاكس في عمل الفتنة ودورها تناقضا، وانما تخبط الفتنة، وتشوش، وتخلط الحق بالباطل، وتلبس الامر لغير المتقين اما المتقون فلا تمسهم الفتنة بسوء، ولا تنال من رؤيتهم وبصيرتهم ولا تسلب منهم الرؤية والوعي ويزيدهم الله تعالى فيها نوارا وصلابة وقوة، فتميزهم الفتنة عن غيرهم وتفرزهم عن الناس .

الفتنة تسقط الاقنعة عن الوجوه:

وبذلك فالفتنة تشطر الناس شطرين اكثرية كبيرة من الناس تسحقهم، وتجرفهم معها، واقلية من الناس تفرزهم وتمحصهم وتخلصهم. ولا يكاد يتميز هؤلاء الناس الذين تكشفهم الفتنة، وتعريهم عن الاقنعة التي كانوا يتسترون بها، وتجرفهم معهـا لولا الفتنـة، فلقد كانوا في ظروف السير والسلامة مع المؤمنين الصالحين لا يختلفون عنهم في شيء مما يراه الناس، بل كانوا يبارونهم في التظاهر بالتدين والتقوى. ونقرأ في كتاب الله هذه المقارنة بين حالة اليسر والشدّة وكيف تكشف الفتنة الناس وتعريهم، وتظهرهم على حقيقتهم وواقعهم، وتسفر عن وجوههم الحقيقة: ﴿وَالْقائِلِينَ لِاخْـوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا، وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاّ قليلاً أَشِحَّةً عَلَيكُمْ، فَاذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ، فَاذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّة عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا، فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسيراً﴾[1].

٣ـ القرآن (القول الفصل[2]):

والعامل الثالث للفصل والفرز في حياة الانسان: القرآن الكريم فهو القول

(١) الاحزاب ٣٣/١٨ و ١٩.

(٢) وكما القرآن عامل فصل وتمييز في حياة المسلمين فان اهل البيت عليهم السلام قرين الكتاب في هذا الامر، وقد

الفصل في حياة الناس والفصل كما يقول الراغب في (المفردات) إبانة أحد الشيئين عن الآخر حتى يكون بينهما فرجة، والقرآن (قول فصل) بين الحق والباطل، ليس فقط يميز بين الحق والباطل ويفرق بينهما بل يفصل بينهما حتى لا يكاد الامر يلتبس على احد يقول تعالى: ﴿إنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وما هُوَ بِالْهَزلِ﴾[1].

وهـو الفرقان، الفارق بين الحق والباطل ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرآنُ هُدىً لِلنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرقانِ﴾[2].

فاذا التبس الحق بالبـاطل، واشتبه الامر على الانسان فان القرآن يمنح الانسان بصيرة ونوراً يميز بها الحق عن الباطل والهوى عن الهدى.

ويقول تعالى ﴿تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمينَ نَذيراً﴾[3].

وليس معنى (الفرقان) ان الله تعالى فرّق القرآن تفريقاً في النزول ولم ينزله مرة واحدة وذلك ان (التوراة) قد نزل مرّة واحدة، وليس في ذلك شك، ومع ذلك فان الله تعالى يقول ﴿وَلَقَدْ آتَينْا مُوسى وَهارُونَ الْفُرقْانَ﴾[4] فيسمي (التوراة) فرقاناً.

فالقرآن فرقان لانه يميز الحق عن الباطل، ويمكن الانسان من التفريق بين الحق والباطل، اذا التبسا عليه واليك تفصيل بهذا الاجمال:

ان الشيطان لا ينفذ الى نفس الانسان من خلال الحق الصريح، ولا من خلال الباطل الصريح ـ إلّا بالنسبة الى اولئك الذين تمكن من قلوبهم ـ فلا يدعو الشيطان الانسان الى مجانبة الحق ومخالفته عندما يكون الحق صريحاً وخالصاً، ولا

← صرح بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث الثقلين الشهير الذي رواه ثقاة المحدثين من الشيعة والسنة.

(١) الطارق ٨٦/١٢ و١٣.

(٢) البقرة ٢/١٨٥.

(٣) الفرقان ٢٥/١.

(٤) الانبياء ٢١/٤٨.

يدعوه الى الباطل واتباعه عندما يكون الباطل خالصاً وصريحاً في مضلات الفتن، وانما ينفذ الشيطان الى قلوب الناس عادة اذا التبس الحق بالباطل وتداخلا وتشابها، فان الشيطان يجد في هذا الالتباس والتداخل بين الحق والباطل ارضاً هشة للنفوذ والتأثير.

يقول امير المؤمنين عليه السلام: «الا والحق لو خلص لم يكن اختلافاً، ولو ان الباطل خلص لم يخف على ذي حجى، ولكنه يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان معا فهنالك يستولي الشيطان على اوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى»(١).

وعند ذلك يحتاج الانسان الى حصانة تحميه من الشيطان، وتمنحه مناعة تمنع الشيطان من النفوذ الى نفسه، ويحتاج الى نور وبصيرة تمكنه من تمييز الحق من الباطل وفرز احدهما عن الآخر والتقوى هي تلك الحصانة، والقرآن هو ذلك النور والبصيرة التي تمكن الانسان من الفصل بين الحق والباطل، والفرز ما بينهما عند التباسهما في الفتنة ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ﴾(٢).

واليك طرفا من النصوص الاسلامية في هذا المعنى:

الكلمة النبوية في القرآن:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال: «اذا التبست عليكم الفتن، كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع وماحل مصدق، من جعله امامه قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه الى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل وهو كتاب تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل، ليس بالهزل، وله ظهر وبطن فظاهره حكمة، وباطنه علم، ظاهره انيق، وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنازل الحكمة، ودليل على المعروف لمن

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ٥٠.
(٢) المائدة ٥/١٥.

عرفه»[١].

ايضاح وشرح للكلمة النبوية:

واجب ان اقف قليلا عند فقرات هذا الحديث يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «اذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم»: ان الفتن اذا اقبلت كانت كقطع الليل المظلم، ظلمات بعضها فوق بعض، تنعدم فيها الرؤية تماما، اذا اخرج يده لم يكد يراها، وهذه خاصية الفتنة المظللة، تسلب الرؤية، ويلتبس فيها الحق بالباطل، حتى لا يكاد يميز الانسان فيها الحق من الباطل.

(فعليكم بالقرآن): في مثل ذلك عليكم باللجوء الى القرآن والتسلح بالقرآن، والتبصر والاستنارة به، (فانه شافع مشفع وماحل مصدق): فان القرآن يشفع الى الله للعاملين به ولحملته، ويطلب لهم من الله النور والبصيرة والتمييز وازالة اللبس، والهدى والبصيرة، كما ان القرآن (ماحل مصدق[١]) يسعى الى الله عزّ وجلّ في المعرضين عنه، ويشكوهم الى الله، ويصدقه الله تعالى.

(وهو كتاب تفصيل وبيان وتحصيل): ليس فيه اجمال او غموض، ولا يترك لحملته لبسا او ترديدا في شأن من شؤون الدنيا والاخرة.

(وهو الفصل، ليس بالهزل): انه القول الفصل الفاصل بين الحق والباطل، وبين الهوى والهدى، وهو الجد كل الجد، ليس فيه من الهزل شيء.

(له نجوم وعلى نجومه نجوم): والنجوم هي معالم الطريق للسائرين في الليل في البيداء ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[٢] ففي القرآن نجوم ومعالم للطريق،

(١) الماحل الذي يسعى الى السلطان عن رعيته، والقرآن ماحل مصدق اذا سعى عن الانسان الى الله عزّ وجلّ صدقه.

(٢) النحل ١٦/١٦.

على طريق الناس الى الله، لا يضيّع الطريق من تسمك به وسار على هدى نجوم القرآن ومعالمه، وتأكيداً للهداية والدلالة الى الله على هذا الطريق الشائك والطويل، فان على نجـومه نجوم، ولهذه المعالم معالم، فاذا ضاع الانسان والتبست عليه معالم الطريق فان على هذه المعالم معالم اخرى في القرآن، وعلى هذه النجوم نجوم، فلا يكاد يضيع ولا يمكن ان يلتبس عليه الامر في حال من الاحوال.

الكلمة النبوية الثانية:

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «القرآن هدى من الضلالة وتبيان من العمى واستقـالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الأحداث (: الفتن) وعصمة من الهلكة (الهوى)، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدنيا الى الآخرة وفيه كمال دينكم، وما عدل احد عن القرآن إلّا إلى النار»[1].

وانـما يكـون القـرآن فصـلاً وفـرقانا يزود الانسان بالقدرة على التمييز والتشخيص والتفريق بين الحق والباطل، اذا حاول الانسان ان يستنطق القرآن، وان يُحّكم القرآن في حياته على نفسه، وفيما يختلط عليه من امر الحق والباطل.

الامام يدعونا ان نستنطق القرآن:

وهـذه حقيقـة لمن اتـاه الله تعالى وعي القرآن: ان القرآن ينطق بالتبيين والتفصيل لمن مكّنـه الله تعالى من ان يستنطق القرآن، ولمن يعرف كيف يستنطق القرآن، ولمن يحاول ان يستدل بالقرآن، ولمن يؤتيه الله تعالى مفتاح ذلك.

يقول امير المؤمنين عليه السلام، وهو ممن اتاه الله تعالى مفاتيح وعي القرآن، ومكّنه من ان يستنطق القرآن: «فاستنطقوه (القرآن) ولن ينطق ولكن اخبركم عنه:

(١) الكافي ٤٣٩/٢.

الا ان فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم»[١].

وانما ينطق القرآن لنا بعلم ما يأتي بما يبين من سنن الله تعالى في التاريخ وفي حياة الانسان، والتي نستطيع ان نستقرء منها المستقبل كما نستطيع ان نفهم بها الماضي.

وان القرآن لينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، والذين اتاهم الله تعالى مفاتيح وعي القرآن وفهمه يحسنون فهم القرآن واستنطاقه.

كلمة أخرى لأمير المؤمنين في القرآن:

ويقـول امير المؤمنين عليه السلام: «كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله»[٢].

واتهموا عليه اراءكم:

ولا يكفي ان نستسلم للقرآن، وننقاد له في مرحلة العمل وتنفيذ الحكم فقط، وانما يجب ان نتهم عليه اراءنا، ونُخطأ به تصوراتنا وقناعاتنا، ونخضع قناعاتنا واراءنا وافكارنا لكتاب الله، كما نخضع اعمالنا وتصرفاتنا له ونجعل كتاب الله مقياسا لافعالنا وقناعاتنا.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن: «واستدلوه (القرآن) على ربكم، واستنصحوه على انفسكم، واتهموا عليه اراءكم واستغشوا فيه اهوائكم»[٣].

فاذا جعلنا القرآن مقياسا وميزاناً لانفسنا في العمل والتفكير فان القرآن

(١) بحار الانوار ٢٣/٩٢، ح٢٤، عن نهج البلاغة الخطبة رقم ١٥٦.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٣٣.

(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٧٦ وبحار الانوار ٢٤/٩٢.

يعطينا عند ذلك القول الفصل فيما يلتبس علينا من أمر الحق والباطل ويمنحنا فرقاناً نفرق به بين الحق والباطل والضلال والهدى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّهُ﴾[1] فقد انزل الله الكتاب على رسوله (صلى الله عليه وآله) ليكون له مقياساً وميزاناً للحكم والفصل بين الناس بما اراه الله في هذا الكتاب.

من جعله امامه قاده الى الجنة:

ولكي ينطق القرآن لنا بالقول الفصل، وبالفرقان بين الحق والباطل علينا ان نحمل القرآن على ارائنا وتصوراتنا ولا نحمل اراءنا وتصوراتنا وقناعاتنا على القرآن. فان «من جعله امامه قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه الى النار»[2] فمن يجعل القرآن امامه، ويتخذه اماماً يقوده القرآن الى الجنة، ومن يحاول ان يحمل القرآن اراءه وقناعاته وهواه، ويتقدم القرآن يسوقه الى النار.

فإذا حملنا القرآن على ارائنا وقناعاتنا، وجعلنا القرآن مقياساً وميزاناً لتصحيح افكارنا واتخذنا من القرآن اماما واستنطقنا القرآن، فان القرآن يفتح صدره لنا ويمنحنا نوراً وبصيرة وتشخيصا وتمييزا في حياتنا، لا يلتبس معه علينا الحق بالباطل ولا الهدى بالضلال.

حديث الحارث في القرآن:

عن الحارث الأعور قال: دخلت على امير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقلت: يا أمير المؤمنين انا اذا كنا عندك سمعنا الذي نسد به ديننا واذا خرجنا من عندك سمعنا اشياء مختلفة مغموسة لا ندري ما هي، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أتاني جبرئيل فقال: يا محمّد سيكون في امتك فتنة، قلت فما

(١) النساء ٤/١٠٥.

(٢) من حديث رسول الله تفسير العياشي ٢/١.

المخرج منها؟ فقال: كتاب الله فيه بيان ما قبلكم من خبر، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار، فعمل بغيره اقصمه الله، ومن التمس الهدى في غيره اضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم لا تزيفه الاهواء ولا تلبسه الالسنة ولا يخلق عن الرد ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء من قال به صدق، ومن عمل به اجر ومن اعتصم به هدى الى صراط مستقيم هو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد[١].

كلمة الامام زين العابدين في القرآن:

وكـان الامام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام يقول في صفة القرآن في الدعاء عند ختم القرآن:

«وفرقاناً فرقت به بين حلالك وحرامك، وكتابا فصلته لعبادك تفصيلا وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه اللّهم صل على محمّد وآل محمد، واجعلنا ممن يعتصم بحبله، ويأوي من المتشابهات الى حرز معقله، ويسكن في ظل جناحه، ويهتدي بضوء صباحه»[٢].

(١) تفسير العياشي ١/٣.

(٢) الصحيفة السجادية الدعاء رقم ٤٢.

آيات القرآن خزائن العلم

كتاب الله خزائن العلم وكنوز المعرفة

وقد روي عن الامام علي بن الحسين السجاد زين العابدين عليه السلام: «ايات القرآن خزائن فكلما فتحت خزانة ينبغي لك ان تنظر فيها»[1].

والمزانة يقال للمخزون المخبوء عن الانظار، وآيات القرآن خزائن من العلم والمعرفة، وهذه الخزائن مستورة عن عيون الناس، وليست معروضة، ولا ينالها الانسان إلّا كما ينال الخزائن المخزونة من المال والبضاعة بعد تعب وجهد، فكلما قرأت آية من كتاب الله وتأملت فيها فتح الله ـ تعالى ـ عليك خزانة من هذه الخزائن.

وهذه الخزائن بطبيعة الحال هي العمق الفكري والعلمي لكل آيةٍ من كتاب الله، ولا ينال عامة الناس بالنظرة البدائية الأولى العابرة الى كتاب الله هذا العمق الفكري لآيات القرآن، ولا تكاد الرؤية البدائية الى القرآن تتجاوز السطح الظاهر منه.

سطح القرآن وعمقه:

للقرآن ـ اذن ـ سطح وعمق، ظاهر يفهمه عامة الناس وهو مقصود في كتاب

(١) الكافي ٢/٤٤٦.

الله، وعمق تحت هذا الظاهر لا يناله إلّا الذين آتاهم الله تعالى نظرة نافذة وبصيرة بكتابه، والى ذلك تشير الرواية النبوية المعروفة «ان للقرآن ظهرا وبطناً ولبطنه بطناً الى سبعة ابطن»[١].

وما نقصده من عمق القرآن شيء اخر غير ما تقوله المذاهب الباطنية التي تنفي ظاهر القرآن، فهذه المذاهب تنفي ان يكون للقرآن ظاهرا مقصوداً، ولا شك ان للقرآن ظاهراً وهذا الظاهر مقصود ومطلوب، والعمق الذي تحت هذا الظاهر يندرج فيه ويتضمنه.

اعماق أربعة لآية واحدة من القرآن:

ونستعير من ابحاث السيد الطباطبائي رحمه الله في القرآن نموذجا واحداً من باطن القرآن.

يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾[٢].

والظاهر الذي يتراءى للانسان في تفسير هذه الآية الكريمة ان الآية تنهى عن عبادة الاوثان، كما في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ﴾[٣].

٢ـ إلّا اننا بالتأمل في الآية الكريمة بالمقارنة بآيات أُخرى من كتاب الله نلاحظ ان العبودية شيء أعمق من الطقوس التي يمارسها الوثنيون في عبادة الاصنام، والنهي في الآية الكريمة أوسع من النهي عن عبودية الاوثان خاصة. فان العبودية هي الانقياد والطاعة والتسليم في مقابل الانقياد لله تعالى وفي عرضه، وهذا الانقياد والطاعة لغير الله من الشرك بالله تعالى، فان الله عز وجل هو وحده الذي يستحق على الانسان الطاعة والانقياد والتسليم.

(١) تفسير الصافي المقدمة الثامنة وسفينة البحار مادة (بطن).

(٢) النساء ٤/٣٦.

(٣) الحجّ ٢٢/٣٠.

ولذلك فان القرآن يعتبر الانقياد للشيطان وطاعته من العبودية لغير الله، التي يحرمها القرآن، وليس من شك ان الانقياد للشيطان ليس من سنخ طقوس العبودية التي يمارسها الوثنيون لاصنامهم يقول تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾(١).

فالآية(٣٦) من سورة النساء ـ اذن ـ تريد من العبودية شيئا اعمق من المعنى الذي ذكرناه أولاً وفي دائرة اوسع من الاوثان تشمل كلَ غيرٍ يطيعُه الانسان من دون الله، وانما نقول من دون الله لان الطاعة بامر الله من طاعة الله، وهي من صلب التوحيد.

٣ـ وبتأمل اكثر في هذه الآية الكريمة، وبمقارنتها بالايات الأُخرى من كتاب الله نخرج بتفسير اوسع واعمق للعبودية، فكل استجابة لغير الله تعالى (ولا بد من وضع هذه الكلمة) تعتبر من العبودية لغير الله اذا كانت الاستجابة في مقابل الاستجابة لله تعالى ومن دون اذنه حتى لو كان الانسان يستجيب لرغباته النفسية واهوائه وشهواته من دون اذن الله، وفي مقابل امر الله ونهيه، فهو من التسليم لغير الله. ولا يختلف الحال في ان يكون (الغير) الذي تحرم الاستجابة له (من دون الله) هو الانسان نفسه أو غيره من شيطان وطاغوت ووثن.

يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾(٢).

والناس اذ يستجيبون لاهوائهم، فليست هذه الاستجابة بالتأُكيد من نوع عبوديّة الوثنيين للاوثان، ولكن القرآن يعتبر هذه الاستجابة للهوى ـ ومن دون اذن لله ـ من الطاعة والانقياد والتسليم لغير الله، وبالتالي من العبودية لغير الله، ولذلك يسمّى (الهوى) في هذه الحالة (إلهاً) للانسان.

فالعبـودية الحقيقية هي الاخلاص والتوحيد في طاعة الله تعالى، وتخليص

(١) يس ٣٦/٦٠.

(٢) الجاثية ٤٥/٢٣.

النفس من كل استجابة لغير الله تعالى، حتى لو كانت الاستجابة لرغبات النفس وشهواتها واهوائها.

٤ـ وبالتأمل اكثر في معنى (العبوديّة) في هذه الآية الكريمة بمقارنتها بسائر الآيات نجد ان التوجه الى أي شيء غير الله، ومن دون الله ـ تعالى ـ يساوق بدرجة من الدرجات: الغفلة عن الله ـ تعالى ـ. فكل توجه وذكر لغير الله، وفي مقابل الله تعالى، يعني ان نمنحه استقلالية في مقابل الله تعالى. فالعبودية الحقيقية هي ان يعطي الانسان كل توجهه وذكره لله تعالى، ولا يغفل عن الله في حال، ويعطي لغير الله ذكره وتوجهه.

وانما يذكر غير الله ويتوجه الى غير الله في امتداد ذكر الله تعالى والتوجه اليه وحينئذٍ لا يكون من الغفلة عن الله في شيء، بل هو تكريس وتأكيد لذكر الله.

اما التوجه والذكر لغير الله، ومن دون ان يكون امتدادا لذكر الله، فهو من الغفلة عن الله، وهو بمعنى الشرك به تعالى، واعطاء الاستقلالية لغير الله وفي مقابل الله تعالى حتى يأخذ شطرا من ذكر الانسان واهتمامه وتوجهه.

تأملوا في هذه الآية المباركة من سورة الاعراف: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً منَ الجنِّ والانسِ لُهمْ قلوبٌ لا يفقهون بها ولُهمْ اعينٌ لا يبصرونَ بها ولُهم آذانٌ لا يسمعونَ بها أولئك كالأنعامِ بلْ هُمْ اضلُّ اولئكَ هُمُ الغافِلون﴾[1].

ان القصية التي يستحق بها الانسان جهنم، في هذه الآية المباركة، هي الغفلة عن الله تعالى، الغفلة التي تعطل العيون والاذان (في القلب) عن رؤية الله وعن السمع له تعالى. هذه الغفلة الصارفة للابصار والاسماع عن الله تعالى لا تكون إلّا عندما يكـون هنـاك الى جانب محور ذكـر الله ـ تعـالى ـ في قلب الانسان بؤرة أُخرى لاستقطاب الذكر والاهتمام والتوجه في نفس الانسان من دون الله تعالى، فينصرف قلب الانسان، أو شطر من قلبه لتلك البؤرة الاجنبية، فيكون الانسان ذاكراً لغير

(١) الاعراف: ١٧٩

الله، وبمقداره تكـون الغفلة عن الله. اولئك كالانعام في الاهتمام بغير الله، الذي يساوق الغفلة عن الله، بل هم اضل من الانعام، لان الانعام في هذه الغفلة، لا تملك اداة الوعي والذكر في نفسها أما الانسان فقد اتاه الله اداة الذكر والوعي في نفسه، وهو يستعمله في التوجه لغير الله، ويعطّل هذه الاداة عن عملها ودورها.

وهؤلاء الغافلون عن ذكر الله قد ذرأهم الله لجهنم. وهذه مرحلة دقيقة من الشرك بالله ـ تعالى ـ في الذكر وتوجه القلب ادق من المراحل السابقة.

فالآية الكريمة(٣٦) من سورة النساء اذن تبدو لنا في المرحلة الاولى انها ناظرة الى نبذ عبادة الاوثان والاصنام، وهذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وبالتأكيد هذا الظاهر مقصود ومراد.

في المرحلة الثانية يتراءى لنا: ان الشرك في العبودية يشمل كل طاعة للغير من دون اذن الله تعالى، وبه تكون الطاعة للشيطان من الشرك بالله تعالى.

وفي المرحلة الثالثة نجد ان العبودية والشرك اوسع وادق من المعنى الذى عرفناه في المرحلة الثانية. ان كل استجابة لغير الله، من دون اذن الله من الشرك حتى لو كانت الاستجابة هذه للنفس ورغباتها وشهواتها.

وفي المرحلة الآنفة نلتقي عمقاً جديداً لهذه الاية الكريمة، فكل ذكر وتوجه لغير الله من الغفلة عن الله، وهو من الشرك بالله تعالى في الذكر والعبودية.

هذه الاعماق كلها بطون للآية الكريمة وكلها لا ينافي المعنى الظاهر الأول للآية الكريمة ولا يصادره، وانما يعمقه، وكل واحدة من هذه المعاني خزانة من خزائن المعرفة تنطوي تحت هذه الآية الكريمة.

ثلاثون عمقا لآية واحدة من القرآن:

وأود ان انقـل هنا القصة التالية التي يرويها الفقيه آية الله السيد محسن الحكيم رحمه الله في كتاب (حقائق الأُصول) حيث يقول رحمه الله: (حدث بعض

الاعاظم ـ دام تأييده ـ انه حضر يوما منزل الآخوند ملا فتح علي ـ قدس سره ـ مع جماعة من الاعيان منهم السيد اسماعيل الصدر (رحمه الله) والحاج النوري صاحب المستدرك (رحمه الله)، والسيد حسن الصدر ـ دام ظله ـ فتلا الآخوند (رحمه الله) قوله تعالى: ﴿وَاْعلَمُوا اَنَّ فيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطيعُكُمْ في كَثيرٍ مِنَ اْلأمْرِ لَعَنِتُّمْ، وَلكِنَّ اللهِ حَبَّبَ إلَيْكُمُ اْلايمانَ .. الآية﴾[1].

ثم شرع في تفسير قوله تعالى: حبب اليكم الايمان... الآية. وبعد بيان طويل فسرها بمعنى لما سمعوه منه واستوضحوه استغربوا من عدم انتقالهم اليه قبل بيان بيانه لهم.

فحضروا عنده في اليوم الثاني ففسرها بمعناً آخر غير الأول فاستوضحوه ايضاً وتعجبوا من عدم انتقالهم اليه قبل بيانه.

ثم حضروا عنده في اليوم الثالث فكان مثل ما كان في اليومين الأولين.

ولم يزالوا على هذه الحال كلما حضروا عنده يوما ذكر لها معنى الى ما يقرب من ثلاثين يوماً فذكر لها ما يقرب من ثلاثين معناً وكلما سمعوا منه معناً استوضحوه.[2]

وقد روى عن امير المؤمنين علي عليه السلام في عمق وسعة افق آيات القرآن والكنوز التي اودعها الله تعالى في كتابه لاهله: «لو شئت لاوقرت سبعين بعيراً من فاتحة الكتاب»[3].

ظاهره انيق وباطنه عميق:

ومن عجب ان هذا الظاهر والباطن متناسقان فلا ينفي الظاهر العمق، ولا ينفي العمق الظاهر، وتحتفظ الآية من القرآن في الوقت الواحد بجمال الظاهر وعمق الباطن... وهو من اعجب وجوه الاعجاز في القرآن الكريم.

(١) الحجرات ٧/٤٩.

(٢) حقائق الأصول ٩٥/١ و ٩٦.

(٣) بحار الانوار٩٢/ باب ان للقرآن ظهراً وبطناً الحديث ٨٢.

يقول امير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن وصفة ظاهره وباطنه « وله ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره انيق وباطنه عميق»[١] وفي موضع آخر من كلامه عليه السلام في صفة القرآن: «ان هذا القرآن ظاهره انيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلّا به»[٢].

والذي ينظر الى القرآن يلتقي اول ما يلتقي جمال الظاهر: في الاداء والتعبير، وفي استعمال مفردات اللغة، وفي جزالة اللفظ وسهولة تركيب الجملة واحكامها...

وفي ملاحظة ظلال الكلمات والتركيبات من الناحية النفسية وفي موسيقى الالفاظ والتركيبات وفي القدرة التصويرية الفائقة للتركيبات القرآنية......

وفي ملامسة الضمير والفطرة والقلب لمسا مباشرا ومن دون واسطة. وفي هذه الشحنة الهائلة من التأثير في النفوس .. هذه القوة التأثيرية الهائلة والعجيبة التي تجذب الناس جذبا قويا الى كلام الله، والتي كانت تحير الطغاة والمتمردين من قريش في توجيهها وتفسيرها، ولم يكونوا يجدون لها توجيها غير ان يقولوا: انه من السحر وهو توجيه ينم عن الاعتراف والعجز والخبث والمكر في آن واحد. يقول تعالى في تصوير هذا العجز البشري تجاه القرآن، وهذه القوة الهائلة التي يملكها القرآن في التأثير في نفوس الناس، وهذا التوجيه الهزيل (التوجيه بالسحر) الذي كانوا يواجهون به قوة القرآن في قصة الوليد بن المغيرة ﴿إنّه فكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إنْ هذا إلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إنْ هذا إلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[٣].

ان هذا الجمال وهذا الاحكام وهذه الاناقة في السطح الظاهر من ايات القرآن من ايات الاعجاز في كتاب الله.

وتُضم الى هذه الآية آية أُخرى في الاعجاز اكبر واعظم وهي الاعماق

(١) الكافي ٢/٤٣٨.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٨.

(٣) المدّثر ٧٤/١٨ ـ ٢٥.

والخزائن التي تنطوي تحت آيات القرآن مما لا يراها الانسان لأول وهلة وفي النظرة الأُولى كما ينظر الانسان الى الارض فلا يرى عليها شيئا فاذا تحرى وحفر التقى بكنوز الارض وخزائنها. وهذه معجزة ثانية.

ومعجزة ثالثة وهي ـ لا تقل عن الأوليين ـ الجمع بين اناقة الظاهر وعمق الباطن في آية واحدة.

ينابيع العلم:

وامر هذه الخزائن عجيب فان الخزائن عادة تحتوي على مخزون محدود يقل او يزيد مما لا يراه الناس اما خزائن المعاني والمفاهيم والافكار والعلم والمعرفة والحكمة من القرآن فليس له من حدود كلما نال الانسان منه نصيبا من المعرفة والحكمة التقى بعمق جديد من المعاني والافكار والحكم، وكأنه العين والمعين الذي لا يستنزفه الماتحون كلما اخذوا منه حل محله ماء جديد من خزائن الله تعالى تحت الارض .

وهذه الحقيقة يعرفها جيداً العلماء الذين يغترفون من بحر القرآن، فقد مر على هذا الكتاب اربعة عشر قرناً يخوض في بحره العلماء والمفسرون والحكماء والمفكرون، وكلما جاء جيل جديد من المفكرين والعلماء والمفسرين فتح الله ـ تعالى ـ لهم من خزائن كتابه ما لم يعرفه من قبلهم من المفسرين والعلماء.

فخزائن المعاني والمعرفة في القرآن يشبه المعين الذي لا ينضب، والعين التي لا تنقطع عن الجريان، والفوران في حياة الناس، والمعدن الذي تتصل جذوره باعماق الارض لا ينفد ما فيه مهما اخذ الناس منه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن: «فهو معدن الايمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، واثافي الاسلام وبنيانه، واودية الحق وغيطانه، وبحر لا يستنزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون،

ومناهل لا يغيضها الواردون... جعله الله ريا لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء»[١]

ويقول عليه السلام ايضا في صفة القرآن: «لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه»[٢] «فيه ربيع القلب وينابيع العلم وما للقلب جلاء غيره»[٣].

غضاضة القرآن:

وكما أن للقران اعماقاً لا تنضب ولا تنفذ كذلك للقرآن فعل وتأثير هائل، ومتصل، في النفوس. وهذا الفعل والتاثير القرآني على النفوس شيء اخر غير المحتوى الهائل والمتصل لاعماق القرآن وان كان له علاقة به.

وهذا التأثير في النفوس من مميزات القرآن وخصائصه التي يتميز بها فهو تأثير وفعل قوي وفي نفس الوقت متصل ومستمر.

وكلما التقى الانسان القرآن وجلس اليه وتفاعل معه.. ترك القرآن في نفسه انطباعاً جديداً واثراً جديدا غير الانطباع والاثر الذي تركه في نفسه من قبل، وقام عن القرآن بفائدة جديدة ونور جديد، واعطاه هدى على هداه، واستقامة على استقامته، ونوراً على نوره، وسلب منه شكا او ريبا او ضعفا او عمًا.

يقول امير المؤمنين عليه السلام: «ما جالس هذا القرآن احد إلّا قام عنه بزيادة او نقصان زيادة في هدى او نقصان من عمى»[٤].

وهو كلام عجيب ينبىء بقوة وثقة عن طبيعة هذا القرآن واثره في النفوس .. فلم يجالسه احد مهما كان ـ شريطة ان يجالس القرآن ويتفاعل معه ـ إلّا ويقوم عنه بزيادة أو نقيصة، زيادة في المعرفة والهدى، ونقيصة في الجهل والضلال.

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٩٨.
(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٨.
(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٧٦.
(٤) بحار الانوار ٢٤/٩٢ ونهج البلاغة الخطبة رقم ١٧٤.

واعجب ما في هذا الأمـر هذه الغضاضة والطراوة التي يتصف بها القرآن بصورة دائمة، والتي تجعل كل تلاوة وقراءة للقرآن، وكل جلوس مع القران كأنه لقاء جديد، وقراءة جديدة وتفاعل جديد، ووعي وفهم جديد لكلام الله.

ان كل حديث يتكـرر على الانسان ويلتقيه الانسان مرات متوالية يفقد طراوتـه وغضـاضتـه وتأثيره وفعله وايحاءه في النفس عدا القرآن فلا يفقد طراوته وغضاضته بكثرة الترداد والتكرار، بل بالعكس تماماً كلما كان جلوس الانسان الى القـرآن اطـول، وتفاعله مع القرآن اكثر، كان جذب القرآن لنفسه اقوى وطراوته وغضـاضتـه اكثـر وفي الرواية عن رسول الله في صفة القرآن: «لا يخلق من كثرة القراءة»[١] «وعنه صلى الله عليه واله وسلم ايضا: كتاب الله ... لا يخلق على طول الرد ولا تنقضي عبره ولا تفنى عجائبه»[٢].

وعنه صلوات الله عليه واله ايضاً: «كتاب الله واهل بيتي. الكتاب هو القرآن وفيه الحجة والنور والبرهان كلام الله غض طري جديد شاهد»[٣].

وعن الامام الباقر محمد بن علي عليهما السلام: «ان القرآن حي لا يموت والآية حية لا تموت فلو كانت الآية اذا نزلت في الاقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين»[٤].

وعن الامام الصادق (عليه السلام): «ان القرآن حي لا يموت والآية حية كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر يجري على اخرنا كما يجري على اولنا»[٥].

والتشبيه رائع ودقيق فكما لا يحل الانسان آية تكور الليل والنهار وتعاقبهما

(١) تفسير العياشي: ٣/١.
(٢) تفسير العياشي: ٧/١.
(٣) مستدرك وسائل الشيعة: ٢٨٨/١.
(٤) تفسير العياشي:
(٥) تفسير العياشي:

وآية الشمس والقمر وتبقيان آيتين دائمتين لهما في كل يوم ظهور جديد كذلك القرآن له في كل تلاوة تأثير جديد وايحاء جديد وفعل جديد في النفوس .

سُئِلَ الامام الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام: «ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غضاضة؟ فقال عليه السلام:

«لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض الى يوم القيامة»[1].

القرآن بصائر ووعي

القرآن بصائر وهدى ومعرفة وفقه في حياة الانسان:

﴿ذٰلِكَ ٱلْكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقينَ﴾[2].

﴿هذا بَيانٌ لِلنّاسِ وهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقينَ﴾[3].

﴿إنَّ هذَا ٱلْقُرآن يَهْدي لِلتَّي هِيَ أقْوَمُ﴾[4].

﴿هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾[5].

﴿هذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوْقِنُونَ﴾[6].

ان القرآن يزود الانسان بـ (المعرفة) و (الفقه) و (البصيرة) وليس شيئاً في حياة الانسان افضل من المعرفة والبصيرة، ويهدي الانسان الى رشده، ويحفظه من الغيّ ﴿قُلْ أُوحِيَ الَيَّ أنَّهُ اسْتَمع نَفَرٌ مِنَ الجِنّ فَقالُوا إنّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً يَهْدي

(١) عيون اخبار الرضا (ع) ٨٧/١.

(٢) البقرة ٢/٢.

(٣) آل عمران ١٣٨/٣.

(٤) الاسراء ٩/١٧.

(٥) الاعراف ٢٠٣/٧.

(٦) الجاثية ٢٠/٤٥.

إلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[١].

ان المعـرفـة الحقـة تمكن الانســان من التشخيص الدقيق، ومن التعامل الصحيح مع الاشخاص والاشياء والاطراف. ان المعرفة ليست مسألة نظرية بحتة وانما لها علاقة مباشرة بسلوك الانسان وتعامله.

معرفة الله تصحح لنا وترسم لنا كيف نتعامل مع الله من منطلق الثقة واليقين والخوف والرجاء، وليس كل واحد بقادر على ان يقيم العلاقة مع الله تعالى على اساس صحيح، والاســاس الصحيح للعـلاقـة والتعـامل مع الله يقوم على قاعدة المعرفة الصحيحة والبصيرة. ومعرفة (الولاء والبراءة) تمكن الانسان من التعامل الصحيح مع المؤمنين بالله ورسوله، ومع اعداء الله ورسوله.

ان المعرفة الصحيحة للعسر واليسر والابتلاء والتيسير تمكن الانسان من التعامل الصحيح مع المحنة بـ (الصبر والعمل)، والتعامل الصحيح مع النعمة بـ (الشكر).

اما عندما يفقد الانسان هذه المعرفة والبصيرة والوعي فان طريقة تعامله مع المحنة والنعمة والضراء والسراء يتغير، فلا يستطيع ان يصبر في المحنة فيسقط فيها وينهار، وتبطره النعمة وتسكره كما ابطرت واسكرت الكثيرين.

ان المعرفة الصحيحة تمكن الانسان من التعامل الصحيح والسلوك الصحيح والعلاقة الصحيحة، والقرآن الكريم دقيق غاية الدقة في طرح هذه المسألة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾[٢].

ان المعرفة والبصيرة هي النور الذي يمشي به الانسان في الناس، ويتعامل به مع الناس، ومع الاشياء، ومع الاطراف، ومع الخطوط، ومع المواقف، ومع القضايا.

والقـرآن يعـطي الانســان هذه المعـرفة والبصيرة التي تمكن صاحبها من

(١) الجنّ ٧٢/١.
(٢) الانعام ١٢٢/٦.

التشخيص الدقيق والسلوك الصحيح. (فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة)[١].

وعن اميرالمؤمنين علي ابن ابي طالب عليه السلام: «ان الله سبحانه انزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر»[٢].

وتقول فاطمة الزهراء بنت رسول الله على ابيها وعليها السلام: «كتاب الله بينة بصائره واي منكشفة سرائرها»[٣].

ويقول الامام علي ابن ابي طالب عليه السلام: «اعلموا ان القرآن هدى النهار ونور الليل المظلم على ما كان من جهد وفاقة»[٤]

وليس شيء في هذه الدنيا افضل للانسان من هذه المعرفة، فان الجهد الكثير والعمل الكثير لا يزيد الانسان الا تخبطا في الغي اذا كان صاحبه على غير بصيرة في امره وعلى غير معرفة، واما عندما يكون الانسان على بصيرة ومعرفة من امره فان بعض الجهد والعمل ينفعه الكثير في حركته الى الله تعالى.

ولم يجعل الله تعالى للانسان مصدراً للمعرفة اغنى واصفى وانقى من القرآن، ومن اتاه الله تعالى فقه القرآن فليس في الدنيا كلها احد اغنى منه.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لاينبغي لحامل القرآن ان يظن ان احدا أُعطي افضل مما أُعطي لانه لو ملك الدنيا باسرها لكان القرآن افضل مما ملكه»[٥].

وعنه (صلى الله عليه وآله): «لا ينبغي لحامل القرآن ان يرى احدا من اهل

(١) عن ابي عبد الله عليه السلام عن رسول الله (ص) كما في الكافي ٢٣٨/٢

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٨٣.

(٣) بحار الانوار ١٣/٩٢.

(٤) الكافي ٢/ ٤٣٩.

(٥) مستدرك الوسائل الطبعة الحجرية ٢٨٨/١.

الارض اغنى منه»[1].

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «من اعطاه الله القرآن فرأى ان احداً أُعطى شيءًافضل مما اعطي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا»[2].

وإنا نورد هنا مثالا واحدا عن المعرفة والوعي الذي يسلح به القرآن حامله ويمنحه به رؤية وبصيرة ويقوم سلوكه ويرسم له طريقة التعامل.

وعي التوحيد:

١ـ يقرر القرآن في مواضع كثيرة: ان الله تعالى خالق كل شيء، وليس من شيء في الكون إلاّ وهو مخلوق لله تعالى، ولا يشذ شيء من هذا الاصل.

﴿ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لا إلهَ إلاّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[3].

﴿قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4].

٢ـ وان التناسق الموجود في هذا الكون الكبير دليل محسوس على وحدة الخالق في هذا الكون.

﴿لو كان فيهما الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾[5].

٣ـ واذا كان الله تعالى خالق كل شيء فلا بد ان يكون مالك كل شيء من السماوات والارض ايضا واليه يعود ملك السموات والارض وما فيهما وما بينهما، ولا يخرج شيء في هذا الكون عن ملكه.

﴿وَلِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾[6].

﴿اَلَّذي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في

(١) بحار الانوار ١٩٢/٩٢.
(٢) بحار الانوار ٩٢/ ١٣ و ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٣) الانعام: ١٠٢
(٤) الرّعد: ١٦.
(٥) الانبياء ٢٢
(٦) المائدة ١٧/٥.

ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[١].

﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَٱلأَرْضِ ﴾[٢].

٤ـ ولما كان الله تعالى خالق كل شيء في هذا الكون.. فلا بد ان يكون كل شيء خاضعاً لسلطانه وحكمه، ومنقاداً لارادته ومشيئته، وامره وحكمه نافذ على كل شيء في الكون.

﴿كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾[٣].

﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[٤]

﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي ٱلأَرْضِ ﴾[٥].

﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٦].

٥ـ واليه ـ سبحانه ـ يعود كل حول وقوة وسلطان في الكون، ولا حول ولا قوة ولا سلطان في هذا الكون كله إلّا به، وهو تعالى مصدر كل قوة وسلطان: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾[٧].

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾[٨].

﴿أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٩].

﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[١٠].

﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١١].

(١) الفرقان ٢/٢٥.
(٢) (٣) البقرة ١١٦/٢.
(٤) الرعد ١٥/١٣.
(٥) النحل ٤٩/١٦.
(٦) يس ٨٣/٣٦.
(٧) البقرة ١٦٥/٢.
(٨) المائدة ١٧/٥.
(٩) (١٠) الطلاق ١٢/٦٥.
(١١) الملك ١/٦٧.

﴿فَعّالٌ لِما يُرِيدُ﴾[١].

٦ـ وبناء على النقاط المتقدمة فان القرآن يقرر ان (الالوهية) لله تعالى لا يشاركه فيها احد، وينهي القرآن عن اتخاذ اله غير الله تعالى: ﴿وَقالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إلَهيْنِ اثْنَيْنِ إنّما هُوَ إلهٌ واحِدٌ فَإيّايَ فَارْهَبُون﴾[٢].

﴿وَمَنْ يدع مَعَ اللهِ إلهاً اخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَانّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[٣].

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ الِهَةً يُعْبَدُون﴾[٤].

٧ـ ويحصر القرآن العبادة والتذلل والخضوع لله تعالى:

﴿وَقَضى رَبُّكَ ألّا تَعْبُدُوا إلّا إيّاهُ وَبالْوالِدَيْنِ إحْساناً﴾[٥].

٨ـ ويحصر القرآن حق الحاكمية وتشريع الدين في حياة الانسان بالله رب العالمين: ﴿وَهُوَ اللهُ لا إلهَ إلّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ في الْأُولى وَالْاخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإلَيْهِ تُرْجَعُون﴾[٦].

﴿اَفَغَيْرَ دينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ اَسْلَمَ مَنْ فِي السّماواتِ وَالْأرْضِ طَوعاً وَكَرْهاً وَإلَيهِ يُرْجَعُونَ﴾[٧].

﴿اَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمينَ﴾[٨].

﴿وَلَهُ ما في السَّماواتِ وَالْأرْضِ وَلَهُ الدّينُ واصِباً اَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾[٩].

(١) البروج ١٦/٨٥.
(٢) النحل ١٥/١٦.
(٣) المؤمنون ١١٧/٢٣.
(٤) الزخرف ٤٥/٤٣.
(٥) الاسراء ٢٣/١٧.
(٦) القصص ٧٠/٢٨.
(٧) آل عمران ٨٣/٣.
(٨) الاعراف ٥٤/٧.
(٩) النحل ٥٢/١٦.

﴿وَهُوَ الَّذي في السَّماءِ إلهٌ وَفي الأرْضِ إلهٌ﴾[١].

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الأمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إنَّ الأمْرَ كُلَّهُ للهِ﴾[٢].

﴿للهِ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[٣].

﴿وَما اخْتَلَفْتُمْ فيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ﴾[٤].

٩ـ ويحصر القرآن الطاعة بالله وبرسوله:

﴿قُلْ أطيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾[٥].

﴿وَأطيعُوا اللهَ وَأطيعُوا الرَّسُولَ﴾[٦].

وطاعة الرسول من طاعة الله تعالى وليس للرسول طاعة مستقلة وانما هي امتداد لطاعة الله:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطاعَ اللهِ﴾[٧].

﴿وَما أرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلاّ لِيُطاعَ بإذْنِ اللهِ﴾[٨].

١٠ـ ويحصر القرآن الولاية بالله تعالى، فليس لاحد من ولاية على الانسان من دون الله إلاّ باذن الله تعالى وامره:

﴿قُلْ أغيْرَ اللهِ أتّخِذُ وَلِيّاً فاطِرِ السّماواتِ وَالأرْضِ﴾[٩].

﴿إتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دوُنِهِ أوْلِياءَ﴾[١٠].

(١) الزخرف ٨٤/٤٣.

(٢) آل عمران ١٥٤/٣.

(٣) الروم ٤/٣٠.

(٤) الشورى ١٠/٤٢.

(٥) آل عمران ٣٢/٣.

(٦) المائدة ٩٢/٥.

(٧) النساء ٤/ ٨٠.

(٨) النساء ٤/ ٦٤.

(٩) الانعام ١٤/٦.

(١٠) الاعراف ٣/٧.

﴿وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ﴾(١).

هذا هو وعي التوحيد في القرآن حيث يبدأ قضية التوحيد بالايمان بوحدانية الله تعالى خالقا ومالكا للكون ومهيمنا عليه، ورفض كل اله ومعبود غير الله تعالى وتتسلسل القضية الى السلوك بالتسليم والانقياد لله تعالى وامتثال احكامه والالتزام بحدوده وحلاله وحرامه، ورفض أي حاكمية وتشريع ودين لغير الله، واعتبار كل حاكمية من دون الله من الطاغوت الذي نهى الله تعالى عن اتباعه، وهذه قضية متكاملة ذات أُصول، وفروع ذات جذور في العقيدة، وامتداد في السلوك والحركة في واقع الحياة، وليس فقط تغير التفكير والرأي والتصور، وانما تغير الاتجاه السلوكي للانسان وتطبع سلوك الانسان وحركته بطابع جديد يختلف اختلافا جذريا عن طابع (الشرك) الموجود في الحضارات الجاهلية.

﴿هذاا بَلاغٌ لِلنّاسِ وَلِيُنْذَروُا بِهِ، وَلِيَعْلَموُا أَنَّما هُوَ إلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلأَلْبابِ﴾(٢).

(١) هود ١١/١٣.
(٢) ابراهيم ١٤/٥٢.

في القرآن كفايـــة

القرآن يكفي كل حاجات الانسان في حركته الى الله الروح بحاجة الى الارتباط والاتصال بالله والصلاة والذكر والدعاء والحب والمناجاة، والعقل بحاجة الى المعرفة والوعي. والجسم بحاجة الى طائفة واسعة من الضرورات. وهذه الحاجات تلح في طلب الاستجابة وما لم تتم الاستجابة لهذه الحاجات والطلبات فانها تشكل نقاط ضعف ونقص في شخصية الانسان تعيق حركته ونموه وتكامله في الطريق الى الله تعالى.

مواقف المذاهب الوضعية من حاجات الانسان:

وللمذاهب مواقف مختلفة من هذه الحاجات:

فمن الناس من ينفي طائفة من هذه الحاجات وينكرها بشكل كامل، كما ينفي الماديون والملحدون حاجات الروح وطلباتها بصورة كاملة. ومن الطبيعي ان انكار هذه الحاجات ونفيها لا يلغي هذه الحاجات ولا يعطلها، فتبقى هذه الحاجات قائمة في نفس الانسان، ويكون نفيها وانكارها من نفي الأمر الواقع الذي لا يغير من الواقع شيئا.

ومن الناس من يعترف بهذه الحاجات جميعا، ولكن يصد جملة منها ويكبتها كما تفعل الاتجاهات والمذاهب الروحية تجاه حاجات الجسم.

ومن الناس من لا يفعل هذا ولا ذاك، ولكن يستجيب لهذه الحاجات بصورة غير متوازنة فيحدث خللا بين الاستجابة لحاجات الانسان المختلفة ويغلّب جانبا على جانب. والاسلام يعترف بهذه الحاجات جميعاً ولا يستقذر شيئا منها فهي كلها حاجات روحية وعقلية وطبيعة نظيفة اذا تمت الاستجابة لها بصورة صحيحة ثم لا يصد شيئا منها فكل حاجة في الاسلام مشروعة لان الله تعالى اودعها في نفس الانسان شريطة ان تكون الاستجابة في حدود دين الله وشرعه.

والاستجابة لهذه الحاجات ينبغي ان تتم بصورة متوازنة لا تحدث خللا في توازن هذا التركيب ﴿وَابْتَغِ فيما اتاكَ اللهُ الدّارَ الاخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾[1].

والقرآن كتاب الله ومنهاج شريعته ودينه يستجيب لكل الحاجات التي اودعها الله تعالى في الانسان بصورة متوازنة ومتعادلة من دون ان يتنكر لطائفة منها، او يصد طائفة منها، او يحدث خللاً في التوازن في الاستجابة لهذه الحاجات.

ان الذي انزل هذا الكتاب هو الذي خلق فطرة الانسان، فهو اعلم بما اودع في هذه الفطرة وفي هذا التركيب العجيب ـ الروح والجسم ـ من حاجات، وهو ادرى واقدر على الاستجابة الصحيحة لها.

ولو ان الناس لجأوا الى كتاب الله، واستمدوا الهدى والمعرفة لاغناهم القرآن، وكفاهم وسد كل حاجاتهم، ولم يترك في ساحة حياة الانسان من حاجة او نقص، واذا اعرضوا عن كتاب الله لما اغناهم شيء ولم يسد فاقتهم وخلتهم شيء.

عن الامام علي بن ابي طالب عليه السلام: «واعلموا انه ليس على احد بعد القرآن من فاقة ولا لاحد قبل القرآن من غنى»[2].

(١) القصص ٧٧/٢٨.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٧٦ وبحار الانوار ٢٤/٩٢.

وعنه عليه السلام ايضا: «القرآن غناً لا غناً دونه ولا فقر معه»[١].

مأساة الانسان المعاصر في الحضارة الجاهلية:

ولعل من اهم مآسي الانسان المعاصر في الحضارة الجاهلية الاحساس بان هذه الحضارة تستجيب فقط لبعد واحد من بعدين اساسين في شخصيته، وتلبي حاجات هذا البعد فقط، وهو البعد الحيواني من شخصية الانسان اما البعد الاخر من شخصية الانسان وهو البعد السامي، والذي يتمثل في الروح وحاجات الروح والفطرة وحاجاتها فلا تستجيب له هذه الحضارة وتتنكر له.

والانسان المعاصر ـ في هذه الازمة الحضارية ـ يشعر شعوراً عميقا بان هذه الحضارة تتنكر لشطر من شخصيته وتصادره، وتعمل لاغتيال هذا البعد الهام من شخصيته، ولذلك يشعر هذا الانسان دائما بالغربة في وسط المجتمع والحضارة التي تحتضنه، وذلك ان هذه الحضارة وهذا الوسط الحضاري لا يحسن معرفته، ولا يمت اليه بصلة قوية، ويشعر بالحقد على هذه الحضارة وعلى الوسط الحضاري الذي يحتضنه ويحب ان ينتقم لنفسه من هذا الوسط الحضاري، ينتقم للشطر الذي تعمل هذه الحضارة على اغتياله ومصادرته والتنكر له.

ورغم ان هذه الحضارة توفر للانسان كل اسباب المتعة واللذة الحيوانية وتبيح للانسان كل انواع التمتع، وتوفر للانسان كل متطلبات الرفاه والراحة واللذة... مع ذلك فان الانسان المعاصر في الحضارة المادية يشعر بالنضوب والجفاف في هذه الحضارة والظمأ في داخل شخصيته، وبان هذه الحضارة لا تتمكن من ان تروي هذا الظمأ الذي يشعر به.

وهذه هي محنة الانسان المعاصر في الوسط الحضاري الجاهلي، وميزة القرآن الكبيرة انه يستجيب لكل ابعاد وشخصية الانسان، ويلبي كل حاجاته ـ الروح والجسد ـ على نحو سواء، ويكفي هذا الانسان ويغنيه ويسد كل حاجاته بطريقة

(١) مجمع البيان ١/١٥.

صحيحة متوازنة، ويروي ظمأ الانسان، ولا يتنكر لجانب من شخصيته ولا يصادر ولا يغتال شطرا من شخصيته كما تفعل الحضارة الجاهلية المادية.

قراءة القرآن وحملته

١ـ فضل قراءة القرآن.
٢ـ شفاعة القرآن.
٣ـ فضل حملة القرآن.

١ـ فضل قراءة القرآن:

ورد في النصوص الاسلامية روايات كثيرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأهل بيته في فضل قراءة القرآن وثوابه نذكر شطرا منها:

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «من قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وتفقها في الدين كان له من الثواب مثل جميع ما اعطي الملائكة والانبياء والمرسلون[١].

ومن قرأ ثلث القرآن فكأنما اوتي ثلث النبوة، ومن قرأ ثلثي القرآن فكانما اوتي ثلثي النبوة، ومن قرأ القرآن كله فكأنما اوتي النبوة» .

ثم يقال: اقرأ وارق بكل آية درجة فيرقى في الجنة بكل آية درجة حتى يبلغ مامعه من القرآن ثم يقال له: اقبض فيقبض ثم يقال له: هل علمت ما في يدك؟

(١) عقاب الاعمال: ٥١.

فيقول: لا فإذا في يده اليمنى الخلد وفي الأُخرى النعيم»[١].

وانما النبوة: القرآن فمن اوتي القرآن فكانما اوتي النبوة وليس بنبيّ، والقرآن يجمع كلما في النبوة من هدى وبصيرة ونور وخلق وذكر وتقوى وجهاد في سبيل الله، فمن اجتمع لديه القرآن فكأنما اجتمعت لديه اسباب النبوة وهو ليس بنبي.

وعن الامام علي بن ابي طالب عليه السلام:

«من قرأ القرآن فكانما ادرجت النبوة بين جنبيه إلّا انه لا يوحى اليه»[٢]

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «افضل العبادة قراءة القرآن»[٣].

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «من قرأ القرآن فظنّ ان احدا اعطى افضل مما اعطى فقد حقر ما عظم الله وعظم ما حقر الله»[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله: «من استمع آية من القرآن خير له من بثير ذهبا»[٥] والبثير اسم جبل عظيم باليمن.

وسُئل رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أي الاعمال افضل عند الله؟ قال: قراءة القرآن، وانت تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى»[٦].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لاحسد إلّا في اثنين، رجل اتاه الله مالا فهو ينفق منه اناء الليل واناء النهار، ورجل اتاه الله القرآن فهو يقوم به اناء الليل واناء النهار»[٧].

وعن الحسن بن علي عليهما السلام: «من قرأ القرآن كانت له دعوة مجابة،

(١) مستدرك الوسائل ٢٦٢/٤ ح ١٥ الطبعة الثانية.
(٢) مجمع البيان ١٦/١.
(٣) مجمع البيان ١٥/١.
(٤) مجمع البيان ١٦/١.
(٥) مستدرك الوسائل: الطبعة الثانية ٢٥٩/٤ ح ٥.
(٦) المصدر السابق.
(٧) الخصال للصدوق: ٧٦.

اما معجلة واما مؤجلة»[١].

وسُئِل رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أي الناس خير؟ قال الحال المرتحل (أي الفاتح الخاتم الذي يفتح القرآن ويختمه) فله عند الله دعوة مستجابة»[٢].

وعن زرارة بن اوفى: ان رجلا قام الى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: يارسول الله أي العمل احب الى الله؟ فقال: الحال المرتحل، فقال: يارسول الله وما الحال المرتحل؟ قال: صاحب القرآن يضرب من اوله الى آخره ومن آخره الى أوله كلما حل ارتحل[٣].

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «ثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة رجل قرأ كتاب الله، وأم قومٍ وهم به راضون...»[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله: قال الله تبارك وتعالى: «من شغل بقراءة القرآن عن دعائي ومسألتي اعطيته افضل ثواب الشاكرين»[٥].

وعن الامام ابي عبد الله الحسين عليه السلام: «من قرأ آية من كتاب الله عز وجل في صلاته قائما يكتب له بكل حرف مائة حسنة فاذا قرأ ها في غير صلاة كتب الله له بكل حرف عشر حسنات وان استمع القرآن كتب الله له بكل حرف حسنة وان ختم القرآن ليلًا صلت عليه الملائكة حتى يصبح»[٦].

شفاعة القرآن:

قد تكرر في النصوص الاسلامية ان القرآن يشفع بين يدي الله لقرائه

(١) بحار الانوار ٩٢/٢٠٤ ح ٣١ مستدرك الوسائل ٤/٢٦٠ ح ٨ الطبعة الثانية.
(٢) مستدرك الوسائل: ط ٢ /ج ٤ ٢٦٠ ح ٩.
(٣) مستدرك الوسائل: ط ٢ ج ٤ ٢٦٣ ح ١٨.
(٤) مستدرك الوسائل الطبعة الحجرية ١/٢٨٨.
(٥) بحار الانوار ٩٢/٢٠٠.
(٦) مستدرك الوسائل الطبعة الحجرية ١/٢٨٨.

والعاملين به وحملته، كما ان القرآن يسعى الى الله تعالى سعاية بالذين يعرضون عنه ويهملونه، والله تعالى يقبل شفاعة القرآن، ويصدق القرآن في سعايته.

يقول أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام: «واعلموا ان ـ القرآن ـ شافع مشفع وقائل مصدق وانه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه ومن محل به (:سعى به) القرآن يوم القيامة صدق عليه فانه ينادى مناد يوم القيامة: (إلّا ان كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن فكونوا من حرثته واتباعه)»[١].

فالقرآن يشفع لقارئه عند الله ويمحل به الى الله، والله تعالى يشفع القرآن فيمن شفع له ويصدقه فيمن يمحل به.

وان الحياة الدنيا حرث وزرع وفي كل حرث وزرع شر يصيب الانسان وبناله ويبتلى به يوم القيامة إلّا حارث القرآن فليس فيه إلّا الخير ولا ينال حارث القرآن إلّا الخير.

وعن الامام جعفر الصادق عليه السلام:

«يدعى بابن ادم المؤمن للحساب فيتقدم القرآن امامه في احسن صورة فيقول يارب انا القرآن وهذا عبدك المؤمن قد كان يتعب نفسه بتلاوتي ويطيل ليله بترتيلي وتفيض عيناه اذا تهجد فارضه عني كما ارضاني». فيقول العزيز الجبار:عبدي ابسط يمينك فيملأها من رضوان الله ويملأ شماله من رحمة الله ثم يقال له هذه الجنة مباحة فاقرأ واصعد فاذا قرأ آية صعد درجة[٢].

فضل حملة القرآن:

حمل القرآن غير العمل به ان العمل بالقرآن امر يخص الانسان نفسه ولا

(١) الكافي ٤٤٧/٢. نهج البلاغة الخطبة رقم ١٧٦.

(٢) الكافي ٤٤٩/٢.

يتجاوزه، فقد يسعد الانسان بالعمل بالقرآن، وقد يشقى بالابتعاد عن القرآن إلّا انه على كل حال شيء يخصه، اما حمل القرآن فهو القيام في المجتمع برسالة القرآن وتحمل مسؤولية اداء رسالة القرآن والنهوض بها. ودائرة حمل القرآن المجتمع، بينما دائرة العمل بالقرآن الفرد العامل نفسه، وحملة القرآن اشرف من العاملين بالقرآن وارفع درجة منهم، ذلك بانهم يعملون بالقرآن، وينهضون برسالة القرآن، ويهمهم امر الآخرين في العلاقة بالقرآن كما يهمهم امر انفسهم.

ان افضل ما يناله عامة الناس هو العمل بالقرآن، وانقاذ انفسهم من السقوط والهلاك بالقرآن، اما حملة القرآن فهم يعملون لانقاذ الآخرين بالقرآن. ان هَمّ الصالحين من الناس هو انتشال انفسهم من الغرق والهلاك، اما حملة القرآن فهمهم انتشال الناس ونجاتهم وهدايتهم. وبين هذا وذلك فرق شاسع في المرتبة والدرجة، وحملة القرآن هم العلماء بالقرآن.

دولة الليل ودولة النهار:

روى عن ابن عباس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ:

(اشرف امتي حملة القرآن واصحاب الليل)[1].

والمقارنة بين حملة القرآن واصحاب الليل امر جدير بالانتباه، فان حملة القرآن هم رجال دولة النهار، واصحاب الليل هم رجال دولة الليل، وان للنهار لدولة، ولليل لدولة، ورجال دولة النهار هم حملة القرآن والذين ينهضون في وسط المجتمع برسالة القرآن، ورجال دولة الليل هم اصحاب الليل الذين يقيمون الليل راكعين ساجدين بين يدي الله.

ومن العجب ان حملة القرآن لا يستطيعون ان ينهضوا برسالة القرآن في النهار الا اذا تزودوا في الليل بما يمكنهم من حمل هذا العبىء الثقيل في النهار... وليس من

(١) امالي الصدوق: ١٤١.

غنى للعاملين في النهار من قيام الليل.

وعن ابي سعيد الخدري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (حملة القرآن عرفاء اهل الجنة)[١].

وعن ابي محمد العسكري عن ابائه ـ عليهم السلام ـ عن امير المؤمنين (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «حملة القرآن المخصوصون برحمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله المقربون من الله من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله يدفع الله عن مستمع القرآن بلوى الدنيا وعن قارئه بلوى الآخرة»[٢].

وعن موسى بن جعفر ـ عليهما السلام ـ عن ابائه ـ عليهم السلام ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «ان الله تعالى جواد يحب الجود ومعالي الامور ويكره سفسافها (سفاسفها) وان من عظم جلال الله تعالى اكرام ثلاثة ذي الشيبة في الاسلام والامام العادل وحامل القرآن غير الغالي ولا الجافي عنه»[٣].

حملة القرآن والعمل بالقرآن:

ولن يكـون حامـل القـرآن حاملا له وناهضا بمسؤولية رسالة القرآن في المجتمع الا عندما يكون عاملا به، وليس يمكن ان ينهض الانسان بمسؤولية رسالة القـرآن وهـو غير مؤمن به وغـير عامل به ﴿**يا ايها الذين امنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون**﴾[٤].

وانّـما يستـطيع الانسان ان ينهض برسالة القرآن اذا كانت هذه الرسالة متجسدة في حياته الشخصية وسلوكه وعلاقته مع الله تعالى ومع الاخرين... في هذه

(١) الخصال للصدوق: ١٦/١.

(٢) بحار الانوار ١٨٢/٩٢.

(٣) بحار الانوار ١٨٤/٩٢.

(٤) الصّف: ٣.

الحالة فقط يستطيع ان ينهض في المجتمع برسالة القرآن الى المجتمع.

وقد روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ:

«ان احق الناس بالتخشع في السر والعلانية لحامل القرآن وان احق الناس بالصلاة والصيام في السر والعلانية لحامل (القرآن)»[١].

والقرآن يحمل حملته:

وحامل القرآن يحمله القرآن، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف القرآن.«وحاملا لمن حمله»[٢].

فما هذا التبادل والتعاطي في الحمل، يحمل الانسان القرآن، ويحمله القرآن في نفس الوقت.

ان حمل القرآن حمل ثقيل ينوء به الانسان لولا ان الله تعالى يعينه، فان هذا القرآن رسالة الله تعالى الى البشرية جميعا يدعوهم فيها الى نبذ كل عبودية وطاعة لغير الله، وتوحيد العبودية والطاعة لله، والى مخالفة الاهواء والشهوات، والالتزام بحدود الله، والتمسك بالتقوى وحمل هذه الرسالة الثقيلة يجعل الدعاة الى الله من حملة القرآن في مواجهة مباشرة للطواغيت في الارض واصحاب النفوذ والسلطان، وفي مواجهة للاهواء والشهوات جميعا، ومواجهة شاملة وواسعة كهذه المواجهة امر عسير شاق بالغ العسر والمشقة ينوء بها الانسان. ويحتاج حملة القرآن في هذه المسيرة الصعبة وفي طريق ذات الشوكة هذا الى ان يتسلحوا بالتوكل على الله، والثقة بالله، والصبر والاستقامة، والاقدام والشجاعة، والحلم وسعة الصدر، ومعرفة سنن الله تعالى في حركة التاريخ والمجتمع، وسنن الله في الابتلاء والامتحان.... وكل ذلك مما يعلمنا القرآن.

ولولا ان يتسلح حملة القرآن بما يمنحهم القرآن من وعي وبصيرة وقوة لم

(١) بحار الانوار ١٨٥/٩٢.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٩٨.

يتمكنوا من حمل رسالة القرآن الى البشرية.

فالقـرآن ـ اذن ـ يحمل الدعاة الى الله، وينهض بهم، ويمنحهم البصيرة والقوة، ويثبت اقدامهم على ارض المعركة، كما يحمل الدعاة الى الله القرآن الى الناس.

كيف نقرأ القرآن

كيف نقرأ القرآن؟

هذا سؤال يشبه تماما ما لو قلنا كيف نفتح الكنز؟

فإنّ القرآن كنز ومفتاح قراءته، فمن احسن قراءة القرآن فتح الله عليه الكنز، ومن لم يحسن قراءته لم يفتح له الكنز.

القرآن كنز:

اما ان القرآن كنز فاسمعوا الى هذا النص:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان هذا القرآن هو النور المبين، والحبل المتين والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الاشفى.

«من استضاء به نوره الله»

«ومن عقد به اموره عصمه الله»

«ومن تمسك به انقذه الله»

«ومن لم يفارق احكامه رفعه الله»

«ومن استشفى به شفاه الله»

«ومن اثره على ما سواه هداه الله»

«ومن طلب الهدى في غيره اضله الله»

«ومن جعله شعاره ودثاره اسعده الله»

«ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوله الذي ينتهي اليه اواه الله الى جنات النعيم والعيش السليم»(١).

وعن امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام: «ثم انزل عليه (أي على رسول الله (صلى الله عليه وآله)) الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه وسراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يدرك قعره، ومنهاجا لا يضل نهجه، وشعاعا لا يظلم ضؤوه، وفرقانا لا يخمد برهانه، وتبيانا لا تهدم اركانه، وشفاء لا تخشى اسقامه، وعزا لا تهزم انصاره، وحقا لا تخذل اعوانه فهو معدن الايمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، واثافي الاسلام وبنيانه واودية الحق وغيطانه وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون وأعلام لا يعمى عنها السائرون واكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاجاً لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء ونوراً ليس معه ظلمة، وجبلا وثيقا عروته، ومعقلا منيعا ذروته، وعزا لمن تولاه وسلما لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذرا لمن انتحله، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلجا لمن حاج به، وحاملا لمن حمله ومطية لمن اعمله وآية لمن توسم، وجنة لمن استلام، وعلما لمن وعى، وحديثا لمن روى وحكما لمن قضى»(٢).

فكيف نصل ـ اذن ـ الى هذا الكنز؟

ان الاسلوب الصحيح لقراءة القرآن يوصلنا الى هذا الكنز، ويفتح لنا ابوابه ومغاليقه.

القراءة الصحيحة للقرآن:

القـراءة الصحيحة هي التي يشارك فيها اللسان، والعقل، والقلب، فيتلو

(١) بحار الانوار ٣١/٩٢.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٩٨.

اللسان القرآن تلاوة صحيحة، ويتعقل العقل ويتدبر مفاهيم القرآن وكلماته، ويتفاعل القلب مع ايات كتاب الله ويتأثر بها ويتعظ بها.

فإذا اشترك اللسان والعقل والقلب في قراءة القرآن كانت هذه القراءة صالحة لان تكون مفتاحا لكتاب الله، ينال بها صاحبها ما اودع الله في كتابه من كنوز المعاني والمفاهيم والافكار.

اما القراءة التي لا تتجاوز اللسان، ولا يشارك فيها العقل والقلب، ولا تنفذ الى العقل والقلب فهي من قراءة الغافلين، ومن التلاوة المجردة عن التدبر والتفكير.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّون لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إلاّ أمانيّ﴾[1]:

والاماني هي كما يقول جملة من المفسرين: التلاوة المجردة عن التفكير، وكأن هذه القراءة اشبه بالامنية منها الى الطلب الجاد الحقيقي، وهذه القراءة هي من مصاديق الاعراض والغفلة عن ايات الله ـ تعالى ـ في كتابه.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيةٍ في السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّون عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُون﴾[2].

فهؤلاء القراء الذين لا تتجاوز القراءة السنتهم يمرون على آيات الله وهم عنها معرضون وغافلون.

القراءة عند المؤمنين والقراءة عند المنافقين:

وهذان نحوان من القراءة: احداهما تنفذ الى القلب، ويتلقاها العقل بالتدبر والتعقل، ويأتلفها القلب ويسكن اليها ويطمئن لها وتلين عليها الجلود، وهذه هي القراءة التي تنفتح لها مغاليق القلوب، وتنفذ الى النفوس والصدور، وتعمرها وتفتح على الانسان كنوز المعرفة في ايات الله.

(١) البقرة ٢/٧٨.
(٢) يوسف ١٢/١٠٥.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت عليه جلودكم فاذا اختلفتم فلستم تقرؤونه»[١].

وحالة ائتلاف القلوب ولين الجلود هي حالة سكون النفس واطمئنانها الى القرآن، وهي حالة وراء حالة الانقياد والاستسلام، واعمق منها، فقد ينقاد الانسان ويستسلم ولكن من دون ان تسكن النفس وتطمئن، اما حالة السكون والاطمئنان فيه من اقصى حالات الانسجام الروحي، وقد ورد التعبير عنها في الرواية النبوية (بائتلاف القلوب ولين الجلود).

واما اذا اختلف الظاهر عن الباطن، ولانت الجلود ولم تأتلف القلوب، فليس ذلك من القراءة الصحيحة التي يطلبها الله تعالى: «فإذا اختلفتم فلستم تقرؤونه».

واما النحو الثاني من القراءة فهي القراءة التي لا تتجاوز اللسان، ولا تنفذ الى القلوب، ولا تعمّر الصدور.

وقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «ان قرأ المنافق لا يخطىء الفاً ولا واواً ولا ميماً يلقف القرآن بلسانه كما تلقف البقرة الكلا بلسانها»[٢] فان البقرة تلقف الكلأ بلسانها بصورة سريعة دون مضغ جيد، وتزدرده من دون هضم لتجتره بعد ذلك. وكذلك المنافق يلقف القرآن بلسانه بسرعة ومن دون ان يهضمه كما تلقف البقرة الكلأ بلسانها.

وقد روي عن امير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ: ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) سُئِل عن قول الله عز وجل: ﴿وَرَتِلِ ٱلْقُرانَ تَرْتِيلًا﴾. فقال بينه تبيانا ولا تنثره نثر الرمل ولا تهذه هذ الشعر قفوا عند عجائبه حركوا به القلوب ولا يكن همّ احدكم اخر السورة[٣].

(١) مستدرك الوسائل ٤/٢٣٩ ط/٢.

(٢) مستدرك الوسائل الطبعة الثانية ٤/٢٤٢.

(٣) الجعفريات: ١٨٠.

فالقرآن ـ اذن ـ كنز للمعرفة والعلم بين ايدينا، ومفتاح هذا الكنز هو طريقة تعاطي القرآن وتلاوته، فاذا احسنا قراءة القرآن فتح الله تعالى علينا مغاليق كتابه، وعرفنا ما فيه من العلم، واذا لم نحسن قراءة كتاب الله تعالى لم يكن حظنا من كتاب الله حظاً موفوراً.

منهجة البحث:

ان اساس الاستفادة من كتاب الله هو الدخول في دائرة نفوذ القرآن، فاذا دخل الانسان في هذه الدائرة فتح الله عليه واعطاه مفاتيح وعي القرآن وفهمه، وهذه الدائرة هي «مجال النفوذ القرآني» التي اذا دخلها الانسان وقع تحت نفوذ القرآن المباشر وتأثيره وفعله القوي.

ومنهج بحثنا يتحدد في ضوء هذا المنطلق في اربعة نقاط متواليات في البحث:

١ـ ما هي دائرة نفوذ القرآن؟

٢ـ وما هي العلامات والامارات التي يعرف بها الانسان دخوله في هذه الدائرة وخروجه منها، ويشخص بها وضعه وموقعه من هذه الدائرة؟

٣ـ ما هي العوامل التي تمكننا من الدخول في هذه الدائرة؟ وما هي مفاتيحها؟

٤ـ ما هي المكاسب التي يجنيها الانسان من كتاب الله في هذه الدائرة؟ وما هي الافاق والخزائن التي يفتحها الله تعالى على عباده من كتابه في هذه الدائرة.

تلك هي اهم النقاط التي نتناولها في هذا البحث:

١ـ دائرة نفوذ القرآن (في رحاب القرآن)

ان اول ما يستوقفنا في هذه الدائرة هو معنى كلمة (النفوذ)، ان النفوذ نوع من انواع العلاقة بين طرفين يقع احدهما وهو الطرف «المنفعل» تحت تأثير وسلطان وحكم ونفوذ الطرف «الفاعل» والمؤثر، ويحكم الطرف المؤثر الطرف المنفعل والمتأثر،

ويوجهه ويجعله تحت نفوذه وسلطانه.

ونقصد بالنفوذ هنا «النفوذ الواعي»، وهو ما اذا كان هذا التأثير والتاثر والفعل والانفعال قد تمّ عن وعي ... ويكون استسلام الطرف الضعيف للطرف القوي عن قناعة. واما النفوذ والتأثير والفعل والانفعال اللاواعي فهو امر اخر لا نقصده في هذه الدراسة.

وفي مقابل هذه العلاقة (النفوذ الواعي) تأتي العلاقة المضادة لذلك تماما وهي علاقة (المقاومة)، وهذه العلاقة قائمة على اساس رفض تأثير ونفوذ الطرف الآخر.

شروط النفوذ الواعي:

وشروط (النفوذ الواعي) ثلاثة:

١ـ السنخية: فلا بد ان يكون بين الطرفين الفاعل والمنفعل مسانخة في التكوين، فالمؤمن يتأثر بالقرآن وينفعل فيه ويخضع لنفوذ القرآن، وكذلك اصحاب الفطرة السليمة يتأثرون بكتاب الله.

أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فليست نفوسهم من سنخ القرآن فلا يتأثرون به. يقول تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرآنِ ما هُو شِفاءٌ وَرَحمةٌ لِلْمُؤمِنينَ وَلا يَزيدُ الظّالِمينَ إلاّ خَساراً﴾[1].

فالقرآن شفاء ورحمة للمؤمنين خاصة، اما الظالمون المنحرفون فهم من سنخ آخر غير سنخ القرآن ولا يزيدهم القرآن إلاّ خسارا، وهذا المعنى ورد في اكثر من آية في القرآن:

﴿وَإذا ما أُنزلَتْ سُورةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُلُ أَيُكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إيماناً فَأمّا الّذينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إيماناً وَهُم يَسْتَبشِرونَ * وَأمّا الّذينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزادَتْهُم رِجساً

(١) الاسراء ٨٢/١٧.

إلى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾[١].

القرآن لا يختلف في واقعه، وانما يختلف الناس في ايمانهم وكفرهم وسلامتهم ومرضهم. اما المؤمنون فان القرآن يزيدهم ايماناً على ايمانهم وسلامة على سلامتهم، واما الذين في قلوبهم مرض فان القرآن يزيدهم رجسا الى رجسهم ومرضا الى مرضهم.

ويقول تعالى: **﴿الم * ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾**[٢].

فالقرآن هدى لخصوص المتقين واصحاب النفوس السليمة. **﴿هذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾**[٣].

﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٤].

٢ـ عدم المقاومة: فالطرف الضعيف اذا كان يقاوم تأثير ونفوذ الطرف القوي فان الطرف القوي ـ في هذا النوع من العلاقة الواعية ـ لا يستطيع ان يؤثر في الطرف الآخر مهما كانت قوته ونفوذه.

والقرآن هو الطرف القوي المؤثر في العلاقة إلّا ان الطرف الآخر اذا شاء ان يقاوم تأثير القرآن ويعانده فلا ينفعه القرآن.

ولذلك فان القرآن جاء مبشراً للمتقين فقط، واما اهل العناد واللجاج والخصومة والجدال فينذرهم القرآن فقط:

﴿فَإنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾[٥].

واللد جمع الد وهو من كان شديد الخصومة والعداء والجدال للمؤمنين، وهو ما ذكرنا من المقاومة والعناد واللجاج.. فان العناد واللجاج يفقد صاحبه القابلية على

(١) التوبة ١٢٥/٩ و ١٢٤.

(٢) البقرة ٢/٢.

(٣) آل عمران ١٣٨/٣.

(٤) النحل ٨٩/١٦.

(٥) مريم ٩٧/١٩.

التأثر والانفعال بالقرآن... فلا يجذبه القرآن عندئذ.

والتبشير نوع من الجاذبية تخص المؤمنين، فهم الذين يستجيبون لدعوة القرآن ونفوذه، واما الخصوم اللد فانهم يعاندون ويقاومون تأثير القرآن ونفوذه فلا يجذبهم القرآن، ولذلك فلا ينفعهم تبشير القرآن، وانما ينذرهم القرآن فقط.

والفرق بين التبشير والانذار: ان الاول نحو من انحاء الجاذبية، والثاني تخويف وارعاب وتهديد وليس من قبيل الجذب، وكذلك فان الآية الكريمة تفصل بين المتقين والقوم اللد بان الطائفة الاولى يجذبهم القرآن بالتبشير (لتبشربه المتقين) واما الطائفة الثانية فلا يكاد يجذبهم القرآن بالتبشير، وانما ينذرهم ويهددهم ويخوفهم فقط: ﴿وتنذر به قوما لُدا﴾.

ونستخرج من هذه الآية المباركة حقيقة ثانية وهي: ان «الاستجابة» و «المقاومة» وهما نحوان من العلاقة هما اللتان تصنعان «السنخية» التي تحدثنا عنها في النقطة الاولى.

«فالسنخية الايمانية» مع القرآن تتحقق «بالاستجابة» لدعوة القرآن ونفوذه وليست امراً خارج ارادة الانسان ومتعلقا بتكوين الانسان كما ان «الرفض» و «المقاومة» هي التي تفقد الانسان السنخية القرآنية التي تؤهله للانفتاح على القرآن والدخول في دائرة نفوذه وتأثيره.

ولذلك لما كانت التقوى من سنخ القرآن كان تأثير القرآن في جذب المتقين تأثيراً قويا، وهذا هو معنى (التبشير) والذي هو نحو من انحاء الجذب. ولما كان القوم «اللد» يعاندون تأثير القرآن فان هذا العناد والمقاومة تفقدهم السنخية القرآنية، وتجعلهم من سنخ آخر غير سنخ القرآن، لذلك فلا يكاد يجذبهم القرآن ولا ينفعهم تبشير القرآن وانما ينذرهم القرآن فقط.

٣ـ القوة والضعف: ولا بد في اي نفوذ وتأثير من وجود طرف قوي وطرف ضعيف حتى يتم الفعل والانفعال والتأثير والتأثر، والقرآن في هذه العلاقة هو

الطرف القوي الفاعل والمؤثر.

﴿ لَوْ أَنْزَلْنا هذا الْقُرآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يتَفَكَّرُونَ﴾[1].

﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾[2].

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَميعاً﴾[3].

ولا بد ان يكون تأثر وانفعال الطرف المتأثر عن وعي وقناعة، اما الانفعال والتأثر من دون وعي ولا قناعة فلا قيمة له في هذه الدائرة.

والله تعالى يقول في صفات عباد الرحمن:

﴿وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِاياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وَعُمْياناً﴾[4].

دائرة نفوذ القرآن:

فإذا تحققت هذه العناصر الثلاثة في علاقة الانسان بالقرآن فإن الانسان يقع في دائرة نفوذ القرآن وتحت تأثيره المباشر ـ العقلي والعاطفي ـ .

وهذه الدائرة هي مجال نفوذ القرآن وتأثيره على روح الانسان وعقله وعاطفته، فاذا تحول اليه الانسان اصبح تحت نفوذ وتأثير كتاب الله كما في المجال المغناطيسي في الفيزياء.

تأثير القرآن في هذه الدائرة:

وعندئذ فان القرآن يحكم الانسان المؤمن، ويكون المؤمن تابعا للقرآن ونسخة

(١) الحشر ٥٩/٢١.
(٢) فصّلت ٤١/٤٢ ٤١.
(٣) الرعد ١٣/٣١.
(٤) الفرقان ٢٥/٧٣.

متحركة منه في متبنياته وافكاره ومفاهيمه، وتكون مفاهيم القرآن واحكامه وتصوراته وتصديقاته هي متبنيات الانسان وافكاره ومفاهيمه عن قناعة ووعي، هذا اولاً في دائرة العقل والوعي.

ويوجه القرآن ثانيا عواطفه واحاسيسه وحبه وبغضه، فيحب من يحبه الله تعالى بمقاييس القرآن، ويبغض من يبغضه الله بالمقياس القرآني، فيكون في حبه وبغضه قرآنيا، ولا يستقل عن القرآن في حب وبغض وانسجام ونفور.

ويتحكم القرآن في عواطفه واحاسيسه ثالثاً فيبكيه ويرضيه ويثيره ويحركه ويخوفه ويبشره وينذره، وتكون عواطفه تحت التأثير والنفوذ المباشر للقرآن فيخاف ويتوجّسْ ويضطرب ويقلق بانذار القرآن وتخويفه، ثم يسكن ويطمئن ويلين قلبه وجلده بتبشير القرآن: ﴿اَللهُ نَزَّلَ اَحْسَنَ الْحَديثِ كِتاباً مُتشَابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ منه جُلُودُ الّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهم وَقُلوبُهُمْ الى ذِكْرِاللهِ﴾[1].

تقشعر قلوبهم بالتخويف والانذار ثم تسكن نفوسهم وتطمئن وتلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله بالتبشير.

هذا الانفعال المباشر من خصائص هذه الحالة القرآنية في نفوس المؤمنين. .

ويتحكم القرآن رابعا في سلوك وبناء وتكوين شخصية المؤمنين، فيكون سلوكهم سلوكا قرآنيا وكلامهم ومعاشرتهم وعلاقاتهم بالله تعالى وبالناس وبانفسهم مطبوعا بطابع القرآن وبصبغة الله تعالى.

والخلاصة ان الانسان ـ في هذه الدائرة القرآنية ـ يخضع في عقله وعاطفته للقرآن عن وعي. والعقل والعاطفة مفتاحان للقلب، فاذا خضع العقل والعاطفة للقرآن انفتح القلب والروح على مصراعيه على القرآن، فيملأه القرآن ويدخله بلا حاجز ولا مانع.

(١) الزمر ٣٩/٢٣.

مواضع الناس من القرآن:

وموقع الناس من القرآن احد ثلاثة:

فأما ان يقع الناس في دائرة نفوذ القرآن وتحت تأثيره وفعله وسلطانه المباشر واولئك هم الصديقون الذين يفتح الله لهم كنوز القرآن ويسلمهم مفاتيح القرآن.

وطائفة اخرى من الناس يقعون خارج هذه الدائرة ويتعاطون القرآن من خارج هذه الدائرة... واولئك نصيبهم من كتاب الله بمقدار بعدهم وقربهم عن القرآن، فكلما كانوا ابعد عن دائرة نفوذ القرآن ومجال تأثيره كان نصيبهم من القرآن اقل حتى يبلغ حد الصفر.

والطائفة الثالثة من الناس يقعون في دائرة العناد واللجاج والخصومة ومقاومة القرآن وهؤلاء يختلف حالهم عن الطائفة الثانية، فان القرآن ينقلب في حياة هؤلاء الى مصدر للشقاء والخسار ﴿ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاّ خَساراً﴾(1).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾(2).

وسوف نذكر لهذا الاجمال تفصيلا أكثر في العناوين المقبلة.

جاذبية القرآن:

ومهما يكن من امر فان للقرآن جاذبية وتأثيراً في النّفوذ ويصعب تفسيرها وتحليلها بالمقاييس المعروفة والمألوفة عند الناس فيما يقرؤون وفيما يسمعون.

ولهذه الجاذبية دائرة واسعة عامّة شاملة ودوائر خاصّة.

امّـا الدائرة العامّة الواسعة فهي دائرة التأثير المباشر المشهود للقرآن في

(1) الاسراء ٨٢/١٧.

(2) التوبة ١٢٥/٩.

افكار الناس وقلوبهم منذ ان نزل القـرآن على الناس الى اليوم الحاضر، والقرآن يتلى على الناس ليلاً ونهاراً وينشر في المصاحف على أوسع دائرة. والناس يسمعون القرآن ويقرؤونه ويتفاعلون معه ولم تهبط درجة هذا التفاعل ولم تنقص درجة تأثير القرآن في نفـوس النـاس منـذ ان نزل القـرآن إلى اليوم. ولا زال النـاس يتعاطون القرآن ويتفاعلون معه كما لو كان نزل اليوم من لدن الله تعالى الى عباده.

وتلك من دون ريب. آية هذه الجاذبيّة العامّة والشاملة للقرآن.

والدائرة الأُخرى لجاذبية القرآن هي الدائرة الخاصّة التي تقع فيها الصفوة من عبـاد الله الذين خصّهم الله تعالى بوعي القرآن وفهمه والذيّن آتاهم الله ثقة القرآن ونوره وبصيرته واولئك قلّة من الناس .

كما يقع في هذه الدائرة عموم الناس ممن لم ينغلقوا على هدى القرآن، ولكن بين حين وآخر، وبقدر ومضة أو اكثر.... وهذا التأثير في هـذه الومضات القرآنية تأثير قوي ومؤثّر ونافذ يخلـف حالة عن تأثير القرآن في دائرة الجاذبيّة العامّة. ففي هذه الومضات ينفتح القلب على القرآن ويتفاعل مع القرآن بقوّة وينفذ فيه القرآن ويخضعه تصبغه بصبغته ويقوّمه ويسدّده ويبعث فيه الايمان والنّور والهدى والقوة.

وكلّ من تعاطى القرآن ـ من عامّة الناس ـ ممّن لم ينغلق على القرآن لا بد ان التقى هذه الومضات في ـ القرآن خلال حياته اكثر من مرّة، وتلقى ومضات القرآن وامواج جاذبيّته النافذة للحظة أو لحظات، ووجد ان للآية التي كان يقرأها من قبل قوّة ونفوذ وجاذبية أُخرى، ونكهة تختلف عمّا كان يجدها فيها من قبل، وسحراً في نفسه يختلف عمّا كانت عليه من قبل.

ونحن مهـما شككنـا في شيء فلا نشكّ في حدوث مثل هذه الحالات من التفاعل القويّ للقلوب مع القرآن بين حين وآخر، وفي هذه الومضات القرآنية التي تنفذ الى اعماق القلوب فيمن يتعاطى كتاب الله من عامّة الناس ولم ينغلق على هدى القرآن، وليس في الناس ممّن يتعاطى القرآن ولم ينغلق عليه من لم يمرّ بهذه الحالات

ولم يتعرّض لهذه الومضات في حياته مرّات ومرّات.

ولا نشكّ ايضاً أنّ لهذه الحالات من التفاعل القويّ بالقرآن والتأثير الشديد بجاذبيته قانوناً يخصّها، ولا يمكن أن تحدث هذه الحالات بصورة عفويّة بين حين وآخر.

وان كنّا نجهل تفاصيل هذا القانون، هناك قانون لانفتاح القلوب انغلاقها.وهذاالقانون هو الذي يفسّر كيفيّة التقاء الناس بالقرآن ودرجة تفاعلهم معه وكل الناس ممّن لم ينغلق على كتاب الله يتلقى مثل هذه الحالات، ولكن يختلفون في قدرتهم على تثبيت هذه الحالات في قلوبهم وحياتهم.

فمن الناس من يستطع ان يثبت هذه الومضات القرآنية في حياته ويحوّلها من (ومضة خاطفة) الى (حالة)ومن (حالة) الى (ملكة ثابتة) تغير مجرى حياته. وهؤلاء قد يتغيّر مجرى حياتهم بآية يسمعونها من كلام الله، ويتحوّل من حال الى حال، ومن الشقاوة الى السّعادة، ومن الضياع والضلال الى الهدى والاستقامة كما ينقل مثل ذلك عن الفضيل بن عياض .

ونحن نورد فيما يلي بعض الامثلة والشواهد على هذه الومضات القرآنية في حياة الناس(١).

وهي كثيرة لا تحصى ولكنّا آثرنا هنا ان ننقل بعضها ليهتدي من خلالها القارىء الى الحالات المماثلة التي تحدث في حياته وفي نفسه، ويعمل على تثبيتها وتعميقها في نفسه، واليك جملة من هذه الشواهد:

دخل جبير بن مُطعِم ـ وهو مشرك ـ على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لاطلاق سراح الاسرى بعد معركة بدر ورسول الله (صلى الله عليه وآله) قائم

(١) للاستاذ على كريمى جهرمى كتاب جديد بهذا الموضوع جمع فيه هذه القصص والشواهد وقد نقلت عن كتابه بعض هذه الامثلة.

يصلّي. فسمع النبيّ (صلى الله عليه وآله) وهو يقرأ في المغرب: والطّور قال: فلمّا بلغ قوله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمواتِ وَ الأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُصَيْطِرُونَ﴾[١] كاد قلبي أن يطير وذلك أوّل ما دخل الاسلام قلبي[٢].

عن ابن مسعود: لّما نزل قوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٣] تلاها رسول الله (صلى الله عليه وآله) على أصحابه. فخرّ فتىً مغشيّاً عليه. فوضع النّبيّ (صلى الله عليه وآله) يده على فؤاده فوجده يكاد يخرج من مكانه. فقال(صلى الله عليه وآله): يافتى قل: لا إله الاّ الله. فتحرّك الفتى فقالها. فبشّره النّبيّ (صلى الله عليه وآله) بالجنّة. فقال القوم: يا رسول الله! من بيننا؟ فقال النّبيّ (صلى الله عليه وآله): أما سمعتم الله يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[٤].

دخل عتبة بن ربيعة على رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليكلّمه فيما جاء به من خلاف قومه وليحاجّه. فتلى عليه رسول الله من سورة فصلت: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ...﴾[٥] فأمسك عتبة بيده على فم النّبيّ (صلى الله عليه وآله) وناشده الرّحم ان يكفّ عن الأنذار[٦].

قالوا ان الفضيل بن عياض[٧] كان اوّل امره من قطاع الطريق بين ابيورد وسرخس و عشق جارية. فارتقى ليلاً الجدار اليها فسمع قارئاً يقرأ القرآن في آناء الليل وقد بلغ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾[٨] فقال:

(١) الطور: ٣٧ ــ ٣٤. (٢) معترك الا قرآن للسيوطى ٢٤٣/١، الدين و الاسلام ٣٧٠/٢.
(٣) التحريم: ٦. (٤) نورالثقلين: ٣٧٣/٥. (٥) فصلت: ١٣.
(٦) معترك الا قرآن للسيوطى ٢٤٣/١، الدين والأسلام ٣٧٠/٢.
(٧) له ترجمه فى تذكرة الحفاظه ٢٢٥/١ وتهذيب التهذيب ٢٩٤/٨ والجواهر المضيئة ٤٩٠/١ وحلية الاولياء ٨٤/٨ والرسالة التفسيرية ٩ ووفيات الاعيان ٢١٥/٣ نقلاً عن روضات الجنتان ١٩/٦.
(٨) الحديد: ١٦.

يارِبّ قد آن. ورجع وتاب وحقّت توبته واستقام أمره.

كان لفضيل بن عياض ولد اسمه عليّ. سمع يوماً قارئاً في المسجد الحرام يقرأ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾فصعق صعقة من اثر القراءة وسقط[١].

عن حرم العبدي قال: قدمت الكوفة فلم يكن لي همّ إلاّ أويس (العزيزي) اسأل عنه. فدفعت إليه بشاطئ الفرات يتوضأ ويغسل ثوبه. فعرفته بالنّعت. فاذا رجل أدم محلوق الرأس ، كثّ اللّحية، مهيب المنظر، فسلّمت عليه. فقلت: السّلام عليك يا أويس ! كيف أنت يا أخي؟ حدّثني عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) حديثاً لأحفظه عنك. قال: إنّي لم أدرك رسول الله(صلى الله عليه وآله) ولم يكن لي معه صحبة وقد رأيت رجالاً رأوه. وقد بلغني عن حديثه كبعض ما بلغكم ولست أحبّ أن افتح هذا الباب على نفسي. قال: قلت: فاتل عليّ آيات من كتاب الله عزّ وجلّ أسمعهنّ منك وأوصني بوصيّة. قال: فأخذ بيدي وجعل يمشي على شاطىء الفرات. ثم قال: احقّ القول قول ربّي عزّ وجلّ واصدق الحديث حديث ربي عزّ وجلّ وأحسن الكلام كلام ربّي. أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرّجيم. ﴿إِنَّ يَومَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُم أَجْمَعِينَ﴾[٣]. قال: ثمّ شهق شهقة فأنا أحسبه قد غشّ عليه. ثمّ قرأ: ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لاَ هُمْ يُنصَرُونَ إلاّ مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[٤] ثمّ نظر إليّ فقال: يا حرم! ما أبوك ويوشك أن تموت. وصيّتي لك يا ابن حيّان كتاب الله عزّ وجلّ وعليك بذكر الموت. فإن استطعت أن لا يفارق قلبك طرفة عين فافعل وأنذر قومك إذا رجعت إليهم[٥].

كان للمولى عبد الله بن الحسين الشّترى ابنٌ يحبّه كثيراً، فصادف أن مرض ولده مرضاً شديداً وانشغل بال الأب بابنه المريض فحضر الصلاة جماعة فلم يتمكّن

(١) ابراهيم: ٥٠. (٢) روضات الجنان: ٢٢/٦. (٣) الدخان: ٤٠.

(٤) الدخان: ٤٢. (٥) حلية الاولياء ٨٤/٢ـ٨٥.

أن يقبل بقلبه على صلاته كما كان يفعل من قبل. فقرأ سورة المنافقين في صلاته حتّى بلغ قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[١] وأخذ يكرّر هذه الآية كثيراً فلمّا فرغ من صلاته سأله النّاس عن سبب تكرار هذه الآية. فقال لهم: لّما بلغت هذه الآية خطر على بالي انشغال قلبي بولدي فأخذت اكرّرها وأعمل لتجريد نفسي من التعلّق بابني حتّى تصوّرت ابني ميتاً وجنازته أمامي وقطعت منه أملي ثمّ انصرفت منها إلى ما بعدها من الآيات[٢].

قال بعضهم: خرجت أنا وصديق لي الى البادية فضلّلنا الطريق فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدنا نحوها فسلّمنا. فإذا بامرأة تردّ علينا السلّام. وقالت: من أنتم؟ قلنا: ضالّون فآتيناكم فاستأنسنا بكم. فقالت: يا هؤلاء! ولّوا وجوهكم عنّي حتّى اقض من حقّكم ما أنتم له أهل. ففعلنا. فألقت لنا مسحاً وقالت: اجلسوا عليه حتّى أن يأتي ابني. ثمّ جعلت ترفع طرف الخيمة وتردّها إلى أن رفعته مرّة. فقالت: أسئل الله بركة المقبل. أمّا البعير فبعير ابني وأمّا الراكب فليس هو به. فوقف الرّاكب عليها وقال: يا أمّ عقيل! عظّم الله أجرك في عقيل ولدك. فقالت: ويحك مات؟ قال: نعم. قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الأبل فرمت به في البئر. فقالت: إنزل واقض ذمام القوم ودفعَت إليه كبشاً فذبحه واصلحه وقرَب إلينا الطعام. فجعلنا نأكل ونتعجّب من صبرها.

فلمّا فرغنا خرجَت إلينا وقالت يا قوم: هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئاً؟ فقلت: نعم. قالت: فاقرأ عليّ آيات أتعزّى بها عن ولدي. فقلت: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَٰبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَٰجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَٰتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[٣] قالت: بالله إنّها في كتاب الله هكذا؟ قلت: والله إنّها لفي كتاب الله هكذا. فقالت: السلام عليكم. ثمّ صفّت قدميها وصلّت ركعات. ثمّ قالت: اللّهمّ إنّي قد فعلت ما أمرتني فانجز لي ما

(١) المنافقون: ٩. (٢) سفينة البحار: ٢/١٢١. (٣) البقرة: ١٥٧.

وعدتني. ولو بقي أحد لاحد. فقلت في نفسي: تقول لبقى ابني لحاجتي إليه. فقالت: لبقى محمّد ـ صلى الله عليه وآله ـ لأُمّته.

فخرجنا وأنا أقول: ما رأيت أكمل منها ولا اجزل ذكرت ربّها باكمل خصاله واجمل جلاله[١].

وروى صاحب مقتنيات الدرر : انّ شابّاً صالحاً حضر جماعة للصلاة. فقرأ الإمام في الصلاة سورة الحاقّة. حتّى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[٢] صرخ الفتى صرخةً وسقط مغميٌّ عليه. فحملوه إلى أُمّه في بيته وهو مغشيّ عليه.[٣].

قدم صعصعة بن ناجية جدّ الفرزدق على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في وفد بني تميم. فقرأ عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[٤] فقال حسبي. ما أبالي أن أسمع من القرآن غير هذا[٥].

سلطان القرآن على المشركين:

وأعجب من هذا كلّه سلطان القرآن على قلوب المشركين الذين لم يفتحوا قلوبهم للقرآن. إلاّ أنّ القرآن كان يجذبهم إليه بقوّة وكان يسحرهم بسحر بيانه ويشدّ قلوبهم إليه شداً قويّاً.

وفي سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نماذج وشواهد كثيرة لغزو القرآن للقلوب المنغلقة على القرآن ونفوذ القرآن في هذه القلوب التي لم ينفتح اصحابها على كتاب الله فنذكر فيما يلي بعض هذه الشواهد:

(١) مسكّن الفؤاد للشهيد ص ٧٦ ــ ٧٧.

(٢) الحاقة: ٣١.

(٣) مقتنيات الدرّر: ١١/٢٣٤. (٤) الزّلزال: ٨ــ٧. (٥) نورالثّقلين: ٥/٦٥٠.

يقول ابن اسحاق في قصة اسلام (سعد بن معاذ) و (اسيد بن حضير) وهما سيّدا قومهما من بني عبد الاشهل في يثرب لّما ارسل رسول الله (صلى الله عليه وآله) مصعب بن عمير الى يثرب ليدعوهم إلى الاسلام ويعلّمهم القرآن، إنّ اسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد دار «بني عبد الاشهل» ودار «بني ظفر». وكان سعد بن معاذ ابن خالة اسعد بن زرارة فجلسا (اسعد بن زرارة ومصعب بن عمير) في الحائط. واجتمع إليهما رجال ممّن اسلم. وسعد بن معاذ واسيد بن حضير يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل. وكلاهما على دين قومه. فلمّا سمعا به قال سعد بن معاذ لـ (اسيد):لا أبا لك انطلق إلى هذين الرّجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفّها ضعفاءنا. فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا. فإنّه لولا أنّ اسعد بن زرارة منّي حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدّماً. قال: فأخذ اسيد بن حضير حربته ثمّ أقبل إليهما. فلمّا رءاه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه قد جاءك. فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلّمه. قال: فوقف عليهما متشتّماً. فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجةً. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع. فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كفّ عنك ما تكره. قال: أنصف. ثمّ ركز حربته وجلس إليهما. فكلّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن. فقالا فيما ذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم في اشراقه وتسهله، ثمّ قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله. كيف تصنعون إن أردتم أن تدخلوا في هذا الدّين. قالا له: تغتسل وتطهّر وتطهّر ثوبيك، ثمّ تشهد شهادة الحقّ، ثمّ تصلي. فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهّد شهادة الحق. ثمّ قام فركع ركعتين. ثمّ قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن أتّبعكما لم يتخلّف عنكما أحد من قومه وسأرسله إليكما الأن سعد بن معاذ. ثمّ أخذ حربته وانصرف الى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم. فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلفُ بالله لقد جاءكم اسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلمّا وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين. فو الله ما

رأيت بهما بأساً. وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما احببت. وقد حدث أنّ بني حارثة قد خرجوا إلى اسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنّهم قد عرفوا أنّه ابن خالتك.

قال: فقام سعد مغضباً مبادراً. تخوّفاً للذي ذكر له من بني حارثة فاخذ الحربة من يده ثمّ قال والله ما اريك أغنيت شيئاً. ثمّ خرج إليهما. فلمّا رآهما سعد مطمئنّين عرف سعد أنّ أسيداً إنّما أراد منه ان يسمع منهما. فوقف عليهما متشتّماً. ثمّ قال لاسعد بن زرارة: يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا منّي. أتغشانا في دارنا بما نكره. وقد قال اسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: اي مصعب: جاءك والله سيّد من ورائه قومه. ان يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع. فان رضيت امراً ورغبت فيه، قبلته وان كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: انصفت. ثمّ ركز حربته وجلس. فعرض عليه الاسلام، وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله في وجهه الاسلام قبل ان يتكلّم، لاشراقه وتسهله. ثمّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهّر وتطهّر ثوبيك ثمّ تشهد شهادة الحقّ. ثمّ تصلي ركعتين. قال: فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهّد شهادة الحق، ثمّ ركع ركعتين، ثمّ أخذ حربته. فاقبل عامداً الى نادي قومه ومعه اسيد بن خضير. قال: فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلمّا وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري منكم. قالوا: سيّدنا وافضلنا رأياً وأيمننا نقيبه: قال: فان كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتّى تؤمنوا بالله ورسوله[١].

العلامات المشخصة لدائرة نفوذ القرآن

في النقطة الأُولى من هذا الفصل عرفنا متى يدخل الانسان في دائرة نفوذ

(١) الروضا الأنف ٢/١٨٦ ــ ١٨٥.

القرآن وكيف يحل في رحاب القرآن والآن نتساءل ما هي العلامات المشخصة لهذه الدائرة والتي بها يستطيع الانسان ان يعرف موضعه من هذه الدائرة، هل هو داخل الدائرة ام خارجها؟

فيما يلي اهم تلك العلامات:

١ـ تحكيم القرآن:

من اهم العلامات المشخصة لهذه الدائرة المباركة هي قبول الانسان لحاكمية القرآن على قلبه وعقله وعواطفه واحاسيسه وعلاقاته وحركته وسلوكه. واتخاذ القرآن مقياسا للحق والباطل، والصحيح والسقيم، والهدى والهوى عن وعي وقناعة.

ان اية العيش في هذه الدائرة: ان يحكم الانسان القرآن على نفسه تحكيما كاملا، ويتخذه مقياسا مطلقا للحق والباطل، ويجعله ميزانا ومعيارا لفهم الاشياء والاشخاص والخطوط، وكلما التبس عليه امر شيء استوضح القرآن فيه، وكلما خشي على نفسه من الشطط والزيغ استنصح القرآن في نفسه، وكلما رأى من نفسه ميلا ورغبة الى غير ما يميل اليه القرآن ويرغب فيه اتهم نفسه وصدق القرآن.

يقول امير المؤمنين عليه السلام في القرآن: (واستنصحوه على انفسكم واتهموا عليه اراءكم واستغشوا فيه اهواءكم)(١).

فما خالف من قول وقانون ورأى كتاب الله فهو باطل، وما وافقه فهو حق، وهذا هو معنى اتخاذ القرآن مقياسا حاسما للحق والباطل.

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ان على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه)(٢).

وعن الامام جعفر الصادق (عليه السلام): (وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف)(٣).

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٧٦.

(٢) اصول الكافي: ١/٥٥.

(٣) نفس المصدر.

فمتى اصبح القرآن مقياسا للانسان في التفكير كان ذلك آية خضوع الانسان للقرآن ودخوله في دائرة نفوذ القرآن وتأثيره. ومن دون ان يتخذ الانسان القرآن مقياسا للتفكير والتصور والتصديق لا يدخل في هذا المجال.

وقد ورد ذكر لحاكمية القرآن المطلقة على الانسان في النص التالي المروي عن الامام جعفر الصادق عليه السلام: (القراء ثلاثة: قارىء قرأ القرآن ليستدر به الملوك، ويستطيل به على الناس فذلك من اهل النار، وقارىء قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده فذلك من اهل النار، وقارىء قرأ القرآن فاستتر به تحت برنسه فهو يعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه ويقيم فرائضه ويحل حلاله ويحرم حرامه فهذا ممن ينقذه الله من مضلات الفتن وهو من اهل الجنة ويشفع فيمن يشاء)[1].

...هكذا يستتر به تحت برنسه ، والبرنس هو الثوب الذي يكون غطاء الراس جزء متصلا به، فيغطي الانسان تغطية كاملة، ويستره سترا كاملا، وهو كناية عن الدخول الكامل في دائرة القرآن، والانقياد الكامل له والانصراف الكامل اليه، حتى لكان القرآن يغطيه تغطية كاملة ولا يشذ منه شيء عن حدود القرآن كما يغطي البرنس الجسم كاملا حتى الرأس.

٢ـ التفاعل مع القرآن:

والعلامة المشخصة الثانية للدخول في دائرة نفوذ القرآن هي تفاعل القارىء مع القرآن حتى يشعر بفعل القرآن العجيب في نفسه ويلمس تأثيره وانفعاله بالقرآن .

يقول تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكرِ اللهِ﴾[2].

... هكذا تقشعر الجلود والقلوب بذكر الله، وترتفع درجة الخوف والخشية من الله ثم تسكن القلوب وتطمئن النفوس وتلين الجلود بذكر الله. ومن ابلغ ما قرآت في

(١) خصال الصدوق: ١/٧٠.
(٢) الزمّر ٣٩/٢٣.

ذلك كلمة للشيخ ولي الله المرجاني: يقول: ان الله اطلق كل شعرة في جسد الانسان لقراءة القرآن[١].

ان تفاعل القلب مع كتاب الله علامة سلامة القلب واستقامته فيأخذ القلب من كتاب الله وينفعل ويتأثر به، وهذا الاخذ والعطاء والتعاطي للقرآن والتأثر والانفعال به من امارات سلامة القلب واستقامته، يصف امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في خطبته المعروفة بخطبة المتقين لهمام صفة المتقين في تفاعلهم مع القرآن وتعاطيهم له:

فيقول: «اما الليل فصافون اقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا يحزنون به انفسهم ويستثيرون به دواء دائهم فاذا مروا باية فيها تشويق ركنوا اليها طمعا وتطلعت نفوسهم اليها شوقا وظنوا انها نصب اعينهم واذا مروا باية فيها تخويف اصغوا اليها مسامع قلوبهم وظنوا ان زفير جهنم وشهيقها في اصول اذانهم فهم حانون على اوساطهم مفترشون لجباههم واكفهم وركبهم واطراف اقدامهم يطلبون الى الله تعالى في فكاك رقابهم..»[٢].

ان القلوب المؤمنة اذا التقت في كتاب الله ايات جلال الله وجماله وعظمته تعالى وكبريائه خشعت.

واذا التقت في كتاب الله ايات الانذار والتخويف غلب عليها الخوف والخشية. واذا التقت بايات الرحمة والمغفرة سكنت واطمئنت واخبتت. واذا التقت في كتاب الله ايات الدعوة للعودة الى الله انابت الى الله وتابت. واذا التقت بايات فضل الله تعالى على عباده ومنّه عليهم امتلئت شكرا وحبا لله تعالى... وهكذا تتفاعل قلوب المؤمنين مع ايات الله تعالى، وتتلون مشاعر المؤمنين واحاسيسهم بهذا الطيف النفسي من الحب والتسليم والرضا والشكر والخوف والرجاء والاخلاص والاخبات والخشوع

(١) معترك الاقران ٢٤٦/١.

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٨٨ من شرح الشيخ محمد عبده.

والسكينة والاطمئنان.

ويتحـول الانسـان في سيره في القـرآن من لون الى لون من الاحاسيس والمشاعر والانفعالات النفسية من هذا الطيف النفسي الذي يشكل مجمل العلاقة بالله تعالى.

٣ـ البكاء عند تلاوة القرآن:

وذروة هذا التفاعل الروحي هي البكاء، فان البكاء تعبير عن اعلى درجات الرقة والخشوع والتفاعل مع القرآن، كما يصح العكس ايضا فان البكاء يرقق القلب ويستجلب الخشوع الى القلب والروح ويزيل الصداً عن النفوس.

ان (الشهقة) من البكاء قد تكسر الجليد المتراكم على القلوب، وتحرر القلب عن القيود والاغلال وركام السيئات التي تراكمت على النفس سنين طويلة وفي لحظة واحدة.

وانبكاء من اوضح امارات التفاعل مع القرآن والدخول في دائرة نفوذه، ومن اقوى امارات استقرار المعرفة واليقين في نفوس المؤمنين.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾[١].

اذا قرؤوا ايات الله يخرون للاذقـان سجـدا ويبكـون ويزيدهم خشوعا ويسبحون الله تلك هي صفة الذين اوتوا العلم اذا قرؤوا ايات الله.

ولقـد كان رسـول الله (صلى الله عليه وآله) والائمة من اهل بيته وخيار صحابته وخيار المسلمين لا يملكون انفسهم من البكاء عند قراءة القرآن.

(١) الاسراء ١٧/١٠٧-١٠٩.

رسول الله (صلى الله عليه وآله) يبكي عند تلاوة القرآن:

١ـ وقد روي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لابن مسعود: اقرأ عليّ قال ابن مسعود ففتحت سورة النساء فلما بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ رأيت عينيه تذرفان من الدمع. فقال لي: حسبك الان[١].

ان الآية الكريمة التي ذرفت عندها عينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) دمعا تحمّل رسول الله (صلى الله عليه وآله) مسؤولية الشهادة على هذه الامة (على هؤلاء)، وهي مسؤولية صعبة في مرحلة تحمل الشهادة وفي مرحلة ادائها.

وللشهادة مرحلتان في الاولى منها يتحمل الشاهد الشهادة، وفي الثانية منها يؤدي الشهادة عند الحاكم.

واذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) شاهدا على هذه الامة فهو يتحمل شهادة اعمالهم جميعا، ويحضر اعمالهم من حسنات وسيئات جميعا... ومن الطبيعي ان سيئات اعمالنا تؤذي رسول الله (صلى الله عليه وآله) اذية عظيمة ويشق عليه (صلى الله عليه وآله) تحملها، مشقة كبيرة.

والمرحلة الثانية للشهادة هي الاداء بين يدى الله تعالى. وكلتا المرحلتين من الشهادة صعبتان شديدتان ثقيلتان، وقد تكون هذه الصعوبة في تكليف رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالشهادة هي التي ابكت رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقد يكون التكريم الالهي لرسوله (صلى الله عليه وآله) بالشهادة على هذه الامة هي التي ابكته.

ومهما يكن من امر فان رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاضت عيناه بالدمع عند الاستماع الى هذه الآية.

٢ـ وعن الامام الصادق (عليه السلام): «كان رسول الله اذا قرأ هذه الآية:

(١) مستدرك الوسائل ٢٣٨/٤ عن اسرار الصلاة للشهيد ١٣٩ وبحار الانوار ٢١٦/٩٢.

﴿وَما تَكُونُ في شَأْنٍ، وَما تَتْلُو مِن قُرآنٍ، وَلا تَعْملُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاّ كُنّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً، اذْ تُفيضُونَ فيه، وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ في الارضَ وَلا في السَّماء وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ، وَلا اكْبَرَ إلاّ في كِتابٍ مُبينٍ﴾[١].. بكى بكاءً شديداً»[١].

٣ـ وروي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لابن مسعود: «اقرأ، فقال: يارسول الله اقرأ، وعليك انزل؟ فقال (صلى الله عليه وآله) اني احب ان اسمعه من غيري، فكان يقرأ ورسول الله عيناه تفيضان»[٢].

٤ـ وعن رجاء بن الضحاك قال: كان الرضا (عليه السلام) في طريق خراسان يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن. فاذا مر بآية فيها ذكر جنة او نار بكى، وسأل الله الجنة وتعوذ به من النار.

٥ـ عن زر بن حبيش قال قرأت القرآن من اوله الى اخره في المسجد الجامع بالكوفة على امير المؤمنين عليه السلام فلما بلغت حم عسق﴿والذين امنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾ بكى علي عليه السلام حتى علا نحيبه[٣].

٦ـ وروى علي بن ابراهيم في تفسيره عن ابي عبد الله الصادق (عليه السلام) «ان ابا عبد الله الصادق تلا قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُواً في الأرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤] وجعل يبكي ويقول: ذهبت والله الاماني عند هذه الآية»[٥].

(١) نور الثقلين ٣٠٨/٢ ومجمع البيان ١١٩/٣.

(١) صحيح مسلم ١٩٥/٢ و ١٩٦.

(٢) بحار الانوار ٢١٠/٩٢ و٢١٨ و عيون اخبار الرضا ١٨٣/٢.

(٣)القرآن الكريم في احاديث الرسول الاعظم (صلّى الله عليه وآله) واهل بيته الطاهرين:١٠١ و مستدرك الوسائل:٢٧٧/٤ وبحار الانوار:٢٠٦/٩٢.

(٤) القصص ٨٣/٢٨.

(٥) مستدرك الوسائل ٢٧٧/٤.

٤ـ الحزن عند قراءة القرآن:

ومن العلامات المشخصة للتفاعل مع القرآن الحزن عند قراءة القرآن. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ان القرآن نزل بحزن فاقرأوه بحزن»[١].

وعن سليمان بن داود المنقري عن حفص: قال ما رأيت احدا اشد خوفا على نفسه من موسى بن جعفر ولا ارجى للناس منه وكانت قراءته حزنا فاذا قرأ فكأنه يخاطب انساناً)[٢].

وهذه ملاحظة ذات دلالة هامة في القراءة: (فاذا قرأ فكانه يخاطب انسانا) فان القراءة الحقيقية هي التي يتفاعل معها القارىء وينشد اليها وتؤدي دور التخاطب والأخذ والعطاء.

ولا يختص القرآن بطابع الحزن وصبغة الحزن في النزول والقراءة.. فكل كتب الله تعالى الى الناس تتميز بهذه الصبغة وهذه اللهجة الحزينة وينبغي ان تكون قراءتها عن حزن.

روي عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام: «ان الله عز وجل اوحى الى موسى بن عمران: اذا وقفت بين يدي فقف موقف الذليل الفقير، واذا قرأت التوراة فاسمعنيها بصوت حزين»[٣].

ان نزول القرآن كان بحزن والقراءة الصحيحة للقرآن هي التي تعبر عن طابع الحزن الذي نزل به القرآن، وكلما كانت القراءة حزينة اكثر كانت اقرب الى نزول القرآن واكثر تعبيرا عنه[٤].

(١) اخرجه ابو يعلي وابو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر و رواه الكليني في الكافي ٦١٤/٢ تحت رقم (٢) عن الامام الصادق (عليه السلام). و رواه كذلك الحر العاملي في وسائل الشيعة ٨٥٧/٤ / الحديثة.

(٢) وسائل الشيعة ٨٥٧/٤.

(٣) وسائل الشيعة ٨٥٧/٤.

(٤) لابد ان نقف عند هذه الكلمة (ان القرآن نزل بحزن) وقفة تأمل فهي كلمة جديرة بالدراسة والتأمل و كاشفة

٥ـ تحمل هموم الدعوة وهموم العبودية:

ان هموم العبودية وهموم الدعوة الى الله تعالى تملأ القلوب الكبيرة والواعية. وكلما يكون القلب اوعى واسلم يكون همه اكثر.

والنسبة بين سلامة القلب وبين ما يتحمل من هموم العبودية والدعوة الى الله نسبة طردية.

ومن اخطاء الناس العجيبة انهم يرون ان القلوب كلما تكون افرغ من هموم العبودية والدعوة، وكلما يكون ثقل هذه الهموم على القلب اخف فهو امارة سلامة القلب وعلامة نشاطه.

ان القلوب الفارغة من الهموم قلوب بليدة عديمة الحظ او قليلة الحظ من الوعي والاحساس، وكلما يكون حظ القلب من الوعي والاحساس بالمسؤولية اوفر يكون تراكم الهموم عليه اكثر. فالانسان المؤمن الواعي عندما يستشعر مسؤوليات العبودية العظمى ومسؤوليات الدعوة الكبيرة، وينظر الى قصوره وتقصيره وضعفه وعجزه وتباطئه من النهوض بمسؤوليات العبودية والدعوة يشعر بثقل المسؤولية وهمها على قلبه.

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ يعاني معاناة قاسية من هموم العمل والدعوة الى الله تعالى، حتى خاطبه الله ـ عز شانه ـ في كتابه بهذا الخطاب الرقيق المسلي:

﴿طه * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرآنَ لِتَشْقىٰ * إِلاّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ﴾[1].

وفي خطاب آخر منه تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله): ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ

عن طبيعة نزول القرآن ولكي لا نقطع الاسترسال في هذا البحث نرجىء البحث عن هذا الموضوع الى خاتمة هذا الكتاب.

(١) طه ٢٠/١ـ٣.

عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾[١].

وان القلب الذي يتحمل كل هذه الهموم، ويذهب هذا المذهب في الحسرة على النـاس وشقـائهم هو قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ، القلب الكبير والواعي والحساس.

والقرآن يذكر الانسان بعهود العبودية ومسؤوليات العمل والدعوة الى الله تعالى الكبيرة فيستشعر قارىء القرآن هذه الهموم ويشعر بثقلها على قلبه.

(عن ابن عباس قال قال ابو بكر يارسول الله اسرع اليك الشيب؟ قال (صلى الله عليه وآله): «شيبتني سورة هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون»[٢].

واي سورة سورة هود؟ ان الله تعالى يخاطب نبيه (صلى الله عليه وآله في زحمة المشـاكل والمشاكسات وتحديات قريش وزعماء الجاهلية في جزيرة العرب، وفي جو الضغـوط والاستفـزازات التي تلين الحـديد الصعب بهذا الخـطاب القوي الشديد ﴿فَلَعَلكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحىٰ إلَيكَ وضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾[٣].

ثم يعلم الله تعالى رسوله (صلى الله عليه وآله) بالاسلوب الذي يواجه به الرفض والاعراض من جانب طغاة قريش ومردة العرب وقادتهم.

﴿فَإلَّمْ يَسْتَجيبُوا لَكُمْ فَاْعلَمُوا أنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأنْ لا إلهَ إلاّ هُوَ فَهَلْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٤].

هكذا يمر على هذه الموجة العاتية من الرفض والاعراض بترفع وقوة.

وان يثبت ولا يتزلزل ولا يهتز من معه من المؤمنين ولا يهتز امام هذه العاصفة من الارتياب والتشكيك والاعراض والصدود ﴿فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِنْهُ إنَّهُ الْحَقُّ مِنْ

(١) فاطر ٨/٣٥.

(٢) بحار الانوار ١٩٨/٩٢ـ ١٩٩ وخصال الصدوق ٩٣/١ وفي رواية الطبرسي في مجمع البيان ١٤٠/٥ بزيادة (و اذا الشمس كورت) و رواها عنه صاحب المستدرك في ٢٤٢/٤ـ ٢٤٣ الطبعة الثانية الحديثة.

(٣) هود ١٢/١١.

(٤) هود ١٤/١١.

رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنُونَ﴾[١].

ثم تستعرض سورة هود حالة المواجهة والصدام بين الاسلام والكفر في حياة سلسلة من الانبياء ـ عليهم السلام ـ فتذكر معاناة نوح ـ عليه السلام ـ الطويلة مع قومه، ومعاناة هود ـ عليه السلام ـ مع قومه (عاد)، ومعاناة صالح ـ عليه السلام ـ مع قومه (ثمود)، ومعاناة ابراهيم ـ عليه السلام ـ، ومعاناة لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه، ومعاناة شعيب ـ عليه السلام ـ مع قومه في (مدين)، واخيرا معاناة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وجنده.

وبعد هذا السرد الطويل لمعاناة الانبياء ـ عليهم السلام ـ والذي جاء تثبيتا لفؤاد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ: ﴿وكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ في هذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤمِنِينَ﴾[٢].

بعد هذا الاسترسال الطويل يأتي هذا الامر الالهي الصادع بالثبات والاستقامة، وعدم الركون الى الظالمين، وعدم الاستسلام ومقاومة الهزيمة النفسية امام موجة الجاهلية والاعراض العاتية ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ * وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ وَمالَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾[٣].

الأمر وما ادراك ما هذا الأمر، امر بالإستقامة امام هذه الموجة العاتية هو (صلّى الله عليه وآله) والذين تابوا معه، والا يطغوا والا يستسلموا للموجة: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ﴾. وليس هو بمعنى قبول مقولة الجاهلية، فان الله تعالى لا يخاطب رسوله (صلّى الله عليه وآله) والذين تابوا معه بهذا الخطاب، وانما

(١) هود ١١/١٧.
(٢) هود ١١/١٢٠.
(٣) هود ١١/١١٢_١١٣.

يحذر من ترك المقاومة والصمود والثبات. واي تهديد يتبع هذا الخطاب (فتمسْكُمْ النار) (ثم لا تنصرون)؟

اللهم ان هذا الخطاب لا ينهض به إلاّ من ثبت الله تعالى فؤاده، ووهبه من لدنه سكينةً ويقينا وقوة ورباطة جأش.

وان القرآن ليمهد لهذا الخطاب الصعب بهذا الاسترسال الطويل من قصص الانبياء المرسلين ثم يعقب هذا الخطاب الصعب مباشرة بالامر بالصلاة والصبر ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِئاتِ ذٰلِكَ ذِكْرى لِلذّاكِرِينَ * وَاْصبِرْ فَاِنَّ اللهَ لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

انه لأمر صعب وتكفي في صعوبته كلمة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) (شيبتني سورة هود).

...كذلك القرآن يفعل بالقلوب الواعية، ويحملها هموم العمل والرسالة والعبودية والمواجهة.

وعن عبد الله بن عمران النبي (صلّى الله عليه وآله) سمع قارئاً يقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ لَدَيْنا انكالاً وَطعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً اَليماً﴾ ... فصعق[2]

وروى ابان بن عثمان عن محمد قال: قال لي أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): اقرأ؟ قلت: من اي شيء اقرأ؟ قال: اقرأ من السورة السابعة.

قال فجعلت التمسها فقال: (اقرأ سورة يونس).

فقرات حتى انتهيت الى: ﴿لِلَّذِينَ أحسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ ولا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾[3].

ثم قال: حسبك قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) اني لاعجب كيف لا

(١) هود ١١/١١٤ و١١٥.

(٢) مجمع البيان ٥/٣٨٠.

(٣) يونس ١٠/٢٦.

اشيب اذا قرأت القرآن)[١].

وعن عبيد الله بن موسى قال: كنت أقرأ على علي بن صالح فلما بلغت قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً* فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾[٢]... سقط اخوه الحسن بن صالح يخور كما يخور الثور، فقام اليه علّي فرفعه ومسح وجهه ورش عليه واسنده[٣].

مفاتيح الدخول الى (رحاب القرآن)

للدخول في دائرة نفوذ القرآن مفاتيح اذا مكن الله ـ تعالى ـ الانسان منها، واحسن الانسان استعمالها فانه سوف يتمكن من الدخول في هذه الدائرة المباركة، وهي دائرة نفوذ القرآن، والعيش في رحاب القرآن، والارتواء من نميره العذب. ونذكر في هذه الدراسة جملة من هذه المفاتيح.

١ـ التأهيل لقراءة القرآن بالطهور:

ان للطهـور (الوضوء) تأثيراً على نفس القارىء في قراءة القرآن وتناول معانيه ومعارفه.

وقد روى عن الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام: (لا يقرأ العبد القرآن اذا كان على غير طهور حتى يتطهر)[٤].

(١) تفسير العياشي ١١٩/٢ ح ١ والمستدرك الطبعة الثانية ٢٣٨/٤ ح ٢ و بحار الانوار ٢١٤/٩٢ الا ان الرواية في البحار عن ابي جعفر الباقر عليه السلام.

(٢) مريم ٨٣/١٩ ـ ٨٤.

(٣) الكنى والالقاب للشيخ عباس القمي ١٦٤/١ و كان الحسن بن صالح و علي بن صالح من خيار علماء الشيعه، و كان الحسن متوارياً من خوف المهدي العباسي حتى مات متخفياً بعد وفاة عيسى بن زيد الشهيد رحمها الله... قال وكيع و كان الحسن وعلي ابنا صالح وامّها قد جزأ والليل ثلاثة اجزاء. فكل واحد يقوم ثلثاً فماتت امهما فاقتسما الليل بينهما، ثم مات علّي فقام الحسن الليل كله.(الكنى والالقاب ١٦٤/١).

(٤) الخصال للشيخ الصدوق (في حديث الاربعمائه). ١٦٤/٢.

كما روي عن الامام ـ عليه السلام ـ: (لقارىء القرآن بكل حرف يقرؤه في الصلاة قائماً ماة حسنة وقاعدا خمسون حسنة ومتطهرا في غير صلاة خمس وعشرون حسنة وغير متطهر عشر حسنات)(١).

وليس من ريب ان ارتفاع وهبوط درجة حسنات القارىء لكتاب الله يرتبط ارتباطا مباشرا بدرجة تفاعل ألقارىء مع كتاب الله، وانفتاحه القلبي والعقلي على كتاب الله.

وهذا الانفتاح يكون في اعلى درجاته عندما يقرأ الانسان القرآن وهو قائم بين يدي الله للصلاة، ودون ذلك اذا كان يقرأ القرآن وهو جالس بين يدي الله في الصلاة، ودون ذلك اذا كان جالسا للتلاوة مع الطهور في غير الصلاة، ودون ذلك ان يقرأ القرآن في غير صلاة ولا طهور.

وقد ورد في النصوص الاسلامية التأكيد على البقاء على الطهارة في كل الحالات.

ففي رواية انس عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (وان استطعت ان تكون بالليل والنهار على طهارة فافعل)(٢).

ومهما يكن من امر فان للطهارة ـ من دون ريب ـ تأثيراً على نفس الانسان وقلبه في الانفتاح على كتاب الله وهدى الله ونوره وليس بامكاننا ان نشرح طبيعة هذه العلاقة بين الطهارة وانفتاح القلب ولكن النصوص الاسلامية تشير الى ذلك بصورة واضحة.

٢ـ (حضور القلب) وتجريد النفس عن الشواغل:

ان الذي يسمع القرآن انما يستمع الى كلام الله وندائه وهتافه، فاذا وعى

(١) عدة الداعي ص ٢١٢.

(٢) وسائل الشيعه ١/٢٦٨ و ٢٦٩ عن امالي المفيد ص ٣٨.

الانسان حقيقة الموقف فلا يمكن ان يتوزع قلبه على مسائل اخرى غير كلام الله ولا يمكن ان يشغله شاغل عن خطاب الله وندائه وهتافه. وانما يتوزع القلب على شؤون مختلفة من الحياة حيث لا يعي الانسان حقيقة قراءة القرآن وعيا كاملا، ولو ان الانسان وعى حقيقة ما يتلو من كتاب الله وخطابه وندائه وهتافه وعنايته الكريمة بعباده في هذا القرآن وذكره تعالى لهم في كتابه لما شغله شاغل عن كتاب الله.

وقد سُئِلَ احد الصالحين: اذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء؟ فقال: او شيء احب اليّ من القرآن احدث به نفسي، وكان بعضهم اذا قرأ السورة ليس فيها نفسه اعادها.

فمسألة حضور القلب في قراءة القرآن وكذلك في الصلاة، وتجريد النفس حين قراءة القرآن وحين الصلاة عن كل الشواغل التي تتوزع نفس الانسان من اهم المسائل الروحية التي تهم قراء القرآن والمصلين ... ذلك ان روح الصلاة والقراءة بحضور القلب وانصراف النفس اليهما، فاذا تجردت الصلاة والقراءة من حضور القلب فلا يبقى منهما إلاّ صورة فارغة عن المحتوى، وإلاّ قشور من دون لُباب.

٣ـ الخروج من دائرة نفوذ الشيطان والهوى:

لكي يدخل الانسان في دائرة نفوذ القرآن لا بد ان يخرج من دائرة نفوذ الشيطان والهوى، فان هاتين الدائرتين موقعين مختلفين ومتعاكسين في حياة الانسان، فاذا كان الانسان في احداهما فلا يمكن ان يكون في الأُخرى. ولا بد لكي يدخل في دائرة نفوذ القرآن ان يخرج من دائرة نفوذ الشيطان والهوى، ولكي يدخل في المجال القرآني لا بد ان يخرج من المجال الشيطاني.

ولكل من هاتين الدائرتين فعل وجاذبية ونفوذ معاكس للآخر كما ذكرنا.

ولذلك فقد امرنا الله ـ تعالى ـ ان نعوذ بالله كلما قرأنا القرآن: ﴿فَاذا قَرَأْتَ الْقُرانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ﴾[1].

(١) النّحل ١٦/٩٨.

والاستعـاذة هي الخروج من دائرة نفوذ وجاذبية الشيطان والهوى ـ وانما نقرن الهوى بالشيطان لان الشيطان يعمل في دائرة الهوى دائما ـ.

والاستعاذة ليست (قولا) ولا من مقولة القول، وانما هي (فعل) ومن مقولة الفعل، وكلمة (اعوذ بالله من الشيطان) ليس إلّا ابرازا وتعبيرا عن هذا الفعل.

فاذا هجم سبع مفترس على انسان في واد وهو على مقربة من قلعة حصينة يمكنه ان يدخلها ويلجأ اليها ويحمي بها نفسه، واذا لم يفعل وانما استعاذ بها بالقول فقط من الحيوان المفترس، فان هذا القول لا يحميه من سوء أو اذى، والاستعاذة الحقيقية ان يدخل القلعة ويغلق ابوابها ويحتمي بها من الحيوان المفترس الذي يريد ان يفترسه.

وهذا الفعل يرتكب من جزئين (فرار من الشيطان) و(لجوءالى الله)، وهما يشكلان وجهي قضية واحدة، في الوجه الأول ـ الفرار ـ يقول تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1].

وهذا هو الفرار من الشيطان الى الله، وفي الوجه الثاني ـ اللجوء الى الله ـ يقول تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾[2].

ولا ينفـع الفـرار من الشيطان اذا لم يقترن الفرار باللجوء الى الله، فان الانسان اذا لم يلجأ الى الله ولم يستعذ به تعالى في فراره من الشيطان فان الشيطان يدركـه ويستعيده ويجره اليه من جديد، فاذا عاذ الانسان بالله ولجا اليه تعالى فان الشيطان لا يتمكن من استعادته واجتذابه الى دائرته من جديد، فقد عاد الى معاذ منيع، فان معنى الاستعاذة هو طلب اللجوء والحماية من الله تعالى، فاذا كان الانسان صادقـا في طلبه من الله فلا شك ان الله تعالى يمنحه اللجوء والحماية، واذا منح الله ـ تعـالى ـ عبـده اللجوء بجنابه والاحتماء بعزته وسلطانه فان الشيطان يعجز عن

(١) الذّاريات ٥١/٥٠.

(٢) الاعراف ٧/٢٠٠ و فصّلت ٤١/٣٦.

استعادة السيطرة والسلطان عليه وجذبه واحتوائه والصلاة والقراءة تعني حضوره بين يدي الله وبمحضر الله ـ تعالى ـ وحضور الله تعالى عنده... وان لم يتمكن من الاول فلا بد من الاحساس بالثاني. على كل حال لا بد ان يشعر اولاً بحضوره هو بين يدي الله ـ تعالى ـ فتمتلأ نفسه بالاحساس بجلال الله وجماله وعظمته سبحانه، وهذا ما لا يمكن في حالة الغفلة وانشغال النفس بالشواغل الكثيرة الصغيرة التي تلم بالنفس من هنا وهناك، وتستهلك النفس ومشاعر الانسان فلا يستطيع الانسان ان ينصرف الى الله تعالى في حين القراءة والصلاة أو العبادات الاخرى التي تتطلب مثل هذا الانصراف كالحج.

- اما في حالات الغفلة والنسيان والانشغال بالشواغل الاخرى فان الانسان يأتي بالعبادة وهو غائب عن الله تعالى، ولا يستشعر الحضور بين يدي الله في نفسه وعقله وقلبه، فتكون العبادة فارغة عن محتواها الحقيقي.

واذا لم يتمكن من هذا الاحساس يتنزل الى الدرجة الثانية وهو الاحساس بحضور الله تعالى عنده، وهو ـ عز شأنه ـ حاضر في كل مكان، وكل مكان في هذا الكون هو محضر الله تعالى، ولا يغيب سبحانه عن مكان، وهو المحيط بكل مكان وزمان. إلّا ان الاحساس بحضور الله تعالى شيء اخر لا بد ان يسعى الانسان في صلاتـه وقـراءته ليستشعر به، وهذا الاحساس درجة نازلة بالنسبة الى الاحساس الاول، وقد يكون هذا المعنى هو المقصود في الرواية النبوية المعروفة:

«اعبد الله كأنك تراه وان لم تكن تراه فإنه يراك».

وكأن الرواية تقرر ان الاحساس الاول الذي يجب ان يتملك الانسان في حالة القراءة والصلاة هو الاحساس بجلال الله وجماله (: كانك تراه)، فلا يبقى في نفسه شاغل يشغله عن الله، وينصرف بكل قلبه ومشاعره الى رؤية جلال الله وجماله، وهذا هو معنى حضور العبد بين يدي الله وحضور القلب، فان لم يمكن ذلك فلا أقل من الاحساس بحضور الله تعالى، وهذا الاحساس الثاني من لوازم ومتطلبات الايمان

بالله، فلا بد ان يشعر ان الله حاضر في كل مكان وحاضر عنده ومحيط به وبكل شيء، ولا تخفى عنه خافية.

﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّموات وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وجَهْرَكُمْ ويَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ﴾[١].

﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرانٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاّ كُنّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إذْ تُفيضُونَ فيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إلاّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾[٢].

وهذا هو الاحساس الثاني (: وان لم تكن تراه فانه يراك)، فاذا كان الاحساس الأول لا يتأتى للانسان في قراءته وصلاته فلا بد من ان يتأتى له الاحساس الثاني، ويشعر بحضور الله تعالى واحاطته به، وانه بحضور الله ـ عز وجل ـ لا يخفى من امره على الله شيء.

ومن دون هذا الاحساس وذاك فان العبادة تكون عبادة غيابية، وابتلاء الانسان في القراءة والصلاة بهذا الغياب والشرود النفسي كثير، ولا يتم للانسان هذا الاحساس المزدوج بحضوره عند الله إلاّ بالسعي في تفريغ القلب في ساعات القراءة والصلاة عن غير الله.

ويتم للانسان هذا الامر الهام بمحاولة استشعار جلال الله وجماله وصفاته واسمائه الحسنى، واستشعار الوقوف بين يدي الله ـ تعالى ـ وخطابه وهتافه وندائه لعباده ـ اولاً ـ، وبالتكرار والتأمل والمحاولة والسعي لفهم ايات الله، واستحضار معانيها وتكريسها في النفس وتعميق الاحساس بها ـ ثانياً ـ.

وكلما تتكرر المحاولة والسعي من الانسان يرتفع الخط البياني للاحساس بحضور الله تعالى ومثول العبد بين يديه ـ عز شأنه ـ، كما ينزل الخط البياني للجهد

(١) الانعام ٦/٣.
(٢) يونس ١٠/٦١.

والمعاناة التي تتطلبها هذه المحاولة حتى يبلغ الانسان مرحلة من الوعي لحضور الله ـ تعالى ـ لا يحتاج فيها الى كثير من معاناة وجهد . وهذه موهبة يمنحها الله ـ تعالى ـ لمن يحب من عباده ممن يجاهد ويسعى لتحقيق هذه الحالة في نفسه ﴿وَالَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[١].

٤ـ الانصات للقرآن:

ومن مفاتيح القرآن الانصات للقرآن، وتوقير القرآن بالانصات له والاستماع اليه.

يقول تعالى: ﴿وَإِذا قُرِىءَ الْقُرانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢] وفي كلمة «لعلّكم ترحمون» دلالة لا تخفى على اهلها فيما ذكرنا من ان الانصات مفتاح من مفاتيح فهم القرآن ووعيه.

وقد روي عن امير المومنين عليه السلام: (من استمع قارئا يقرأها «اي سورة الحمد» كان له قدر ثلث ما للقارىء فليستكثر احدكم من هذا الخير المعروض له فانه غنيمة فلا تذهبن أوانه فتبقى في قلوبكم حسرة)[٣].

وعن الامام الصادق عليه السلام: (من استمع حرفا من كتاب الله من غير قراءة كتب الله له حسنة ومحا عنه سيئة ورفع له درجة)[٤].

وقد وردت جملة من الروايات في وجوب الانصات لقراءة القرآن كما قد يستظهر من الآية الكريمة.

وروى عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ: «يجب الانصات للقرآن في

(١) العنكبوت ٢٩/٦٩.
(٢) الاعراف ٧/٢٠٤.
(٣) تفسير الامام العسكري عنه من المستدرك ١/٢٩٣ الطبعة الاولى.
(٤) مستدرك الوسائل ١/٢٩٥ الطبعة الاولى.

الصلاة وغيرها واذا قرأ عندك القرآن وجب عليك الانصات والاستماع»[١].

وعن معاوية بن وهب عن الامام الصادق عليه السلام: «قال سألته عن الرجل يؤم القوم وانت لا ترضى به في صلاة يجهر فيها بالقراءة فقال: اذا سمعت كتاب الله يتلى فانصت له. فقلت انه يشهد علي بالشرك. فقال: ان عصى الله فاطع الله فرددت عليه فأبى ان يرخص لي.

قال: قلت اذن اصلي في بيتي ثم اخرج اليه؟ فقال: انت وذلك وقال: ان عليا ـ عليه السلام ـ كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكواء (من الخوارج المعروفين في عدائه للامام عليه السلام) وهو خلفه ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إليك وإلى الذينَ مِنْ قَبلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرينَ﴾[٢] فانصت علي عليه السلام تعظيما للقرآن حتى فرغ من الآية ثم عاد في قراءته ثم اعاد ابن الكواء الآية فانصت علي عليه السلام أيضاً ثم قرأ فاعاد ابن الكواء فانصت علي عليه السلام ثم قال: ﴿فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذينَ لا يُوقِنُونَ﴾[٣] ثم اتم السورة وركع»[٤].

٥ـ الدعاء والطلب:

وهو من أهم هذه المفاتيح فنحن لا نستطيع ان ننال القرآن وندخل في رحابه بجهدنا وامكاناتنا الشخصية، فلا بد ان نستعين بالله تعالى في ذلك ونطلب منه عز وجل ان يؤهلنا لبلوغ افق القرآن، وللعيش في رحابه والارتواء من نميره.

و (الدعاء) من أهم ابواب الرزق. وفهم القرآن ووعيه من أفضل ما يرزق الله عباده من الرزق، وبالدعاء نتوصل الى هذه الغاية. فمن قرع باب رحمة الله تعالى

(١) بحار الانوار ٩٢/٢٢٠.

(٢) الزمّر ٣٩/٦٥.

(٣) الروم ٣٠/٦٠.

(٤) التهذيب ٢/٢٥٥ والكنى والالقاب ١/٣٨٩ والمحجة البيضاء ٢/٢٣٣ ـ ٢٣٤.

فتحه الله له.

عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «من تمنى شيئا وهو لله ـ عز وجل ـ رضى لم يخرج من الدنيا حتى يعطاه»[١].

وعنه (صلّى الله عليه وآله) اذا اراد الله ان يستجيب لعبد اذن له في الدعاء[٢].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «من قرع باب الله سبحانه فتح له»[٣].

وليس من الممكن ان يدعو الله تعالى عباده الى الدعاء ويعدهم الاستجابة فيخزن عليهم الاستجابة ﴿أدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٤].

وعن رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «ما كان الله ليفتح لعبد الدعاء فينغلق عنه باب الاجابة. الله اكرم من ذلك»[٥].

عن الامام الحسن بن علي عليهما السلام: «ما فتح الله على احد باب مسألة فخزن عنه باب الاجابة»[٦].

وليس من أمر في دائرة رحمة الله الواسعة لا يمكن ان يناله الانسان بالدعاء.

عن الامام الصادق (عليه السلام): «لا تقل ان الامر قد فرغ منه ان عند الله منزلة لا تنال إلّا بمسألة»[٧].

وعن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ ايضا: «اذع الله عز وجل ولا تقل ان الامر قد فرغ منه».

(١) بحار الانوار ٣٦٥/٩٣.
(٢) كنز العمال: ح ٣١٥٦.
(٣) غرر الحكم.
(٤) كنز العمال: ح ٣١٥٥.
(٥) بحار الانوار: ١١٣/٧٨.
(٦) بحار الانوار ٢٢٠/٩٢.
(٧) الكافي: ٤٦٦/٢.

قال زرارة: انما يعني لا يمنعك ايمانك بالقضاء والقدر ان تبالغ في الدعاء وتجتهد فيه[١].

جمل من الأدعية المأثورة في القرآن:

ونحن نذكر هنا جملةً من الادعية المأثورة عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ واهل بيته ـ عليهم السلام ـ عند تلاوة القرآن وفي ختام التلاوة. وقراءة هذه الادعية واستعـراضها ينفع في معرفة المسائل التي كانت موضع اهتمام وعناية اهل البيت ـ عليهم السلام ـ في تلاوة القرآن.

واليك طرفا من هذه الادعية:

كان الامام ابو عبد الله الصادق جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ يدعو عند قراءة كتاب الله فيقول: اللّهم فحبب الينا تلاوته وحفظ اياته، وايمانا بمتشابهه، وعملا بمحكمه، وسببا في تأويله وهدى في تدبيره، وبصيرة بنوره.

اللّهم و كما انـزلته شفاء لاوليائك وشقاءا على اعدائك، وعمى على اهل معصيتـك، ونـورا لاهل طاعتك، اللّهم فاجعلهه لنا حصنا من عذابك، وحرزا من غضبك، وحاجزا عن معصيتك، وعصمة من سخطك، ودليلاً على طاعتك، يوم نلقاك نستضيء به في خلقك ونجوز به على صراطك ونهتدي به الى جنتك.

اللّهم انا نعوذ بك من الشقوة في حمله، والعمى عن عمله، والجور عن حكمه، والعلو عن قصده، والتقصير دون حقه.

واليك طرفا من هذه الادعية:

اللهم احمـل عنا ثقله، واوجب لنا اجره، واوزعنا شكره، واجعلنا نراعيه ونحفظه، اللهم اجعلنا نتبع حلاله، ونجتنب حرامه، ونقيم حدوده، ونؤدي فرائضه،

(١) الكافي: ٢/٤٦٧.

اللهم ارزقنا حلاوة في تلاوته، ونشاطا في قيامه، ووجلا في ترتيله، وقوة في استعماله، في اناء الليل (واطراف) النهار.

اللهم واشفنا من النوم باليسير، وايقظنا في ساعة الليل من رقاد الراقدين، ونبهنا عند الاحايين، التي تستوجب فيها الدعاء من سنة الوسنانين.

اللهم اجعل قلوبنا ذكاءا عند عجائبه التي لا تنقضي، ولذاذة عند ترديده، وعبرة عند ترجيعه، ونفعا بينا عند استفهامه.

اللهم انا نعوذ بك من تخلفه في قلوبنا، وتوسده عند رقادنا، ونبذه وراء ظهورنا، ونعوذ بك من قساوة قلوبنا لما به وعظتنا.

اللهم انفعنا فيه بما صرفت فيه من الايات، وذكرنا بما ضربت لنا به من المثلات (الامثال) وكفر عنا بتأويله السيئات، وضاعف لنا به في الحسنات، وارفعنا به ثوابا في الدرجات، ولقنا به البشرى بعد الممات.

اللهم اجعله لنا زادا توقينا به في الموقف بين يديك، وطريقا واضحا نسلكه به اليك، وعلما نافعا نشكر به نعمائك وتخشعا صادقا نسبح به اسماءك، اللهم اجعله لنا وليا يثبتنا من الزلل ودليلا يهدينا لصالح العمل، وعونا هاديا يقومنا من الميل حتى يبلغ بنا افضل الآمل[١].

من دعاء الامام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في الصحيفة السجادية عند ختم القرآن:ـ

اللهم فكما جعلت قلوبنا له حملة، وعرفتنا برحمتك شرفه وفضله، فصل على محمد الخطيب به وعلى اله الخزان له، واجعلنا ممن يعترف بانه من عندك حتى لا يعارضنا الشك في تصديقه، ولا يختلجنا الزيغ عن قصد طريقه.

اللهم صل على محمد وآله، واجعلنا ممن يعتصم بحبله، ويأوي من المتشابهات

(١) الكافي: ج ٢ ص ٤١٧.

الى حر ز معقله، ويسكن في ظل جناحه، ويهتدي بضوء صباحه، ويقتدي بتبلج اسفاره، ويستصبح بمصباحه ولا يلتمس الهدى في غيره.

اللهم وكما نصبت به محمدا علما للدلالة عليك وانهجت باله سبل الرضا اليك، فصل على محمد وآله، واجعل القرآن وسيلة لنا الى اشرف منازل الكرامة وسلما نعرج به الى محل السلامة، وسببا نجري به النجاة في عرصة القيامة، وذريعة نقدم بها على نعيم دار المقامة.

اللهم صل على محمد وآله، واحطط بالقرآن عنا ثقل الاوزار، وهب لنا حسن شمائل الابرار واقف بنا اثار الذين قاموا لك به اناء الليل واطراف النهار، حتى تظهرنا من كل دنس بتطهيره وتقفوا بنا اثار الذين استضاءوا بنوره ولم يلههم الامل عن العمل فيقطعهم بخدع غروره.

اللهم صل على محمد واله وجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مؤنسا، ومن نزعات الشيطان وخطرات الوساوس حارسا، ولاقدامنا عن نقلها الى المعاصي حابسا، ولالسنتنا عن الخوض في الباطل من غير ما افة مخرسا، ولجوارحنا عن اقتراف الآثام زاجرا، ولما طوت الغفلة عنا من تصفح الاعتبار ناشرا، حتى توصل الى قلوبنا فهم عجائبه، وزواجر امثاله التي ضعفت الجبال الرواسي على صلابتها عن احتماله.

اللهم صل على محمّد وآله وادم بالقرآن صلاح ظاهرنا، واحجب به خطرات الوساوس عن صحة ضمائرنا، واغسل به درن قلوبنا، وعلائق اوزارنا. واجمع به منتشر امورنا، وارو به في موقف العرض عليك ضما هواجرنا، واكسنا به حلل الامان يوم الاكبر في نشورنا.

اللهم فصل على محمد وآله واجبر بالقرآن خلتنا من عدم الاملاق وسق الينا به رغد العيش وخصب سعة الارزاق، وجنبنا به الضرائب المذمومة ومداني الاخلاق، واعصمنا به من هوة الكفر ودواعي النفاق، حتى يكون لنا في القيامة الى رضوانك

وجنانك قائدا، ولنا في الدنيا عن سخطك وتعدي حدودك ذائدا، ولما عندك بتحليل حلاله وتحريم حرامه شاهدا[١].

وكان امير المؤمنين عليه السلام اذا ختم القرآن قال:

اللهم اشرح بالقرآن صدري، واستعمل بالقرآن بدني، ونور بالقرآن بصري، واطلق بالقرآن لساني، واعنني عليه ما ابقيتني فانه لا حول ولا قوة إلّا بك[٢].

وكان الدعاء الذي يدعو به الامام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عند الفراغ من القرآن.

اللهم اني قد قرأت ما قضيت من كتابك الذي انزلت به على نبيك الصادق ـ صلّى الله عليه وآله ـ فلك الحمد ربنا. اللهّم اجعلني ممن يحل حلاله ويحرم حرامه ويؤمن بمحكمه ومتشابهه، واجعله لي انسا في قبري، وانسا في حشري، واجعلني ممن ترقيه بكل آية قراها درجة في أعلى عليين[٣].

٦ـ الطلب والمحاولة:

ان الله تعالى جعل رزق العباد مخبؤا في الطلب والمحاولة، والطلب والمحاولة كما الدعاء من ابواب الرزق وقد شاء الله تعالى ان يكون الطلب والجهد الانساني مفتاحا من اهم مفاتيح كنوز رزقه ورحمته تعالى لعباده ولا يقرع احد ابواب رزق الله ورحمته بالجهد والمحاولة والطلب ويلح في الطلب إلّا ويفتح الله تعالى له الباب.

روي عن الامام الصادق ـ عليه السلام ـ: «ليس من باب تقرع إلّا يوشك ان يفتح لصاحبه»[٤].

وفهم كتاب الله ووعيه من الرزق الذي يمنحه الله لعباده، وكنوز المعاني

(١) الصحيفة السجاديه الدعاء رقم ٤٢.

(٢) مصباح المتهجد كما في بحار الانوار ٩٢/٢٠٩.

(٣) الاختصاص ص ٢٤١ و بحار الانوار ٩٢/٢٠٧.

(٤) الكافي: ٢/٤٦٧.

والمعارف في القرآن من الرزق الذي يفتحه الله تعالى على عباده، بالجهد والمحاولة الصادقة والطلب الجاد.

وهذا الرزق له مفتاحان: العقل، والعاطفة وكل منهما باب الى القلب، ومفتاح لفتح مغاليق القلب، وانما يفتح الانسان ابواب قلبه على المعرفة والعلم والنور بواحد من هذين المفتاحين او بهما جميعا.

فمفتاح العقل للقلب في مساحة الطلب والمحاولة هو التدبر والتامل والتكرار، ومفتاح العاطفة للقلب في مجال الطلب والمحاولة هو استثارة النفس والتباكي، والتحزين، والتجاوب مع القرآن، وفيما يلي نتصدى للوقوف عند هذه المفردات واحدة بعد أُخرى بصورة موجزة:

التدبّر والترديد:

من اجل تكريس فهم القرآن وتعميق وعي ايات كتاب الله في النفس امامنا محاولتان مفيدتان احداهما كيفية والأُخرى كمية.

اما المحاولة الكيفية فهي التدبر والتأمل في القران، وهي حاله في القراءة تقابل حاله المرور السريع العابر بايات كتاب الله، يستخدم فيها الإنسان كل قدرته العقليه لاكتشاف الاعماق غير المرئية لآيات الله والقيام بانطباع قوى عن القران.

وهاتان المهمتان: (اكتشاف الاعماق غير المرئيه للقران، وانطباع مفاهيم القران في النفس) تطلبان الانعام والامعان في النظر في القران والتأمل والتدبر. فان ايات القران كما اشرنا من قبل خزائن المعرفه، وكلما انعم الإنسان النظر في القران اكثر وتدبره وتأمله وصل الي اعماق ابعد للقران، واكتشف افاقا اوسع من افاق القران لم يكتشفها من قبل، واستطاع ان يقوم بانطباع اقوى من القران.

وقد روى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «ان اردتم عيش السعداء وموت الشهداء، والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلاله فادرسوا

القران»[١] ودراسة القران هي الامعان في القران والتأمل فيه والتدبر في معانيه، وهي تختلف تماما عن المرور السريع العابر به. والهدى والنجاه وعيش السعداء وموت الشهداء التي اشارت اليها الروايه ليست من قبيل الجزاء الذي يعطيه الله تعالى لمن درس القران، وانما هي من قبيل النتائج المترتبه على دراسة القران وان كان الكل من الله تعالى.

وروي عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام: «الا لاخير في قراءة لاتدبر فيها»[٢] فان الخير الذي يرزق الله عباده من قراءة القران في دراسة القران والتدبر فيه. واختلاف حظوظ الناس من هذا الخير يرجع الى اختلافهم في دراسته والتدبر فيه، واكتشاف اعماقه وافاقه.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «ان هذاالقران فيه منار الهدى ومصابيح الدجى فليجل جال بصره، ويفتح للضياء نظره فان التفكر حياةقلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور»[٣] اجل ان القران منار ومصباح فاذافتح الإنسان بصره لضيائه جلابه بصره والا فان الله يحجبه عن ضياء القران، وبقدرما يفتح الإنسان بصره يرزقه الله من ضياء القران (فان التفكر حياة قلب البصير) ان قلب البصير يعيش ويحيى بالتفكر، وحياته تفكره، ومن دونه يموت القلب ، كما ان حياة الإنسان بالتنفس ومن دونه يموت الإنسان.

وهذا هو الجانب الكيفي في تكريس وعي القران في النفس ، اما الجانب الكمي فهو في تكرار ايات القران مرة بعد اخرى، فان لكل قراء ة طعم ونكهة، وفي كل مرة يجد الإنسان من طعم القراءة، ونكهتها مالم يجدها من قبل، وكلما تكررالقران اكثر من دي قبل يكتشف الإنسان في كل مرة من اعماق هذا القران وآفاقه مالم

(١) بحار الانوار: ٩٢/١٩ و قريب منه في تحف العقول: ٢٠٤.
(٢) معاني الاخبار:٦٧.
(٣) الكافي: ٢/٤٣٨.

يكتشفها مُن قبل. ان امر هذا القران عجيب فكلما كرره الانسان ازداد اليه شوقا وفتح القران له كنوزه اكثر وانطبع في نفسه انطباعا اقوى.

وقد روي ان رسول الله صلّى الله عليه وآله كرر ذات يوم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ عشرين مرة[١].

وعن ابي ذر(رضوان الله عليه) قال قام بنا رسول الله(ص) فقام ليلة بآية يرددها ﴿وَإِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ﴾[٢].

والآية هي ﴿ وَإِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣]، وهي من خطاب عيسى بن مريم عليه السلام لله تعالى يحكيه القران، وكان عيسى بن مريم عليه السلام يقول مخاطبا الله تعالى ان تريد عذابهم فإنهم عبادك وانت اولى بهم تملك كل امرهم وامرهم اليك.

وفي هذاالخطاب من الاستعطاف لله تعالى والاذعان له بالملك والسلطان والامر، ما يستوقف الإنسان طويلا وما يخشع له القلب.وفي كل مرة يقرأالإنسان هذه الآية الكريمه يشعر من وجوه الاذعان والاعتراف لله بالربوبيه والسلطان والملك، واستعطافه سبحانه وتعالى والتذلل بين يديه ما لم يجده من قبل.

وقام سعيد بن جبير(رحمه الله) ليلة يردد هذه الآية:﴿وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٤] وانها لاية رهيبه تملأ النفوس المؤمنة رهبة وخوفا من ذلك الخطاب الرهيب الذى يأمر يوم القيامة بتمييز المجرمين عن غيرهم، فيتميز المجرمون عن غيرهم في لحظة واحدة من بين ذلك الجمع العظيم فينقادون الى جهنم وبئس المصير.

وكلما يكرر الانسان هذه الآية العظيمه تملأ نفسه اكثر من ذي رهبة وخشوعا وتملك الرهبة عليه افاق نفسه اكثر من ذي قبل.

(١) المحجة البيضاء: ٢/٢٣٧.

(٢) اخرجه ابن ماجه حديث رقم ١٣٥٠.

(٣) المائده ٥/١١٨.

(٤) (٢) (٣) المحجة البيضاء:٢/٢٣٨.

وقام احدهم للصلاه في مقام ابراهيم ليلًا فاما بلغ قوله تعالى ﴿ام حسب الذين اجترحواالسيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ فاخذ يكررها ويبكي حتى اصبح الصباح وكان فضيل اذا بلغ هذه الآية يكررها كثيراً ويقول: ليت فضيل يعلم من اي الطائفتين هو؟.

وقام احد الصالحين في سورة «هود» ستة اشهر لايفارقها[١] يعيدها ويكررها ويتأملها ويتدبر فيها ....وهذه هي السورة التي قال عنها رسول الله صلّى الله عليه وآله «شيبتني سورة هود» ولئن اراد الانسان ان يقف عند مواقف ومنعطفات وافاق واعماق هذه السورة المباركة، ومافيها من معاناة الانبياء مع اممهم وتعنت الناس في مقابلهم لما استطاع ان يفارق هذه السورة سريعا.

اننا يجب ان نقرأ القران كما نشرب الماء ونرتوى منه فلانترك الآية والسورة من القران حتى نرتوي منها، وعند ما نرتوي نتركها الى آية اخرى والانسان من نفسه على بصيرة حتى ترتوي ولاتقوم عن القران وهي عطشى.

التجاوب مع القران:

ومن مفاتيح القرآنالتجاوب معه عند التلاوه، والقراءة الصحيحه للقران هي التي تشد القارىء الى القران وتأخذ منه وتعطيه، وهذه حالة التجاوب مع القران حيث يستشعر القارىء ان الله سبحانه وتعالى يعنيه بخطابه وندائه واستفهامه وتوبيخه وانكاره وترغيبه وترهيبه وتبصيره وتحريكه ...فيتجاوب مع القران في كل ذلك، ويلبي دعوة الله و ندائه وهتافه ويعبر عن مشاعره واحاسيسه في كل حالة بما يناسب تلك الحالة.

يقول حذيفة: صليت مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فابتدأ سورة البقرة وكان لايمر بآية عذاب الا استعاذ ولابآية رحمة الاسأل، ولابآية تنزيه الّا سبّح، فإذا

(١) المهجة البيضاء: ٢/٢٣٨.

فرغ قال ما كان صلوات الله عليه عند ختم القران: «اللهم ارحمني بالقران واجعله الي اماما و نورا وهدى ورحمة. اللّهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت ، وارزقني تلاوته اناء الليل والنهار، واجعله حجة لي يا رب العالمين»[١].

وروي عن الصادق عليه السلام انه اذامر في القران بـ (يا ايها الناس) قال: لبيك ربنا ، واذا قرأ: (الله خير امّا يشركون) قال: الله خير، الله اكبر، واذا قرأ: (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) قال: كذب العادلون بالله، واذا قرأ (الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك) كبّر ثلاثا، واذا فرغ من الاخلاص، قال: كذلك الله ربّي[٢] ويستحب ان يقول القارىء عند قراءة قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[٣]: الله ربنا، وان يقول عند قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾[٤]: سبحانك بلى، وعند قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾[٥]: بل انت الله الخالق، وعند قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[٦]: بل انت الله الزارع، وعند قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾[٧]: بل انت المنشىء، وعند قوله عزوجل: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٨]: لابشيىء من الائك رب اكذب)[٩].

وروى ابن الضحاك قال: كان الرضا عليه السلام في طريق خراسان يكثر بالليل في فراشه من تلاوه القران فاذا مرّ بآيه فيها ذكر جنة او نار بكى وسال الله

(١) المحجة البيضاء ٢٢٧/٢ وروى صدر هذا الحديث احمد و ابو يعلي كما في مجمع الزوائد (نقلا عن هامش المحجة).

(٢) المحجة البيضاء: ٢٢٨/٢.

(٣) الملك ٣٠/٦٧.

(٤) القيامة ٤٠/٧٥.

(٥) الواقعة ٥٩/٥٦.

(٦) الواقعة ٦٤/٥٦.

(٧) الواقعة ٧٢/٥٦.

(٨) الرحمان ١٢/٥٥.

(٩) المحجة البيضاء: ٢٢٩/٢.

الجنه، وتعوذ به من النار[١].

وكان الرضا عليه السلام اذا قرا﴿قُلْ هُوَاللّهُ أَحَدٌ﴾ قال سرا(الله احد) فإذا فرغ منها قال: كذلك الله ربنا وكان اذا قرأ سورة الجحد قال في نفسه سرا ﴿يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ﴾ فاذا فرغ منها قال: (ربي الله وديني الاسلام) ثلاثا وكان اذا قرأ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ قال عند الفراغ منها: سبحانك اللهم وبلى، وكان اذا فرغ من الفاتحة قال: ﴿أَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾، واذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلى﴾ قال سرا: سبحان ربي الاعلى، واذا قرأ ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ امَنُوا﴾: قال لبيك اللهم لبيك[٢].

وروى السيوطي في الدرالمنثورقال كان النبي (صلّى الله عليه وآله) اذا قرأ هذه الاية: ﴿أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍعَلى اَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ قال: سبحانك اللهم و بلى.

وعن البراء بن عازب قال:لما نزلت هذه الاية: ﴿اَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍعَلى اَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾[٣] قال سبحان ربي وبلى.

وعن ابي هريرة ان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان اذا قرأ ﴿أَلَيْس ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى اَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ قال: سبحانك فبلى.

وعن ابي امامة قال: صليت مع رسول الله(صلّى الله عليه وآله) بعد حجته فكان يكثر قراءة لا اقسم بيوم القيامة فاذا قال: ﴿اَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍعَلى اَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ سمعته يقول: بلى، وانا على ذلك من الشاهدين[٤].

وعن علي عليه السلام انه قرأ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلى﴾ فقال سبحان ربي الاعلى وهو في الصلاه، فقيل له: اتزيد في القران؟ قال: لا انما امرنا بشيء فقلته[٥].

وعن ابن عباس: قال: كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) اذا تلا هذه الاية: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوّاهافَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ وقف، ثم قال:(اللّهم آت نفسي

(١) و (٢)عيون الاخبار ٢/١٨٣.

(٣) القيامة ٧٥/٤٠.

(٤) الدر المنثور: ٦/٢٩٦.

(٥) الدر المنثور: ٦/٣٣٨.

تقواها، وزكّها انت خير من زكاها انت وليها ومولاها[١].

وعن ابي عبدالله الصادق عليه السلام: «اذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها واسال الله تعالى الجنة، واذا مررت بآية فيها ذكر اهل النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار»[٢].

والاحاديث في هذا الشأن كثيرة لانريد استقصاءها.

التحزين والتباكي:

تحدثنا قريبا عن نزول القران بالحزن والامر بقراءتهبالحزن و(ان القران نزل فاقرأوه بالحزن)[٣].

وتحدثنا عن البكاء عند قراءة القران والحزن والبكاء هما اعلى درجات التفاعل مع القران.

ومفتاح الحزن والبكاء هو التحزين والتباكّي، وهو محاولة الحزن والبكاء.... وهذه المحاولة تؤدي-عند صدق المحاولة- الى الحزن والبكاء.

وقد ورد في النصوص الاسلامية الامر بالتحزين والتباكي عند قراءة القران.

ففي خطبة المتقين لامير المؤمنين عليه السلام في صفة المتقين عند قراءة القران في اناء الليل: «اما الليل فصافّون اقدامهم يرتّلون القرآن ترتيلا يحزنون به انفسهم ويستثيرون دواء دائهم»[٤].

والعلاقه بين التحزين الاستثارة في هذه الفقرة من النص تلفت النظر،وكأن الحزن عند تلاوة آيات القران هو دواء داءْ النفوس والتحزين هو استثارة دواء داء نفوسهم واستخراج هذاالدواء.. ومن العجب ان هذا الدواء كامن فى عمق نفوسهم

(١) الدر المنثور: ٦/٣٥٦.

(٢) الكافي: ٢/٦١٧.

(٣) الكافي: ٢/٦١٤.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٩٣ المعروفة بخطبة المتقين.

وليس ياتيهم من الخارج،وليس على الانسان الان يستثيره ويستخرجه من داخل نفسه ليداوي به ما في نفسه من الادواء.

وروي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم «ان القران نزل بحزن فاذا قراتموه فتحازنوا»[١] والتحازن ليس هو التظاهر بالحزن لغرض التظاهر، وانما هو التظاهر بالحزن لغرض التحزين واثارة الحزن في النفس.

و روى الكليني في الكافي في طريقة التلاوة عن امير المومنين عليه السلام: «بينه تبيانا، ولا تهذه هذ الشعر، ولا تنثره نثر الرمل ولكن افرغ به القلوب القاسية ولا يكون همّ احدكم اخر السوره»[٢].

وقد ورد مثل ذلك في الاحاديث القدسيه فيما خاطب الله تعالى به موسى بن عمران عليه السلام وعيسى بن مريم عليه السلام في طريقة تلاوة التوراة والانجيل.

وروى القطب الراوندي في دعواته عن الصادق عليه السلام : «ان الله تبارك وتعالى اوحى الى موسى (عليه السلام) اذا وقفت بين يدي فقف موقف الذليل الفقير واذا قرأت فاسمعنيها بصوت حزين» ثم قال الصادق (عليه السلام) وكان موسى (أي الامام الكاظم موسى بن جعفر عليهما السلام) اذا قرأ كانت قراءته حزنا وكأنما يخاطب انسانا»[٣].

وهذه الالتفاته في روايه الامام الصادق وتلاوة الامام الكاظم جديره بالاهتمام (وكانما يخاطب انسانا)،فالقراءة الصحيحه للقران هو ان يستحضر الانسان ذكر الله تعالى قلبه ويستشعر حضور الله تعالى حتى كأنه يخاطب انسانا، فتمتلأ نفسه بعظمة الله وجلاله وجماله وصفاته واسمائه الحسنى فيتملكه الخشوع والرهبه والحب لله تعالى.

و روى الصدوق في الامالي عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام: قال :

(١) المحجة البيضاء: ٢/٢٢٦ و رواها ابو نعيم في الحلية.

(٢) الكافي: ٢/٦١٤.

(٣) بحار الانوار ٩٢/١٩١ و مستدرك الوسائل الطبعة الثانية (مؤسّسة آل البيت)٤/٢٧٠ و دعوات الراوندي ص ٣.

كان فيا وعظ الله تبارك و تعالى به عيسى : «يا عيسى شمر فكل ما هوات قريب واقرأ كتابي وانت طاهر واسمعني منك صوتا حزينا»[١].

والصوت الحزين ـ وسيلة من وسائل تحزين النفس فاذا كان الانسان لا يملك الصوت الحزين ولا يقدر فليسمع القرآن من ذي صوت حزين .

واذا كان التحزين مفتاحا للحزن فان التباكي وسيله للبكاء، وقد قلنا من قبل ان البكاء يشكل اعلى درجات التفاعل مع القران والانشداد به والبكاء ذو تاثير عجيب في ازالة الصدأ المتراكم والرين المتحجر على القلوب وان الشهقة من البكاء لتكسير الجليد المتراكم على القلب عبر سنين طويلة وعبر السيئات والذنوب العظيمة وتطهر القلب وتزكيه.

فاذا لم يتسن للانسان البكاءُ وكانت الذنوب والسيئات وشواغل الدنيا قد سلبت من القلوب الرقة فالتباكي هو الوسيلة التي تفضي الى البكاء....وليس المقصود بالتباكي التظاهر بالبكاء فان التظاهر بالبكاء لا يغني الانسان شيئا اذا لم يكن اداة و وسيلة لاثارة النفس وتحزينها وتفجيرها بالبكاء.

وان النفس لتتفجـر بالبكاء احيا نا كما تتفجر الارض عن الماء، كذلك البكاء قد يكون انفجارا في داخل النفس واسعا وكبيرا يزيل عنها الصدأ والرين المتراكم على القلب ويستخرج منها ما اودع الله تعالى فيها من هدى و ما الهمها من التقوى.

والتباكي هو اداة لهذا الانفجار.

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «اتلوا القران وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا»[٢] وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ان القران نزل بالحزن فاذا

(١) امالي الصدوق:ص ٤١٨ و رواه الكليني في الكافي: ١٣٥/٨ والمستدرك:(طبعة ال البيت) ٢١٧/٤.

(٢) المحجة البيضاء: ٢٢٥/٢ واخرجه ابن ماجة في السنن حديث رقم ٤١٩٦ كما في الهامش دون قوله (اتلوا القرآن).

قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا»[١].

وعن الامام الصادق عليه السلام: «ان رسول الله صلّى الله عليه وآله اتى شبابا من الانصار، فقال: اني أريد ان اقرأ عليكم فمن بكى فله الجنة. فقرأ آخر الزّمر: ﴿وسيقَ الَّذينَ كَفَروُا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾[٢] الى آخر السورة فبكى القوم جميعا الا شابا فقال: يا رسول الله قد تباكيت فما قطرت عيني.

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: اني معيد عليكم فمن تباكى فله الجنة.

فاعاد صلّى الله عليه وآله وسلّم عليهم فبكى القوم و تباكى الشاب»[٣].

وقال ابو سليمان الداراني : ما رأيت احداً ظهر الخوف على وجهه كالحسن بن صالح قام ليله بعمَّ يتساءلون فغشى عليه فلم يختمها الى الفجر[٤].

اقرع به القلوب القاسية: ارايت كيف يكون قرع الحديد كذلك ينبغي ان نقرع بالقران القلوب القاسية المتحجرة في زجره ونهيه وتهديده وتوبيخه واستنكاره وتخويفه وترهيبه، وان اسلوب القارىء وطريقته في القراءة كفيل بذلك الى درجة كبيرة.

ان القراءة ينبغي ان تجسّد حالة الخشوع و الرهبة و الخوف و الحزن و هذه هي الطريقة الصحيحة للقراءة والمعبّرة عن القران والاحاديث الواردة في تحسين القراءة تعني هذا الامر بالذات.

فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم

«(ان احسن الناس صوتا بالقران الذي اذا سمعته يقرأ اريت انه يخشى الله عزوجل»[٥].

(١) جامع الاخبار: ص ٥٧.

(٢) الزمّر ٧١/٣٩.

(٣) المجالس : ص ٣٢٥.

(٤) الكنى والالقاب ١٦٤/١ ط النجف.

(٥) رواه الدارمي في ٤٧١/٢ من سننه.

وعنه صلّى الله عليه وآله ايضا «لا يسمع القران من احد اشهى منه ممن يخشى الله تعالى»[١].

وروي عن امير المؤمنين عليه السلام في طريقة واسلوب قراءة القران «بيّنه تبيانـا، ولا تهذّه هذّ الشعـر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن اقرع (اقْرِعْ) به القلوب القاسية، ولا يكون هم احدكم آخر السورة»[٢].

والقراءة الصحيحة هي التي تكمل دور القران، وتعين القارىء والمستمع على تلقي معاني القران والتأثر والانطباع به والتفاعل معه.

وقد روي انه صلّى الله عليه وآله استمع ذات ليلة الى عبدالله بن مسعود فقال: «من اراد ان يسمع القران غضا كما نزل فليقرأه علي ابن ام عبد»[٣].

وكـان علي بن الحسين عليهما السلام احسن الناس صوتا بالقران، وكان السقاؤون يمرون عليه فيقفون ببابه يستمعون قراءته[٤].

قراءة القرآن في الصلاة: قراءة القران في الصلاة عند القيام بين يدي الله، ولا سيما في اناء الليل، حيث يفرغ القلب لله تعالى لها تأثير كبير في تكريس حالة الخشوع و الحزن و الوعي عند تلاوة القران، و قد وردت نصوص في التأكيد على ذلك.

عن علي عليه السلام: «من قرأ القران و هو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة و من قراه و هو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة...و ما كان من القيام بالليل فهو افضل لانه افرغ للقلب»[٥].

(١) المحجة البيضاء:٢/٢٤٦ و رواه الحاكم في المستدرك في كتاب فضائل القرآن كما في الهامش من المحجة.

(٢) تفسير علي بن ابراهيم: ٢/٣٩٢ و الكافي:٢/٦١٤ و مستدرك الوسائل(ط/ ال البيت) ٤/٢٧٠ و بحار الانوار:٩٢/٢١٠.

(٣) اخرجه ابن ماجه في السنن تحت رقم ١٣٨.

(٤) الكافي:٢/٦١٤.

(٥) المحجة البيضاء:٢/٢٢٠ و روى شطرا منها الكليني يرحمه الله في الكافي عن ابي جعفر الباقر عليه السلام ٢/٦١١.

والتعليل لارتفاع درجة الثواب مذكور في النص (لانه افرغ للقلب) و الثواب يرتبط ارتباطا سببيا بهذا التعليل، و كان الثواب هو النتيجة الطبيعيه لتفرغ القلب لاستقبال القران و التفاعل معه.

و روى الشيخ الكليني عن الامام الحسين عليه السلام: «من قرأ آية من كتاب الله في صلاته قائما يكتب له بكل حرف ماة حسنة، فان قراها في غير صلاة كتب له بكل حرف عشر حسنات، فان استمع القران كتب له بكل حرف حسنة، فان ختم القران ليلا صلت عليه الملائكه حتى يصبح وان ختم نهارا صلت عليه الحفظه حتى يمسي، و كانت له دعوة مجابة، و كان خيرا له مما بين السماء و الارض.

و قلت: هذا لمن قرأ القران فمن لم يقرأ؟

قال يا اخا بني اسد ان الله جواد كريم اذا قرأ ما معه اعطاه الله ذلك»[١].

قراءة القران في اناء الليل:

وفي اناء الليل يفرغ القلب لله تعالى اكثر من أي وقت آخر، و يتخلص القلب من الكثير من الشواغل التي تلم بالقلب. و لذلك فان لقراءة القران في اناء الليل وفي السر وقع اقوى على نفس الانسان.

وروى الصدوق في عيون اخبار الرضا عن رجاء بن الضحاك عن الرضا عليه السلام في سفره الى خراسان (وكان يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القران، فاذا مرّ باية فيها ذكر جنة او نار بكى، وسال الله الجنة، و تعوذ به من النار)[٢].

وعن نوف قال: (بت ليلة عند امير المؤ منين عليه السلام فكان يصلي الليل كله، و يخرج ساعة بعد ساعة فينظر الى السماء و يتلو القران)[٣].

(١) الكافي: ٦١١/٢.

(٢) عيون اخبار الرضا:١٨٢/٢.

(٣) الخصال للصدوق: ص ٣٣٧.

يقول ابي الجوزي كان احد الصالحين اذا جنّ عليه الليل أخذ في البكاء و العويل نقالت له امّه ليلة: يا بني ارفق بنفسك، فقال: يا أُمّاه ان لي موقفاً طويلا بين يدي رب جليل فلاادري ما يؤمر بي الى ظل ظليل او الى شر فقيل اني اخاف عناءً لاراحة بعده و توبيخاً لا عفواً معه.

فمرّت به ليلة و هو يتهجد بهذه الآية ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عمَّا كانُوايَعْمَلُونَ﴾[1] فبكى و اضطرب و غشى عليه، فجعلت امه تناديه و لا يجيبها فقالت له قرة عيني اين الملتقى؟ فقال بصوت ضعيف: ان لم تجدبني في عرصة القيامة فسلي مالكاً (خازن النار) عنّي ثم شهق شهقة فمات[2].

الاستشعار بنداءات القران:

من مفاتيح القران ان يستشعر القارىء بخطابات القران و نداءاته و هتافه للمؤمنين و الناس جميعا، فان القران نزل من لدن الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه وآله لدعوة الناس و تذكيرهم و تنبيههم و هدايتهم. و الناس كل الناس هم المعنيون بما في هذا القران من دعوة وتوجيه و تذكير و ذكر يقول تعالى ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[3] ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاس ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[4] ﴿هذا بَيانٌ لِلنّاسِ وهُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5] و الاحساس بهذا التكريم الالهي للانسان و الاستشعار بنداءات الله تعالى للانسان في القران، و تخصيصه بالنداء دون سائر الكائنات يفتح مغاليق القلوب.

و ان الانسان اذا وعى هذا التخصيص الالهي له بالنداء و الهتاف ﴿يا أيُّها

(١) الحجر ٩٣/١٥.
(٢) التبصره لابن الجوزي ٢٩/١.
(٣) الانبياء ١٠/٢١.
(٤) النّحل ٤٤/١٦.
(٥) آل عمران ١٣٨/٣.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ او﴿يا أَيُّها النَّاسُ﴾ انفتح قلبه للقران و لبّى نداء الله تعالى من كل قلبه.

و من لا يعي تخصيص الله تعالى له بالنداء و لا يستشعر بعمق هذا التكريم الالهي له يبقى محجوبا عن القران، مهما اوتي من علم و عرفان في القران.

و الناس يقرأون القران على احدى ثلاث حالات:

الأُولى: ان يرى نفسه بين يدي الله يتلو كتاب الله فيكون حاله حال التضرع و الدعاء و السؤال.

الثانية: و ان يرى نفسه موضع خطاب الله تعالى و ندائه و هتافه فتمتلأ نفسه خشوعا و هيبة و رهبة و حياء و تعظيما لله و اقبالا على فهم كلام الله و التدبر في خطابه و التلبية و الاستجابة لندائه و هتافة.

الثالثة: طائفة من الناس يرون في كلام الله صفاته و اسماءه الحسنى، فيستغرقهم القران و يمتلك عليهم كل مشاعرهم و احاسيسهم و افئدتهم.

وقد روى عن الامام الصادق عليه السلام في هذه الطائفة «و الله لقد تجلى الله لخلقه في كلامه و لكن لا يبصرون»[١].

و قليلون اولئك الذين ينعمون بهذه الرؤية و هذا الوعي و لو ان الناس قرأوا القران بهذا الوعي و وعوا في قراءتهم هذا التكريم و التخصيص الالهي لهم لم يشبعوا من القران، و لم يجدوا لذة فوق لذة تلاوة القران.

و قد كان حذيفة يقول: (لوطهرت القلوب لم تشبع من القران).

و نقل عن بعض العلماء العارفين: (كنت اقرأ القرأن فلا اجد له حلاوة حتى تلوته كأني اسمع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يتلوه على اصحابه، ثم تلوته و كان جبرئيل يلقيه على رسول الله(صلّى الله عليه وآله).

(١) المحجة البيضاء: ٢/٢٤٧.

المكاسب التي ينالها الانسان اذا دخل في دائرة نفوذ القران

ان المكاسب التي ينالها الانسان اذا دخل في دائرة نفوذ القران جّمة كثيرة، و الافاق التي يفتحها الله تعالى على الانسان اذا انعم بالعيش في رحاب القران واسعة.

فان رحاب القران رحاب كثيرة البركات. فمن انعم الله عليه بالعيش في رحابه والاستضاءة بنوره فقد فتح عليه ابواباً واسعه من رحمته و يقول تعالى: ﴿و هذا كِتابٌ أنْزَلْناهُ مُبارَكٌ﴾[1] و يقول تعالى: ﴿وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أنْزَلْناهُ﴾[2] و القران كتاب كريم ﴿إنَّهُ لَقُرآنٌ كَريمٌ﴾[3] كثير الخيرات و البركات، و هو كتاب مجيد ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجيدِ﴾[4] و المجد هنا يأتي بمعنى سعة الكرم و الفضل.

كلمة رسول الله (صلّى الله عليه وآله):

و قد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم في ذلك: «من استضاء به نوّره الله، و من عقد به اموره عصمه الله، و من تمسك به انقذه الله، و من لم يفارق احكامه رفعه الله، و من استشفى به شفاه الله، و من اثره على ماسواه هداه الله، و من جعله شعاره و دثاره اسعده الله، و من جعله امامهُ الذي يقتدى به، و معموله الذي ينتهي اليه اواه الله الى جنات النعيم و العيش السليم»[5].

و لكن هذه الاثار و البركات التي ينزلها الله تعالى على قارىء القران تخص فقط اولئك الذين يستضيئون بالقران، و يعقدون به امورهم و يتمسكون به و لا يفارقون احكامه، يستشفون به، و يؤثرونه على ما سواه، و يجعلونه شعارهم و دثارهم،

(١) الانعام ٦/٩٢.

(٢) الانبياء ٢١/٥٠.

(٣) الواقعة ٥٦/٧٧.

(٤) ق ٥٠/١.

(٥) بحار الانوار ٩٢/٣١. عن تفسير الامام العسكري (ع).

و امامهم الذي يقتدون به، و موهم الذي ينتهون اليه، و عند ذلك ينعم الله عليهم بنعمة النور و البصيرة و العصمة و النجاة و الهداية و السعادة، و ليس كل من قرأ القران ينال هذه البركات و يدخل في رحاب القران، و في مجال نفوذه و تأثيره و هدايته.

كلمة الامـــام الباقر(عليه السلام):

و قد حدّد الامام الباقر عليه السلام هذه الطائفة من الناس بقوله: «و رجل قرأ القران فوضع دواء القران على داء قلبه، فاسهر به ليله و اظمأ به نهاره، و قام به في مساجده، و تجافى به عن فراشه، فباولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء، و باولئك يديل الله عزوجل من الاعداء، و باولئك ينزل الله الغيث من السماء.فوالله لهؤلاء في القران اعز من الكبريت الاحمر»[1].

والوصف ـ في الرواية ـ دقيق: (وضع دواء القران على داء قلبه) فان من يخضع ادواءه لدواء القران فلابد ان يشفيه القران.

و هؤلاء ليس فقط ينزل الله عليهم بركاته و رحمته، و انما ينزل الله تعالى بهم بركاته و رحمته على الاخرين، و يرفع الله تعالى بهم الابتلاء عن الاخرين.

الا انهم قليلون كالكبريت الاحمر.

كلمة الامـــام الصادق(عليه السلام):

و في حديث آخـر للامـام الصادق عليه السلام في صفة هذه الطائفة من القراء: «و قارىء قرأ القران فاستتر به تحت برنسه، فهو يعمل به حكمه و متشابه و يقيم فرائضه، و يحل حلاله، و يحرم حرامه،فهذا ممن ينقذه الله من مضلات الفتن،

(١) الكافي: ٢/٦٢٧.

و هو من اهل الجنّة يشفع فيمن يشاء»[١].

هؤلاء يعكفون على القران كما يغطي البرنس الرأس و الجسد، و يحكمون القران على سرهم و علانيتهم و يحكمون القران في حلاله و حرامه و في محكمه و متشابهه اولئك الذين ينقذهم الله من مضلات الفتن.

وفيما يلي نذكر جملة من هذه البركات و الافاق التي يفتحها الله على من ينعم عليه بالعيش في رحاب القران:

١ـ يفتح له القران خزائنه:

ان ايات القران خزائن علم و معرفة و لا ينال خزائن القران الا من رزقه الله العيش في رحاب القران، فاذا رزق الله عبدا وعى القران و مكّنه من التدبر فيه و دراسته، فتح القران عليه خزائنه و كنوزه اراه الله من معارفه ما لايراه الاخرون، و فتح عليه من كنوزه و خزائنه ما لا يعرفه الاخرون. و هذه الخزائن هي التي يشير اليها الامام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام فيما وروي عنه: «ايات القران خزائن العلم، فكلما فتحت خزانة ينبغي لك ان تنظر فيها»[٢].

و قد اوضحنا طرفا من هذا الامر في الشطر الاول من هذا الحديث.

٢ـ حلاوة القران و الانس به:

ان للقران حلاوة لمن يتذوقه، و قليل ما هم.

و قد كان الامام الصادق عليه السلام يدعو الله تعالى و يسأل عند ابتداء قراءة القران ان يرزقه الله حلاوة تلاوته: «اللهم ارزقنا حلاوة في تلاوته، و نشاطا في قيامه، و وجلا في ترتيله، و قوة في استعماله في اناء الليل و اطراف النهار»[٣].

(١) وسائل الشيعة: ٨٤٩/٤.

(٢) الكافي:٢/ ٤٤٠.

(٣) الكافي: ٤١٧/٢.

و اذا انعم الله تعالى على عبد بحلاوة تذوق القران يكاد ان يشبع منه، و لا يكاد ان يصبر عليه.

و قد مرت علينا قريبا كلمة حذيفة: (لوطهرت القلوب لم تشبع من القران) و كلمة بعض الصالحين في ذلك: (ثم تلوت القران و كان الله تعالى يخاطبني فوجدت فيه لذة و نعيما لااصبر عليه) و ليس كل احد يشعر بحلاوة القران و انما يحتاج الانسان لكي يشعر بحلاوة طعم القران الى سلامة الذوق و القلب قبل ذلك، و قد تقدم للمريض اشهى الوان الطعام، قال يتذوقه و ليس في الطعام نقص او عيب و انما النقص والعجز في مذاق المريض.

واذا احس الانسان بحلاوة في تلاوة القران فأنه يستمرؤه و يكرره و يعيده من غير ان يملّه، و قد رأينا من قبل كيف كان رسول الله صلّى الله عليه و آله و اهل بيته و خيار اصحابه يعيدون الاية الواحدة و يكررونها طويلا، و لا يملون التكرار و الاعادة و لا يزيدهم التكرارالا شوقا اليها.

واذا احس الانسان بحلاوة تلاوة القران انس بالقران فلا يكاد يفارقه و لا يستوحش لشيء اذاكان القران معه.

وكان الامام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يقول:(لو مات من بين المشرق و المغرب لما استوحشت بعد ان يكون القران معي.)[١].

٣ـ الارتقاء بالقران:

لقراءة القران ثلاث حالات:حالة يقصد بها صاحبها الثواب عند الله، مفصولة عن اسبابها الحقيقية و موجباتها. ولا نريد ان نشكك في صحة و شرعية هذه الحالة....و انما نقول: ان الثواب الذي يترتب على قراءة القران لا ينفصل في اغلب الاحوال عن الاثار التي تتركها قراءة القران في نفس القارىء

(١) الكافي: ٢/ ٤٤٠

فكلما كان تأثير القراءة و فعله في نفس القارىء اقوى كان الثواب اعظم و اكبر. و الاثر الذي تتركه القراءة في نفس القارىء هو التعليل الصحيح لما يترتب على القراءة من الثواب.

و حالة ثانية يقصد بها صاحبها خزن معارف القران في الذاكرة دون ان يتجاوز اناء الذاكرة، و ينفذ الى القلب و العقل، و هؤلاء هم العلماء غير العاملين الذين يعرفون القران و لا يعرفونه، و القران معهم و فيهم، و ليس معهم و فيهم، كما يقول الامام امير المؤمنين عليه السلام «فالكتاب و اهله في ذلك الزمان في الناس و ليسا فيهم، و معهم و ليس معهم ...و كأنهم ائمة الكتاب و ليس الكتاب امامهم»[١].

وحالة ثالثة يتحول فيها القران بالقراءة الى العناصر المكونة لشخصية الانسان، و يدخل القران في بناء و شخصية الانسان و عقله و روحه و فؤاده و عواطفه و احاسيسه.

ويشعر الانسان عند ما يقرأ القرآن انه يأخذ من القرآن، وان القرآن يعطيه، وانه ينطبع بالقرآن، وان القرآن يطبعه بطابعه الخاص المتميز، و يغذيه و يرويه، و يصح التعبير عنه بـ(التمثيل الروحي والعقلي) في مقابل عملية التمثيل العضوي في النبات والحيوان، حيث يتناول الكائن الحي المواد غير العضوية من الاملاح والمعادن و يحولها في جسمه الى مواد عضوية، و تتحول هذه المواد الى الخلايا والالياف المكونة لجسم الكائن الحي.

كذلك القراءة تشكل عملية تمثيل من نوع اخر يتحول فيها القرآن الى طريقة تفكير واحساس، و عاطفة و رؤية و بصيرة و فؤاد و ذوق و عزم و ضمير.و بتعبير اخر ينمو الانسان وتتكامل شخصيته بالقرآن.

(١) نهج البلاغة.

كتاب الله تبصرون به و تسمعون:

يقول اميرالمؤمنين عليه السلام «كتاب الله تبصرون به وتسمعون»[1] و كلمة: (تبصرون به و تسمعون) كلمة معبرة تعبيرا رائعا عما نريد ان نثبته هنا. فان البصر والسمع جهازان في القلب للالتقاط والاستلام.(المقصود بهما ابصار القلوب و اسماع القلوب فان للقلوب اسماعاً و ابصاراً كالتي في رؤوسنا).

فاذا كانت الابصار و القلوب صافية و سليمة فلا تتلقى الا الطيب النقي، واذا كانت مريضة فانها تتلقى الطيب والخبيث معا، تتلقى الطيب مقرونا باغراءات الشيطان و وساوسه فيمزج له الشيطان الطيب بالخبيث واذا اجحف المرض بالقلوب و الاسماع و الابصار فلا تتلقى الا الخبيث من اغراء الشيطان وكيده و وساوسه و خداعه و تضليله.

كلما صفت موارد الانسان صفت مصادره:

والانسان اخذ و عطاء، و هو يعطي ما يأخذ عادة، لان فاقد الشيىء لايعطيه، فاذا كان ما يأخذ طيبا، كان عطاؤه طيبا كله، و كان قوله و عمله طيبا كله.

واذا كان ما يتلقاه طيبا مشوبا بالخبيث، كان فعله و قوله طيبا مشوبا بالخبيث، و اذا كان لا يتلقى الا الخبيث فلا يعطى الا الخبيث، و كان فعله و قوله خبيثا كله. يقول تعالى:﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاّ نَكِداً﴾[2].

وهذه المعادلة والمسانخة بين ما يأخذه الانسان و ما يعطيه من اوضح مقولات العقل. و الانسان كما ذكرنا اخذ و عطاء. فاذا صفت موارد الانسان صفى عطاؤه،

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٣١ و بحار الانوار: ٢٢/٩٢.
(٢) الاعراف ٥٨/٧.

واذا تكدرت موارده تكدرعطاؤ ه. و القلب و ما فيه من السمع و البصر و اجهزة استلام و اخذ، فاذا سلمت للانسان هذه الاجهزة فلابد ان يسلم فعله و قوله من كل خبيث، و لابد ان تكون الثمرة التي يعطيها الانسان في فعله و قوله ثمرة طيبة مباركة.

فإذا كان قلب الانسان قرآنيا و سمعه و بصره قرآنيا، و كان الانسان يبصر بالقرآن و يسمع به كما يقول الامام علي عليه السلام فلا يكون قوله ولا فعله ولا تفكيره الا قرآنيا و مطبوعا بطابع القرآن.

فإن الذي لا يبصر الا جمال الله و جلاله، ولا يسمع الا ايات الله و نداءه لا يمكن ان يكون قوله و فعاله الا نسخة طبق القرآن.

و قد ورد في الحديث القدسي: «لا يزال يتقرب الى عبدي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي به يسمع و بصره الذي به يبصر».

فهناك من الناس من يلقف القرآن كما تلقف البقرة العشب بلسانها، و تزدرده من غير مضغ و تخزنه في معدتها من غير هضم لتجتره بعد ذلك.

عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم: «ان قرأ القرآن المنافق لا يخطىء الفا ولا ميما يلقف القرآن بلسانه كما تلقف البقرة الكلاء بلسانها»[1].

و هذه الطائفة لا تنتفع بالقرآن ابدا،ذلك ان القرآن لا يتجاوز السنتهم ولا ينفذ الى عقولهم و قلوبهم ولا يتفاعلون معه في شيء.

عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «سيجيء من بعدي اقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء لا يجوز تراقيهم قلوبهم مقلوبة»[2].

و طائفة اخرى من الناس يتلقون القرآن بعقولهم و قلوبهم و ينفذ القرآن الى نفوسهم و يسهم القرآن في بنائهم و لكن في حركة بطيئة ضعيفة.

و طائفة ثالثه ينهلون من منهل القرآن نهلا سريعا، ولا يتلقون قرآنا من عند

(١) الجعفريات: ص ١٧٣ و مستدرك الوسائل:٢٤٢/٤.

(٢) وسائل الشيعة: ٨٥٨/٤.

الله حتى يجسدوه في سلوكهم و عملهم، و تكاد ان تكون قراءة القرآن في نفوس هؤلاء الناس انقلاب نور،و انفجار هدى و رحمة، و كذلك كان اصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله يتلقون القرآن.

فقد روي ان رجلا جاء ليتعلم القرآن و انتهى الى قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[1].

«فقال يكفيني هذا وانصرف فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) انصرف الرجل وهو فقيه»[2].

أرايت الطفل والمراهق الآخذان في النمو كيف يتحول ما يأخذانه من الطعام الى نمو سريع في جسمعما وعقلهما وكذلك تتلقى هذه الطائفة من الناس القرآن وتتفاعل معه وتجسده في سلوكها وحياتها في حركة سريعة.

والانسان على نفسه بصيرة يشعر جيدا ما اذا كان القرآن يرويه ويعطيه وينميه ويسهم في تكوينه، او ان القرآن لا يتجاوز لسانه الى قلبه، و او يتحول في احسن الحالات في ذاكرته الى مخزون علمي لا ينفذ شيء منه الى نفسه والى هذا التكامل والنمو في شخصية الانسان بقراءة القرآن تشير الروايات الواردة في القراءة (إقرأ وارقَ). وكأن القراءة عملية نمو و ارتقاء مستمرة في شخصية الانسان تعطي الانسان ويأخذ منها الانسان ويتكامل بها وينمو.

الارتقاء بالقرآن في النصوص الاسلامية:

ولنذكر جملة من هذه النصوص فهي جديرة بالتأمل و الدراسة:

١ـ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلم: «تعلّموا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة صاحبه فيقول: انا القرآن الذي كنت أسهرت ليلك واظمأت هواجرك

(١) الزلزال ٩٩/٧ـ٨.

(٢) نقل الرواية الغزالي في الاحياء:٢٨٧/١ و قال العراقي في الهامش اخرجه ابو داود والنسائي في السنن الكبرى ولي حيان و رواه قريبا منه الحاكم في المستدرك ٥٣٢/٢ عن عبدالله بن عمر.

واجففت ريقك و اسبلت دمعك فأبشر فيوتى بتاج فيوضع على رأسه و يعطى الامان بيمينه و الخلد في الجنان بيساره و يكسى حلتين ثم يقال له: اقرأ وارقَ فكلّما قرأ آية صعد درجة و يكسى ابواه حلتين ان كانا مؤمنين ثم يقال لهما هذا لما علمتماه القرآن»[١]

٢ـ وعن علي عليه السلام: «يقال لصاحب القران: إقرأ وراقَ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك في الدنيا عند اخر آية تقرؤها»[٢].

٣ـ و روى الصدوق في كتاب (من لا يحضره الفقيه) عن امير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته الى ابنه محمد بن الحنفيه: «اعلم ان درجات الجنة عدد آيات القران فاذا كان يوم القيامة يقال لقارىء القران: إقرأ وارق».

٤ـ عن الامام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «عليك بالقران فان الله خلق الجنة بيده، لبنة من ذهب و لبنة من فضة ملاطها المسك و ترابها الزعفران و حصباؤها اللؤلؤ و جعل درجاتها على قدر ايات القران. فمن قرأ القران قال له: اقرأ وارق و من دخل الجنة منهم لم يكن في الجنة اعلى درجة منه، ما خلا النبيون والصديقون»[٣].

٥ـ و عن الامام الباقر محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام: «يجييء القران في احسن منظور اليه صورة... فيقول يا رب فلان اظمأتُ هو اجره و اسهرت ليله فيقول تبارك و تعالى: ادخلهم الجنة على منازلهم فيقوم قوم يتبعونه فيقول للمؤمن: اقرأ وارق فيقرأ و يرقى حتى يبلغ كل رجل منهم منزلة التي هي له فينزلها»[٤].

٦ـ و عن الامام الصادق عليه السلام: «يدعى ابن آدم المؤمن للحساب فيتقدم القران امامه...و فيقول: يا رب انا القران و هذا عبدك المؤمن قد كان يتعب نفسه بتلاوتي و يطيل ليله بترتيلي و تفيض عيناه اذا تهجد فارضه عني كما ارضاني

١) الكافي:٢/٤٤١.

(٢) مجمع البيان:١/١٦.

(٣) مستدرك الوسائل: ١/٢٩٩ الطبعة الاولى.

(٤) الكافي: ٢/٤٣٩.

فيقول العزيزالجبار: عبدي ابسط يمينك فيملؤها من رضوان الله و يملأ شماله من رحمة الله ثم يقال له: هذه الجنة مباحة، فاقرا و اصعد، فاذا قرأ آية صعد درجة»[١].

٧ـو كان من دعاء الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) حينما يأخذ المصحف للقراءة: «واجعلني ممن ترقيه بكل آية درجة في اعلا عليين»[٢].

و في دعاء اخر له عليه السلام عند ما يأخذ المصحف للقراءة: «و اجعل لي بكل حرف درجة في على عليين»[٣].

٨ـ عن موسى بن جعفر عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلم: «عدد درج الجنة عدد اي للقران فاذا دخل صاحب، الجنة قيل له: اقرأ وارق لكل آية درجة فلا تكون فوق حافظ القران درجة»[٤].

٩ـ عن ابي عبدالله الصادق عليه السلام: «ان درجات الجنة على عدد آيات القران وفيقال لقارىء القران: اقرأ ارق »[٥].

١٠ـ و عن الامام الصادق عليه السلام: «عليكم بمكارم الاخلاق فان الله عزوجل يحبها.و اياكم و مذام الافعال فان الله عزوجل يبغضها .و عليكم بتلاوة القران. فان درجات الجنة على عدد ايات القران فاذا كان يوم القيامة يقال لقارىء القران: إقرأ ارق فكلما قرأ آية رقي درجة»[٦].

تحليل النصوص:

وهذه النصوص تستوقف الانسان للتأمل

(١) الكافي: ٢/٤٤٩.
(٢) بحار الانوار:٩٢/٢٠٧ و مكارم الاخلاق:٣٩٤.
(٣) بحار الانوار:٩٢/٢٠٨.
(٤) بحار الانوار: ٩٢/٢٢ عن كتاب الامامة والتبصرة.
(٥) ثواب الاعمال للصدوق: ١٦١ و بحار الانوار: ٩٢/١٨٨ ح ١٠.
(٦) امالي الصدوق: ٢١٦ و بحار الانوار٩٢/١٩٧ ح ٤.

١ـ فان للجنّة درجات و فوق كل درجة درجة، و هي درجات لا تحصى كما في هذه النصوص .

٢ـ و هذه الدرجات هي درجات كمال الانسان و نموه و ارتقائه. و كلما كانت درجة الانسان في سيره التكاملي ارقى واعلى كانت درجته في الجنة اعلى، و ليست الدرجات في الجنة مفصولة عن درجات الانسان في نموه و كماله في الدنيا.

٣ـ و القران هو سلم كمال الانسان و نموه في هذه الدنيا، وايات القران درجات هذاالسلم فكلما قرأ الانسان اية من القران عن وعي و بصيرة ارتقى و نمى درجة.فبالقران اذن ينمو الانسان و يتكامل و تتم به حركته التصاعدية الى الله تعالى . ويوازي هذاالنمو والتحرك والتكامل في الدنيا ارتقاء في درجات الجنة في الاخرة.وليس احدهما غربيا عن الاخر، وانما درجات الجنة نتيجة طبيعية لدرجات كمال الانسان في الدنيا، وانعكاس عنها. ودرجات كمال الانسان في الدنيا نتيجة طبيعية لدرجة تفاعل الانسان مع القران، ومساهمة القران في بناء شخصه، والذي عبرنا عنه بعملية (التمثيل). فكلما ازداد الانسان معرفة بكتاب الله والتصاقا به و تفاعلا معه تقدم شوطا اكثر في هذه الحركة التكاملية الى الله.

والى هذا المعنى تشير الاية المباركة من سورة الانفال: ﴿وَإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ اياتُهُ زادَتْهُمْ ايماناً﴾[1] فمهما تعاطى الانسان ايات الله ازداد ايمانا وازداد كمالا.

درجات القراء:

ودرجات القراء في الكمال والقرب من الله بمقدار ما يقرؤون ويعون من كتاب الله.

عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله): من قرأ عشر ايات في ليلته لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كتب من الذاكرين ومن قرأ مأة آية كتب من القانتين

(١) الانفال ٢/٨.

ومن قرأ مائتي آية كتب من الخاشعين ومن قرأ خمسمأة آية كتب من المجتهدين[١].

اذن درجة الانسان في تلاوة القرآن ووعية هي درجته في الكمال، ودرجته في الكمال هي درجته من القرب من الله تعالى ودرجته في القرب من الله تعالى هي درجته في الجنة.

اختلط القران بلحمه ودمه:

ولعل ادق تعبير عن هذا «التمثيل القراني» هو ماورد في النصوص الاسلامية من ان القران يختلط بلحم القارىء ودمه اذا صدق في قراءته وانعم الله عليه بوعي القران. عن الامام الصادق عليه السلام: «من قرأ القران وهو شاب مؤمن اختلط القران بلحمه ودمه وجعله الله مع السفرة الكرام البررة وكان حجيزا عنه يوم القيامة»[٢].

عندئذ يدخل القران في تكوين عقل الانسان وارادته وقلبه، ويصبغه القران بصبغته الخاصة المتميزة فيكون هواه قرانيا، وارادته قرانية، وعقله وفؤاده قرانيان واحاسيسه قرانية.

ان المعاناة والمكابدة التي يعانيها الانسان اول الامر تفرز في نفس الانسان حالة قرانية فلا يفكر ولا يريد ولا، يتكلم الا بالقران حتى كأن القران اختلط بلحمه و دمه.

وعندئذ يطرد القران من نفسه الشيطان والهوى والفجور والشرك والخبائث لان الاهواء والفجور تعشعش في الاعماق المظلمة من النفوس والقلوب فاذا استنارت النفوس بالقران خرج منها الفجور والاهواء فان القران اذا دخل في بيت من باب خرجت الاهواء والفجور من الباب الاخر.

واذا كان قارىء القران شابا كان تأثير القران اسرع الى نفسه، وكان اختلاط لحمه ودمه بالقران اسرع واقوى، ولذلك خصت الرواية هذا الاختلاط بالقران والتفاعل معه بالشباب بصورة خاصة، ذلك ان قلوب الشباب غضة طرية لم

(١) الكافي: ٤٤٨/٢. (٢) الكافي: ٤٤١/١.

يتمكن منهـا الشيطان و السيئات بعد، ولم تتحكم فيها الاهواء، و لم تسلبها نقاوة الفطرة وسلامة الضمير، و فتكون على استعداد اكثر لقبول القران و تلقيه و التفاعل معه. يقول امير المومنين عليه السلام في وصيته لابنه الامام الحسن عليه السـلام «وإنما قلب الحدث كالارض الخالية».

ومهـما يكـون من امـر فان امـر هذا القران عجيب في التحامه بالنفس الانسانية و تفاعله معها و اختلاطه بها اذا صفت النفوس و طهرت و صدق اصحابها في محاولة تزكية نفوسهم و تطهيرها والتفاعل مع كتاب الله. ولسنا نجد كلاما بشريا اصدق وادق في التعبير عن هذا الالتحام والتفاعل القراني بشخصية الانسان وانقلاب الشخصية الانسانية به الى شخصية قرانية في كل ابعادها من هذا الدعاء الذي يرويه الرواة عن الامام الصادق عليه السلام: «وأسألك بمعاقد العز من عرشك و منتهي الـرحمة من كتابك اسالك ان تصلي على محمد وال محمد وان ترزقني حفظ القران واصناف العلم (من القران) وان تثبتها في قلبي و سمعي و بصري وان تخالط بها لحمي و دمي و عظامي و مخي و تستعمل بها ليلي برحمتك»[1] كذلك يدخل القران في نفس الانسان، و يمتزج و يختلط بلحمه و دمه و عقله و عظامه و مخه، و يستوعب ليله و نهاره ويملاء قلبه و عقله، و يصبغ كل شخصيته و يحولها الى شخصية قرانية.

كأنما ادرجت النبوة بين جنبيه:

واذا بلغ الانسان هذا المبلغ من التفاعل والالتحام بالقران فكانما ادرجت النبوة بين جنبيه الا انه لا يوحى اليه، ذلك ان القران هو منهاج النبوة وطريقها واذا تشبع الانسان بهدى القران و توجيهه فكانما جسد النبوة في سلوكه و فعله و منطقه.

ر في النبوة تجتمع مقومات و عناصر الكمال الانساني، فيملك الانسان عندئذ هذه المقومات غالبا ـ الاالوحي ـ فيفكر بالطريقة النبوية و يتعامل مع الله و

(١) الكافي: ٢/٤١٩.

مع الناس و مع نفسه بالطريقة النبوية، و ينعم الله عليه بشفافية النبوة و وعيها و بصيرتها، و رهافه الحس النبوي، و سلامه الضمير و العاطفة و نقاوة الفطرة كما في الانبياء عليهم السلام الذين لم تدنسهم الجاهلية بانجاسها ولم تلبسهم من مدلهمات ثيابها. و اقرأوا بامعان و تأمل هذه النصوص التالية:

١ـ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله سلم: «من قرأ ثلث القران فكأنما اوتي ثلث النبوة و من قرأ ثلثي القران فاكأنما اوتي النبوة.

و من قرأ القران كله فكانما اوتي تمام النبوة.ثم يقال: اقرأ وارق بكل اية درجة فيرقى في الجنة بكل اية درجة حتى يبلغ ما معه من القران ثم يقال له: اقبض فيقبض ثم يقال له: هل علمت ما في يدك؟ فيقول: لا فاذا في يده اليمنى الخلد و في الاخرى النعيم»[1].

٢ـ و عن الامام علي بن ابي طالب عليه السلام: «من قرأ القران فكأنما ادرجت النبوة بين جنبيه الاّ انّه لا يوحى اليه»[2].

٤ـ القران يفتح ابواب الاستجابة للدعاء على الانسان:

و انما تنغلق ابواب الاستجابة للدعاء علينا لان قلوبنا تنغلق على الله تعالى، فليس في ساحة الله تعالى بخل و لا شح و لاانغلاق و انما هي نفوسنا تنفتح على الله فيستجيب الله تعالى لدعائنا، و تنغلق فلا يستجيب، و كيف يرتفع الدعاء الى الله من قلب منغلق على الله قد حجبته ذنوبه و اهوائه. فاذا دخل الانسان في رحاب القران و طهر القران قلبه مما يرين عليه، وازال القران حجب الهوى عن قلبه و فتح منافذ قلبه على الله تعالى فليس شيء اسرع الى دعائه من الاستجابة، ذلك انه لا يحول بينه و بين الله تعالى حجاب يحجبه عن الله.و قد ورد في النصوص الاسلامية ان قراءة

(١) عن تفسير ابي الفتوح الرازي (راجع مستدرك الوسائل:٢٩٣/١ الطبعة الاولى).
(٢) مجمع البيان: ١٦/١.

القران من اسباب استجابة الدعاء.

عن الامام الصادق عليه السلام: «من قرأ ماءة آية من أيّ آي القران شاء ثم قال سبع مرات: يا الله. فلو دعى على الصخور لقلعها ان شاء الله»[١].

٥ـ بالقران تعمر القلوب:

للقلوب سلامة ومرض، وعمارة وخراب، و استقامة و انحراف و القران يضمن للانسان سلامة القلب و عمارة القلب و شفاء القلب من الاسقام، واذا تجاوز القران الاذان ونفذ الى القلوب فانه يعمر القلوب و يزيل ما فيها من شك و ريب و ظلمة و دنس، و يطهرها و يبعث فيها الحياة والنور.و لهذا الاجمال تفصيل لابد منه نعرضه بما يمكن.

القران صريح في ان للقلوب (سلامة) و(مرض) و(حياة) و(موت) فهذه ثلاثة اصناف من القلوب: القلوب السليمة، والقلوب المريضة، والقلوب الميتة،القاسية المتحجرة.

و قد تحدثنا نحن من قبل عن القلوب السليمة والقلوب المريضة والان نريد ان نستعرض الطائفة الثالثة من هذه القلوب وهي القلوب (الميتة) التي يعبر القران عنها بـ(القاسية) فنقول: ان القران قد صنف القلوب الى ثلاث طوائف:

١ـ القلوب السليمة:

و هي الذي يقول عنه تعالى ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلابَنُونَ * إلاّمَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ﴾[٢].

و القلب السليم هو القلب الذي يؤدي دوره بصورة سليمة، و الدور السليم

(١) مكارم الاخلاق: ٤٢٠ باب الاستشفاء بالقرآن.
(٢) الشّعراء٢٦/٨٨ ـ ٨٩.

للقلب هو الاخذ والعطاء، فاذا كان القلب يأخذ من عند الله الهدى و النور و يعطي العبودية و الخضوع والخشوع والانابة و التوبة و الاخبات و التوكل، والتذلل بين يدي الله، و يعطي الرحمة لعباد الله فهو القلب السليم.

٢ـ القلوب المريضة:

واما اذاكان يحجب القلب عن الله تعالى حجاب من شرك او ذنب او شهوة غالبة وسلطان للهوى ...فان القلب سوف يبقى محجوبا عن الله تعالى بقدر ما ينفذ في القلب الشرك و الذنب و سلطان الهوى، فاذا كان القلب محجوبا عن الله تعالى اختل كل دوره فلم ياخذ من عند الله بصورة سليمة ولا يستطيع بالتالي ان يعطي فتختل سلامة القلب.

و قد ورد ذكر هذه الطائفة من القلوب في مواضع كثيرة من القران. قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾[1].

وقال تعالى:﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾[2].

وقال تعالى:﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلاتَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[3].

ومن اهم اسبابه (حب الدنيا)فهو رأس كل خطيئة يحجب الانسان عن الله ويصرفه عن ذكر الله. ومن اسبابه الذنوب والمعاصي، فهي تشكل الرين على القلوب ﴿كَلّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4].

(١) البقرة ٢/١٠.
(٢) الاحزاب ٣٣/٦٠.
(٣) الاحزاب ٣٣/٣٢.
(٤) المطففين ٨٣/١٤.

٣ـ القلوب الميتة:

والـطائفة الثالثة من القلوب هي القلوب الميتة ويسمي القرآن اصحابها بـ﴿ٱلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾(١).

وقسـوة القلب هي درجـة عالية من مرض القلب فيها يفقد صاحبه كل بصيرته و وعيه و تتعاظم درجة الانغلاق في القلب فيتحجر القلب و يقسو حتى يفقد كل ارتباط بالله تعالى و كل وعي و بصيرة فيكون القلب عندئذ كالحجارة او اشد قسوة من الحجارة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ اَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَ مَا اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

وهذه الحالة هي اقصى ما يبلغه القلب من القساوة، وفقدان الوعي و الروية و البصيرة فهي تكون كالحجارة او اشد قسوة من الحجارة، و ذلك ان من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء و تتفجر منه الانهار، وان من الحجارة لما يهبط من خشية الله، فهي على مابها من قسوة تأخذ و تعطي و تهبط من خشية الله. اما القلوب القاسية، فلا تأخذ ولا تعطي ولا ينفذ فيها نور ولا هدى و لا تهبط من خشية الله، ولا تستكين ولا تتضرع الى الله... وهؤلاء ينفعهم شيء ولا ينفذ الى قلوبهم نور، ولا ينفعهم تذكير ولا قران من عند الله، ذلك ان القران و التذكير ينفعان من كان حيا وهؤلاء موتى فقـدوا كل اثـر للحياة الحقيقية يقول تعالى:﴿إِنَّ اللّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾(٣).

(١) الزمّر ٣٩/٢٢.
(٢) البقرة ٢/٧٤.
(٣) يسٓ ٣٦/٦٩ و٧٠.

واذا بلغ القلب هذا المبلغ من القسوة و الانغلاق على الله تعالى، و تحجر الى هذه الدرجة فقد كل رؤ ية و بصيرة، وكان بينه و بين الله تعالى حجاب غليظ كامل يجعل صاحبه في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض تنعدم فيها الرؤية والبصيرة انعداما كاملا يبلغ درجة الصفر تماما.

انعدام الرؤية:

ولنصغ الى القران يشرح حال هذه الطائفة من الناس يقول تعالى: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾[1] ﴿أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[2].

اعراض الحجاب:

واعراض هذاالحجاب و الانغلاق هو العمى و الصمم﴿خَتَمَ اللَّهُ على قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ﴾[3].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[4].

﴿وَالَّذِينَ كذبوا باياتنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ﴾[5].

﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها﴾[6].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنالِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لايَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ

(١) البقرة ١٧/٢.

(٢) النور ٤٠/٢٤.

(٣) البقرة ٧/٢.

(٤) البقرة ١٨/٢.

(٥) الانعام ٣٩/٦.

(٦) الانعام ١٠٤/٦.

أَعْيُنٌ لايُبْصِرونَ بِها وَلَهُمْ اذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(١).

ومن اعراض هذه الحالة فقدان الاستجابة لدعوة الله تعالى، يقول تعالى:

﴿إنَّما يَسْتَجيبُ الَّذينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٢).

﴿إنّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً أنْ يَفْقَهُوهُ وَ في اذانِهِمْ وَقْراً وَإنْ تَدْعُهُمْ إلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إذاً أبداً﴾(٣).

اهم عوامل قسوة القلب:

واهم عوامل و اسباب موت القلوب و قسوتها هو الاعراض عن ذكر الله و التكذيب باياته، و الاستكبار على الله و اياته.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذينَ كَذَّبُوا باياتِنا صُمٌ وَبُكْمٌ في الظُّلُماتِ﴾(٤).

﴿وَلَوْ عَلِمَ فيهِمْ خَيْراً لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْاوَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾(٥).

﴿إنَّكَ لاتُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرينَ﴾(٦).

﴿ وَإذا تُتْلى عَلَيْهِ اياتُنا وَلّى مُسْتَكْبِراً كَأنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أليمٍ﴾(٧).

﴿وَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْري فَإنَّ له مَعيشَةًضَنْكاًوَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أعْمى﴾(٨).

(١) الاعراف ١٧٩/٧.
(٢) الانعام ٣٦/٦.
(٣) الكهف ٥٧/١٨.
(٤) الانعام ٣٩/٦.
(٥) الانفال ٢٣/٨.
(٦) النمل ٨٠/٢٧.
(٧) لقمان ٧/٣١.
(٨) طه ١٢٤/٢٠.

المعادلة ذات الحلقات الثلاث:

وهذا الرين والعمى والصم في الدنيا هو الحجاب الذي يحجب الانسان عن الله تعالى في الدنيا. وهذا الحجاب هو العذاب الذي يعاقب الله تعالى به الكافرين والمنافقين في الاخرة. فان العذاب في الاخرة ليس من قبيل العقوبات الجزائية في الدنيا، وانما هو الصورة الحسية لانغلاق الانسان واعراضه عن الله في الدنيا، تتجسد في الاخرة على هذه الصورة من العذاب الاليم.

فهذه معادلة ذات ثلاث حلقات كل حلقة ترتبط بما قبلها ارتباط المسببات باسبابها التكوينيه، كما ان الامراض في الدنيا هي العقوبة التكوينية للاهمال بالصحة،وليس من قبيل الجزاء، كذلك عذاب الاخرة هو تجسيد لواقع ابتعاد الانسان وانقطاعه عن الله تعالى في الدنيا. ولنتأمل في هذه الايات المباركات من سورة المطففين ترسم لنا العلاقة بين هذه الحلقات الثلاث التي اشرنا اليها.

﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[١].

١ـ ان السيئات والمعاصي هي سبب الرين على القلوب، و الرين هو الصدأ.

٢ـ و الرين على القلوب هو الحجاب الذي يحجب الانسان عن الله.

٣ـ و الحجاب الذي يحجب الانسان عن الله في الدنيا هو ما يلقاه الانسان من عذاب الجحيم في الاخرة.

و نقرأ في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمىٰ * قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسىٰ﴾[٢].

(١) المطففين ٨٣/١٤ـ ١٧.

(٢) طه ٢٠/١٢٤ـ ١٢٦.

فالتعامي عن ايات الله يتحول يوم القيامة الى العمى، والعمى في الاخرة هي النتيجة التكوينية والصورة الحسية للتعامي عن ايات الله في الدنيا. ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ كانَ في هذِهِ أعْمىٰ فَهُوَ في الْآخِرَةِ أعْمىٰ وَأَضَلُّ سَبيلاً﴾[1].

فالعمى في الاخرة ذات علاقة تكوينية بالعمى في الدنيا. وليس من قبيل العقوبات الجزائية على المخالفات القانونية في الدنيا.

القرآن شفاء وعمارة للقلوب:

واذا كانت العقوبة في الاخرة نتيجة تكوينية للانغلاق على الله والانحراف والغفلة عنه تعالى في الدنيا، فان القرآن له دور مزدوج في امر القلوب في الدنيا والاخرة اذا دخل الانسان في رحاب القرآن. فان القرآن يضمن سلامة قلوب المؤمنين ويتعهد عمارتها في الدنيا ويضمن في نفس الوقت. وكنتيجة طبيعية لذلك سلامة هذه القلوب في الاخرة وعدم ابتلائها بعذاب الاخرة.

ان القلوب التي تأنس بالقرآن في الدنيا و تتفاعل مع القرآن، و يصوغها القرآن لن يصيبها العذاب في الاخرة، والقلوب التي يسكنها القرآن في الدنيا يهجرها الشيطان و حب الدنيا والهوى في الدنيا ولا يصيبها العذاب في الاخرة. هذه جميعا قضايا متسلسلة يترتب بعضها على بعض ولايمكن فصل بعضها عن بعض.

وقد روي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في ذلك: «لايعذب الله قلبا وعى القرآن»[2].

وايضا عنه صلّى الله عليه وآله وسلم: «لا يعذب الله قلبا اسكنه القرآن»[3].

وروي عن امير المؤمنين عليه السلام: «اقرأوا القرآن واستظهروه فان الله

(١) الاسراء ٧٢/١٧.

(٢) بحار الانوار ١٧٨/٩٢.

(٣) مستدرك الوسائل: ٢٨٧/١ الطبعة الاولى.

تعالى لا يعذب قلبا وعى القرآن[١].

المنهج القرآني في عمارة القلوب:

والمنهج القرآني في عمارة القلوب منهج متكامل ضمن ثلاث خطوط. ذلك ان الكائن الحي يواجه نوعين من العوامل:

١ـ عوامل البناء(الغذاء).

٢ـ عوامل التخريب (الجراثيم والامراض).

ولكي يعيش الكائن الحيّ لابد من ان ينتفع ويتزود بعوامل البناء وهو عملية التغذية، كما لابد من مكافحة عوامل التخريب و الافساد. و هذه المكافحة تتم بطريقتين : (الوقاية) من عوامل التخريب والافساد قبل ان تنفذ عوامل التخريب في جسم الكائن الحي، والعلاج والشفاء منها بعدما تدخل هذه العوامل في جسم الكائن الحي والعمل على التخلص منها وهي عملية (الشفاء). فهذه ثلاثه خطوط لابد منها في عمارة و سلامة اي كائن حي، و عمارة القلوب لا تخرج عن هذا القانون و ليست القلوب بدعا من الكائنات الحية في هذا الكون، والمنهج القرآني منهج متكامل في عمارة القلوب وسلامتها يعتمد على ثلاثة خطوط:

١ـ تغذية القلوب بالايمان اولا و بذكرالله ثانيا، و بالعلم و المعرفة ثالثا.

٢ـ وقاية القلوب و تحصينها بالتقوى من السقوط في المعصية، والتلوث بالهوى، وحب الدنيا ومراقبة القلب بصورة دقيقة.

٣ـ شفاءالقلوب المريضة والمتلوثة بالهوى بالتوبة والتزكية.

وهذه ثلاثة ابعادبشكل منهاج القران في اعداد وصيانة ومعالجة القلوب بشرحها بايجاز.

(١) بحار الانوار: ١٩/٩٢ و رواه عن رسول الله (صلّى الله عليه واله) في المستدرك : ٢٤٥/٤ الطبعة الثانية(مؤسّسة آل البيت).

١ـ القرآن غذاء القلوب:

جعل الله تعالى في القرآن غذاء لقلوب المؤمنين، وهذا الغذاء والامداد الالهي الذي يقوّم قلوب المؤمنين هو الايمان والذكر والمعرفة.

والقرآن يمنح القلوب الايمان، ويزيدهم ايمانا على ايمانهم.

﴿وَإذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ ايماناً فَأَمَّا الَّذينَ امَنُوا فَزادَتْهُمْ إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرونَ وَأَمَّا الَّذين في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادتهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾(١).

و القرآن ذكر وتذكير للقلوب المؤمنة:

﴿إنْ هُوَ إلاّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾(٢).

﴿كَلّا إنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شاء ذَكَرَهُ﴾(٣).

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(٤).

والقرآن كتاب معرفة ونور وهدى وبصائر من الله:

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إلَيْكُمْ نُوراً مُبيناً﴾(٥).

﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرآنُ هُدىً لِلنّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَ الْفُرْقانِ﴾(٦).

﴿هذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٧).

(١) التوبة ٩/١٢٤ـ ١٢٥.
(٢) يس ٣٦/٦٩.
(٣) المدّثر ٧٤/٥٤ ـ ٥٥.
(٤) القمر ٥٤/١٧.
(٥) النساء ٤/١٧٤.
(٦) البقرة ٢/١٨٥.
(٧)آل عمران ٣/١٣٨.

﴿هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].
﴿هذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢].

٢ـ القرآن وقاية وصيانة للقلوب:

والقرآن كتاب وقاية وصيانة للقلوب يصون القلوب ويقيها من السقوط في المعصية والتلوث بالاهواء ويقيها من سلطان الهوى ونفوذه. واهم عناصر وعوامل هذه الوقاية والصيانة فهي:

أـ التقوى:

التقوى هي الاداة المفضلة في القرآن لصيانة القلوب و وقايتها ومن اهم اهداف القرآن وغاياته.

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْاناً عَرَبِيّاًوَصَرَّفْنا فيهِ مِنَ الْوَعيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾[٣].

﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَوَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾[٤].

﴿وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٥].

﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[٦].

ب ـ المراقبة:

(١) الاعراف ٧/٢٠٣.
(٢) الجاثية ٤٥/٢٠.
(٣) طه ٢٠/١١٣.
(٤) مريم ١٩/٩٧.
(٥) الانعام ٦/١٥٥.
(٦) البقرة ٢/٢.

ومن اعظم وسائل الصيانة والوقاية (المراقبة) وهي تكريس حالة الوعي القلبي لمراقبة الله تعالى لعباده والمداومة على هذا الشعور بصورة مستمرة واذا تمكن الانسان من تكريس هذه الحالة من الوعي لمراقبة الله تعالى له في نفسه، فانها تقيه وتحفظه من السقوط في المعاصي، والخضوع لسلطان الاهواء والشهوات. والقرآن يعمل على تكريس الشعور بمراقبة الله تعالى لعباده وحضور في حياة الناس ـ ونياتهم واعمالهم بشكل كامل، وانه ليس هناك شيىء في هذا الكون يخفى على الله تعالى، ويغيب عنه سبحانه. يقول تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما في أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[١].

﴿وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقيباً﴾[٢].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾[٣].

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى﴾[٤].

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾[٥].

﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُور﴾[٦].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما في السَّماواتِ وَ ما في الأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ﴾[٧].

وهـذا الوعي الدائم والمستمر لمراقبة الله تعالى لعباده، ولحضوره تعالى في حياتهم واعمالهم وعند اقوالهم وفي نياتهم وخواطر قلوبهم ... يصون القلوب ويحفظها

(١) البقرة ٢/٢٣٥.

(٢) الاحزاب ٣٣/٥٢.

(٣) الحديد ٥٧/٤.

(٤) العلق ٩٦/١٤.

(٥) الطور ٥٢/٤٨.

(٦) المؤمن ٤٠/١٩.

(٧) المجادله ٥٨/ ٧.

عن السقوط في المعاصي والتلوث بالاهواء والشهوات، ويقيها من الغفلة عن الله والانصراف عنه تعالى.

٣ـ القرآن شفاء للقلوب:

واذا تلوثت القلوب بالشهوات، وسقط الانسان في المعاصي والذنوب، وتكدرت القلوب وفقدت شفافيتها، واصابتها الغفلة عن الله وانحرفت،فان القرآن شفاء للقلوب المريضة، وتقويم للقلوب المنحرفة.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرانِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤمِنينَ وَ لا يَزيدُ الظّالِمينَ إلاّ خَساراً﴾[1].

﴿قُلْ هُوَ لِلذّينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَ الذّينَ لا يُؤْمِنُونَ في آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ﴾[2].

وتلفت النظر هذه المقاربة بين الذين امنوا والذين لايؤمنون، فان القرآن هدى وشفاء للذين امنوا، وذلك ان دعوة القرآن ونداء يسمعونه من مكان قريب من داخل فطرتهم وقلوبهم، اما الذين لا يؤمنون والذين تحجرت فطرتهم فان هذا النداء وهذه الدعوة دعوة غريبة على نفوسهم وكأنهم يسمعونها من كان بعيد. يقول تعالى:

﴿يا أيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدوُرِ وَهَدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ﴾[3].

التوبة والتزكية:

وشفاء القلوب مما يصيبها من المعاصي ومما يرين عليها يتم بالتوبة والتزكية.

(١) الاسراء ١٧/٨٢.

(٢) فصلت ٤١/٤٤.

(٣) يونس ١٠/٥٧.

والقرآن يدعو عباد الله الى التوبة والرجوع والعودة الى الله تعالى ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾[١].

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَميعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

يدعو القرآن عباد الله الى تزكية نفوسهم وتطهيرها مما اصابها من المعاصي والذنوب والشرك والهوى، وبعث الله تعالى رسوله (صلّى الله عليه وآله) بمنهاج واسع وكامل لتزكية النفوس و تطهيرها مما اصابها من المعاصي والاهواء والشرك.

يقول تعالى:﴿وَنَفْسٍ وَ ما سَوّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهاوَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها﴾[٣].

﴿كَما أَرْسَلْنا فيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُواتَعْلَمُونَ﴾[٤].

﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الْأُمِّيّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾[٥].

فالقرآن منهاج الهي شامل يتعهد سلامة القلوب وعمارتها و وقايتها وشفاءها. والقلوب التي ينفذ اليها القرآن وتتفاعل مع القرآن وتعي القرآن ويسكن فيها القرآن تسلم من الامراض والانحرافات، وبالتالي تسلم من عذاب الله تعالى يوم القيامة.

(١) التحريم ٨/٦٦.
(٢) النّور ٣١/٢٤.
(٣) الشمس ٧/٩١ ـ ١٠.
(٤) البقرة ١٥١/٢.
(٥) الجمعة ٢/٦٢.

نـــزول القـــرآن
بالحـــــــزن[1]

نزول القرآن بالحزن

هذه مسألة يجب ان نقف عندها قليلا. لنكتشف فيها بعدا هاما من ابعاد القرآن.وفيما اعلم لم تتناول الدراسات القرآنية هذه المسألة لحد الآن. وهي مسألة ذات اهمية في الدراسات القرآنية تكشف لنا الطابع لنزول القرآن... وان لفهم الطابع العام لنزول القرآن تأثيرا كبيرا في فهم القرآن.

ان مبعث الحزن في القرآن نوع العلاقة غير المتسانخة بين الله تعالى وعباده، ولست اقول غير المتكافئة، فان طبيعة العلاقه بين الله تعالى وعباده لابد ان تكون غير متكافئة فلا يمكن ان يكافىء العبد ربه سبحانه وتعالى في نعمه ورحمته بعمله وجهده الضعيف. وما قدر جهدنا وعملنا وشكرنا وقيمته الى جنب نعم الله تعالى (افبلساني هذا الكال اشكرك ام بغاية جهدي في عملي ارضيك وما قدر لساني يا رب.

(١) بمناسبة الحديث عن العلامات المشخصة لدائرة نفوذ القرآن تعرضنا للحديث المعروف (ان القرآن نزل بالحزن فاقراوه بالحزن). ولكيلا نقطع تسلسل البحث واسترساله هناك وعدنا ان نبحث هذا الموضوع في نهاية هذا الكتاب وهذا أوان الوفاء بالوعد.

في جنب شكرك وما قدر عملي في جنب نعمك واحسانك)[١].

الا ان الذي لايصح ان يكون من العبد تجاه الله سبحانه وتعالى، في علاقته به ان تكون هذه العلاقة غير مسانخة لعلاقة الله تعالى فان علاقة الله بعبده قائمة على اساس الفضل والتكريم والرحمة. وعلاقة العبد بربه قائمة على اساس الجحود والنكران ورد الجميل بالقبيح والاعراض عن الله (فلم ارمولى كريما اصبر على عبد لئيم منك عليّ يا رب، انك تدعوني فاولي عنك وتتحبب اليّ فلا اقبل منك، كأن لي التطول عليك فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي والاحسان اليّ والتفضل عليّ بجودك وكرمك فارحم عبدك الجاهل)[٢].

ان هذه المقابلة السيئة من الانسان لله تعالى، في مقابل رحمته وفضله الذي لاحدّ له على الناس هو مصدر (الحزن) الذي يغطي مساحة واسعة من القرآن الكريم. وان الله تعالى ليجلّ عن الانفعالات التي تصيب الناس فلا يفوت الله تعالى شيئاً حتى يصيبه الحزن عليه، وانما الانسان هو الخاسر وهو المتضرر وحده في هذه المعاملة والحزن الذي نلتقي به في جو القرآن هو حزن على الانسان نفسه وعلى مصيره.

حزن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على الناس:

وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يبلغ به الحزن على مصير الناس من اعراضهم عن الله تعالى، ومشاقتهم لله ولرسوله عن غيّ وطيش حتى انزل الله تعالى فيه:﴿طهٰ * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرانَ لِتَشْقى﴾[٣].

(١) من دعاء السحر للامام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام برواية ابي حمزة الثمالي رحمه الله.

(٢) من دعاء الافتتاح المروي عن الامام الحجة المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف برواية ابي جعفر محمد بن عثمان العمري رحمه الله احد النواب الاربعة رحمهم الله.

(٣) طه ٢٠/١ـ٢.

وقال تعالى: ﴿فَلاتَذْهبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾[١]

﴿وَلاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ في ضَيْقٍ مـمّا يَمْكُرُونَ﴾[٢].

﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاتَكُ في ضَيْقٍ مـمّا يَمْكُرُونَ﴾[٣].

﴿وَلا يَحْزُنْكَ الَّذينَ يُسارِعُونَ في الْكُفْرِ﴾[٤].

﴿ياأَيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذينَ يُسارِعُونَ في الْكُفْرِ﴾[٥].

﴿قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الّذينَ يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظّالمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[٦].

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا﴾[٧].

﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إنّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ﴾[٨].

الحـــزن والتهكـم:

وقد نرى في القرآن الحزن على الظالمين والتهكم عليهم يمتزجان فتتداخل هاتان الحالتان النفيستان في اطار رائع، فان التهكم قد ينجم من الحزن والحزن ينجم من الحرص والحب، والصورة المزيجة التي ترسم هاتين الحالتين هي صورة فريدة من صور القرآن فاسمعوا اليه تعالى يخاطب المجرمين:

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَليلاً وَ لْيَبْكُوا كَثيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٩].

(١) فاطر ٨/٣٥.

(٢) النّمل ٧٠/٢٧.

(٣) النّحل ١٢٧/١٦.

(٤) آل عمران ١٧٦/٣.

(٥) المائده ٤١/٥.

(٦) الانعام ٣٣/٦.

(٧) لقمان ٢٣/٣١.

(٨) يسّ ٧٦/٣٦.

(٩) التوبه ٨٢/٩.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾(١).

انّه التهكم النابع عن الحزن على مصير هذا الانسان وسقوطه. والحزن من دون شك ناجم عن الحرص على سلامة مصير الانسان وهدايته، واننا في غنى من ان نقول: ان هذه الحالات وامثالها حالات نفسية انفعالية معروفة في الانسان ونحن نجل الله تعالى عنها، فاذا اكتشفنا منها شيئا في القرآن ونسبناه الى الله تعالى فانما ننسبه الى الله تعالى بما يناسب جلاله وتنزيهه تعالى شانه.

والحزن حالة طافحة على القرآن، ومن يقرأ القرآن يلمس هذا الحزن على مصير الانسان ونهايته وسقوطه رغم كل ما انعم الله تعالى به على الانسان، وكل الوسائل التي هيأ ها لهداية الانسان.وانه لمحزن حقا ان يسقط الانسان بعد كل هذه النعم الالهية والآيات، والانذار والتبشير. وانا لنمرّ ـ في هذه العجالة ـ مروراً سريعاً على سورتين من سور القرآن هما سورة «يس» من السور المتوسطة، وسورة «العصر» من قصار السور، بقدر ما نلمس فيهما هذه الحالة من الحزن الطافح على القرآن على مصير الانسان وسقوطه ونهايته.

مع سورة يسۤ:

سورة «يس» سورة حزن. والذي يقرأ هذه السورة المباركة من سور القرآن يلمس هذا الحزن الطافح على جوالسورة بوضوح، ولنقرأ شطراً من هذه السورة المباركة:

تبدأ السورة بهذه الآية الحزينة على مصير الناس المشاقين لله ولرسوله:
﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

وهذا القول الذي قد حق عليهم ونفذ فيهم هو قوله تعالى: ﴿لأَمْلَئَنَّ جَهَنَّمَ

(١) الحجر ١٥/٣.
(٢) يسۤ ٣٦/٧. .

مِنَ الْجِنَةِ والنّاس أَجْمَعِينَ﴾(١).

هذا القول الحاسم قد حق عليهم بعد ان بلغوا درجة من الغفلة والضياع لم يبق معها امل للعودة الى الله تعالى ولم يعد ينفع معهم الانذار.

﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أأَنْذَرْتَهُمْ اَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

وانه لمن المحزن ان يسترسل الناس في هذه الغفلة وفي هذا الطيش غير عابئين بشيء والله تعالى يحصي عليهم كل صغيرة وكبيرة من اعمالهم:

﴿إنّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُواوَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ اَحْصَيْناهُ في إمامٍ مُبِينٍ﴾(٣).

ثم يضرب الله تعالى لنا مثلا في هذه السورة من التاريخ في ارسال الرسل من جانب الله الى الناس، وقيام الرسل بدعوة الناس الى الله تعالى وهدايتهم وتوجيههم الى الصراط المستقيم، وتعنت الناس في مواجهة الانبياء والرسل، والتشاؤم بهم و تكذيبهم و تهديدهم بالعذاب الاليم، وايذائهم لهم من غير بينة ولا علم.

وهذه قصة اصحاب القرية (انطاكية) المعروفة في التاريخ:﴿وَاْضرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ... قالُوا ما أَنْتُمْ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إنْ أَنْتُمْ إلاّ تَكْذِبُونَ﴾(٤).

وتنتهي هذه القصّة المحزنة في تعنت الانسان صليته الى هذه العاقبة الاليمة الّتي اختارها هؤلآء لانفسهم عن علم.

إنْ كانَتْ إلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإذاهُمْ خامِدُونَ.(٥)

وهي بشكل او باخر عاقبة كل المجرمين الذين يشاقون الله تعالى ورسوله.

وبعد هذا الاستعراض لواقع الناس تجاه دعوة رسول الله صلّى الله عليه وآله و تعنتهم

(١) هود ١١/١١٩.

(٢) يس ٣٦/١٠ و ١٣.

(٣) (٤) (٥) يس ٣٦/٣٠ ـ ٢٩ ـ ١٥ـ ١٣.

و تكذيبهم، وبعد هذه الجولة التاريخية في تعنت الانسان وصدوده عن الله ومحاربته لله و لرسوله في مواجهة دعوة الانبياء الى الله.... ثم العاقبة الاليمة التي ينتهي اليها الانسان عن علم وعن معرفة، رغم كل جهود الانبياء واصرارهم على دعوة الناس الى الله تأتي هذه الاية المفجعة عن نهاية الانسان وسقوطه:

﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤنَ﴾ (١).

و اي حسرة على العباد هذه الحسرة، انها تبقى عليهم حسرة دائمة لا نهاية لها ولا نفاذ ذلك انه لا نهايه ولا امد لسقوطهم وعذابهم. واعجب ما في امر هؤلاء الناس وآلم ما في امرهم ـ وان امرهم لعجيب ومؤلم ـ انهم لم يعتبروا مما جرى على امم من قبلهم اتبعوا اهواءهم واعرضوا عن الله تعالى فلحقهم الهلاك والدمار.

﴿ألَمْ يَرَواْ كَمْ أهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أنَّهُمْ إلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (٢).

ثم تمضي السورة في استرسال طويل في تذكيرهم بنعم الله تعالى والائه الكثيرة التي لا تحصى لعلهم يشكرون:

﴿وَجَعَلْنَا فيها جَنّاتٍ مِنْ نَخيلٍ وَأعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فيها مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُواْ مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أيْديهِمْ أفَلا يَشْكُرُونَ﴾ (٣)... فلا يكون موقف الناس ـ للاسف البليغ ـ من هذه الالاء والايات الا الاعراض والصدود. ﴿وَ ما تَأْتيهِمْ مِنْ آيةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إلاّ كانُوا عَنْها مُعْرِضينَ﴾(٤).

واذا دعاهم الانبياء الى الانفاق مما رزقهم الله تعالى قالوا في تهكم ﴿أنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أطْعَمَهُ إنْ أنْتُمْ إلاّ في ظَلالٍ مُبينٍ﴾(٥).

ويتساءلون في استهزاء وتهكم بالوعد الحق الذي جاء به الانبياء كلهم من عند الله، فلا يطول بهم الامد حتى تفاجأهم الصيحة التي لا تبقي ولا تذروهم منغمسون في لهوهم و خصامهم و صدودهم واعراضهم عن الله:

(١) يس: ٣٠. (٢) يس: ٣١. (٣) يس: ٣٤، ٣٥ (٤) يس: ٤٦. (٥) يس: ٤٧.

﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ * ما يَنْظُرُونَ إلاّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمونَ * فَلا يَسْتَطيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إلى أهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١).

ثم يأتيهم الويل وأي ويل، ويطلون على العذاب وأي عذاب، وكأنهم في تلك اللحظة يفيقون من غفلتهم وسباتهم في الحياة الدنيا. ﴿وَنُفِخَ في الصُّورِ فَإذا هُمْ مِنَ الأجْداثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾ (٢).

فيأتهم الجواب: ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣).

وهنالك يتميز المجرمون عن غيرهم فان الحياة الدنيا تجمع وتخلط المجرمين بالصالحين، والحياة الاخرة تفرق وتميز المجرمين عن الصالحين.

﴿وَامْتازُوا الْيَوْمَ أيُّها الْمُجْرِمُونَ﴾ (٤).

والخطاب هنا ليس كالخطاب في الدنيا بصيغة ايها الناس، فانهم هنا كتلة مجتمعة ومتميزة من المجرمين، ويخاطبهم الله والملائكة يوم القيامة بهذا الخطاب الشديد القاسي «يا ايها المجرمون».

ثم ينادون بهذا الخطاب الذي فيه استفهام وانكار وتوبيخ، وفيه حزن عميق على ما آل اليه امر هؤلاء المجرمين من السقوط والهلاك والعذاب.

﴿ألَمْ أعْهَدْ إلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيطانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أنِ اعْبُدُوني هذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ﴾ (٥).

و هذا خطاب يقطر حزنا على الانسان و مصيره.

الم يعهد اليكم الله؟: فلم خالفتم العهد؟: ولماذا الحنث؟: الم يحذركم الله من الشيطان؟: الم يعهد اليكم ان لا تعبدوا الشيطان فانه لكم عدو مبين؟: فلم اتخذتم الشيطان وليا وانجررتم مع عدوكم الى هذه الغاية؟: الم ينذركم رسل الله وانبياؤه عن

(١) الى (٣) يس: ٤٨ـ٥٢.

(٤) يس: ٥٩. (٥) يس: ٦٠.

اتبـاع الشيطان؟: الم يذكروكم بما يؤول اليه امركم من الهلاك والسقوط والعذاب المهـين الاليم اذا اتبعتم الشيطان واتخذتم الشيطان وليا من دون الله؟ فلم اتخذتم الشيطان وليا؟ الم يضـل الشيطان منكم اجيالا واسما من قبلكم وممن معكم؟ فلم لم تعتبروا؟ ولم لم ترتدعوا ولَم لَمْ تتعقلوا؟

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١).

اذن ﴿هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢).

و ما اكثر ما ذكركم بها المرسلون لم نفاجئكم بها، وانما ذكرناكم و وعدناكم بها فلم تستمعوا ولم تتذكروا.

﴿إِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣).

اصلوها بكفركم وسيئاتكم و اتباعكم الهوى انما هي اعمالكم وجرائمكم تجسدت بهذه الصوره الاليمة.

وليس لكم من فرار عن هذه العاقبة ولا من سبيل للانكار فها هي ايديكم وارجلكم تشهد عليكم دون افواهكم:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٤).

ان هذا القرآن ليس من الشعر، وليس الرسول (صلّى الله عليه وآله) بشاعر، وانما هو ذكر وقرآن مبين ولكن انىٰ ينتفع بهذا الذكر من امات ضميره وقلبه وفطرته فكأنه من الاموات.

﴿وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ (٥).

انها مجموعة حقائق محزنة تقررها الاية الكريمة. ان رسول الله (صلّى الله

(١) الى (٥) يس ٣٦/ ٦٢ــ ٧٠

عليه وآله) ينذر بهذا القرآن الاحياء فقط، وان هؤلاء الناس اصبحوا لا يعدون من الاحياء بعد ان اماتوا قلوبهم وضمائرهم وفطرتهم، ولا ينفعهم هذا القرآن الا ان يحق عليهم العذاب يوم القيامة بلى ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

ثم تقرر السورة مرة اخرى نعم الله تعالى على هؤلاء الناس ﴿أَوَلَمْ يَرَواْ أَنّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها ما لِكُونَ * وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْ كُلُونَ﴾ (٢).

وفي هذه الاية من العنـاية بالانسـان والتكريم له من الله تعالى ما يعجز الانسان عن شكره، فان هذه النعم كما تقول الآية الكريمة مـمّا عملته يد الله تعالى للانسان وخصته بها العناية الالهية، وكل الكائنات من خلق الله تعالى وصنع يده.

ولكن في هذه الكلمة ﴿مـمّا عملت ايدينا﴾ من التكريم للانسان ما يفوق تصور الانسان وقدرته على الشكر. كل ذلك عسى ان يشكر الانسان ربه ﴿افَلا يَشْكُرُونَ﴾ (٣).

و بقدر ما في هذه النعم من التكريم للانسان و تخصيصه بهذه العناية الالهية، فان في كلمة ﴿أفلا يشكرون﴾ من الانكار والتوبيخ والحزن على تعنت الانسان وكفره الشيء الكثير.

وادهى ما في حياة هؤلاء الناس بعد هذا التكريم والانعام الالهي انهم اتخذوا من دون الله الهة ينتصرون بها على الله في مشاقتهم لله ولرسوله:

﴿وَاتَّخَذُواْ مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٤).

فلا يحزنك ـ يا رسول الله ـ قولهم وتعنتهم انهم في قبضة الله تعالى، وتحت سلطانه يعلم سرهم وجهرهم:

(١) الى (٤) يس: ٧١ ــ ٧٤.

﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ﴾ (١).

ثم تذكر السورة المباركة هذه الصورة المحزنة للانسان في بدايته ونهايته:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصيمٌ مُبِينٌ﴾ (٢).

واذا هو يجادل في ايات الله، ويشـك في وعد الله بالاخرة، ويضرب لذلك الامثال في طيش وتهكم واستخفاف بايات الله، وهذه هي الصورة المحزنة الاخيرة للانسان وتعنته في هذه السورة المباركة:

﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٣).

انه يجادل في وعد الله الحق ويضرب بذلك مثلا﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ﴾.

ومن العجيب ان هذا الانسان ينسى انه كان من قبل نطفة فانشأه الله خلقا سويا ﴿ونسي خلقه﴾.

ذلك اجمال لجولة الحزن والاسف في هذه السورة المباركة. الحزن والاسف على الانسان في طيشه وتعنته وغروره واعراضه عن الله واستخافه بايات الله، والحزن والاسف على ما يؤول إليه امر هذا الانسان، فما اكفر هذا الانسان وما اتعس حاله. انه يقابل عهد الله تعالى بالخلف والحنث. ويقابل دعوة الله بالاعراض. ويقابل رسل الله بالتكذيب والاستخفاف. ويقابل ايات الله بالاستهزاء والتعنت. و يقابل العبر الكثيره التي يلتقي بها في التاريخ بالغفلة. ويجادل في الله تعالى واياته و وعده.

و لا يكفي بكل هذا الجحود والكفر والاعراض والتكذيب، وانما يتخذ من دون الله الهة واولياء لينتصر بهم على الله، ويستمر في طيشه وتعنته في غفلة وغرور حتى تدركه الصيحة فتاخذه وهو غارق في لهوه وخصومته، فاذا اشرفوا على الحساب

(١) الى (٣) يسٓ ٧٩/٣٦ الى ٧٦.

وعلى النار﴿قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعثَنَا مِنْ مَرْقَدِنا﴾ وعند ذلك ليس لهم من سبيل الى الرجوع والعودة الى الدنيا، ولا سبيل لهم للفرار من العذاب الاليم، وقد حق عليهم القول. تلك هي قصة الانسان المحزنة في سورة يس ولنقرأ هذه القصة المحزنة في سورة «العصر».

مع سـورة العصـر:

وتبتدأ هذه السورة المباركة بهذه الحقيقه المحزنة: ﴿إنَّ الإنْسانَ لَفي خُسْرٍ﴾.

وفي تقرير هذه الحقيقة بالقسم بـ«العصر»، ايحاء الى المسيرة التاريخية لهذه الحقيقة المؤلمة. فان عصور التاريخ هي الشاهدة الصادقة على هذه الحقيقة وهي خير شاهد عليها والحقيقة هي: ﴿إنَّ الإنْسانَ لَفي خُسْرٍ﴾ وهذا الخسران هو سقوط الانسان و هلاكه. والمحزن في هذا الامر أن هذا الخسران يحتل اوسع مساحة من تاريخ وحياة و حضارة الانسان و بدون استثناء.

خسارة الأكثرية:

والإستثناء هو: ﴿إلَّا الـذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالْصَّبْرِ﴾.

اما واقع حضارة وتاريخ الانسان فهو: ﴿إنَّ الإنْسان لَفي خُسْرٍ﴾. نظير قوله تعالى: في تقرير هذه الحقيقة في الانسان: ﴿إنَّ الإنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ﴾ (١).

﴿خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذا هُوَ خَصيمٌ مُبِيْنٌ﴾ (٢).

﴿وَيَدْعُ الإنْسانُ بالْشَّرِّ دُعاءَهُ بالْخَيْرِوَ كَانَ الإنْسانُ عَجُولاً﴾ (٣).

(١) ابراهيم ٣٤/١٤.

(٢) النّحل ٤/١٦.

(٣) الاسراء ١١/١٧.

﴿فَلَمّا نَجّاكُمْ إلَى الْبَرِّ اعْرَضْتُمْ وَ كانَ الإنْسانُ كَفُوراً﴾ [١].

﴿وَأذا أنْعَمْنا عَلَى الإنسانِ أعْرَضَ وَنَئا بِجانِبِهِ وَ إذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً﴾ [٢].

﴿وَ كانَ الإنْسانُ قَتُوراً﴾ [٣].

﴿إنَّ الإنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ [٤].

﴿إنَّ الإنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [٥].

وهذه الآيات المباركات و غيرها تقرر ذات الحقيقة من وجوهها المختلفة.

والحقيقة: ﴿إنَّ الإنسانَ لَفي خُسْرٍ﴾، [٦].

وهي حقيقة محزنة واليمة. واشد ما يحزن في هذه الحقيقه ان الانسان هوالذي يسلك سبيل هذا الخسران عن وعي و عن علم و ارادة بعد ان هداه الله تعالى النجدين، ومكّنه من الاختيار والانتخاب، واتاه وعيا وعقلا وفهما: ﴿إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إمّا شاكِراً وَ إمّا كَفُوراً﴾[٧].

﴿ألَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَ لِساناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٨].

والاستثناء الموجود في السورة. ﴿إلّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٩] هو دليل هذا الاختيار والانتخاب.

(١) الاسراء ١٧/٦٧.

(٢) الاسراء ١٧/٨٣.

(٣) الاسراء ١٧/١٠٠.

(٤) الحجّ ٢٢/٦٦.

(٥) الزخرف ٤٣/١٥.

(٦) والعصر: ٢.

(٧) الانسان ٧٦/٣.

(٨) البلد ٩٠/٨ ـ ١٠.

(٩) ص ٣٨/٢٤.

استثناء الصالحين:

الاّ أن أهـل هذا الاستثناء هم اقلية من الناس دائما ﴿إلاّ الذّين امَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَقَليلٌ ماهُمْ﴾[1] ﴿وَقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾[2].

و السابقون منهم فقط ثلة من الاولين وقليل من الاخرين ﴿وَ السّابِقُونَ السّابِقُونَ * أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * في جَنّاتِ النَّعيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ اوْلِيّنَ * وَقَليلٌ مِنَ الآخِرينَ﴾[3].

وانه لمن المؤسف و المحزن ان يسبق في هذا المضمار فقط ثلة من الاولين وقليل من الاخرين بعد كل هذه الايات والآلاء، و الأدلّاء الذين ارسلهم الله تعالى الى عباده، وبعد كل هذا الانذار والتبشير من جانب الله تعالى وما انزل الله على عباده من نور وهدى و ما اودع في نفوسهم من وعي وعقل، ويقول تعالى: ﴿وَ ما أَكْثَرُ النّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنينَ﴾[4].

﴿وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إلاّوَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[5].

﴿وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[6].

﴿وَإنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾[7].

﴿وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[8].

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[9].

(١) ص: ٢٤.
(٢) سبأ ١٣/٣٤.
(٣) الواقعة ١٠/٥٦ ـ ١٤.
(٤) يوسف ١٠٣/١٢.
(٥) يوسف ١٠٦/١٢.
(٦) الرعد ١/١٣.
(٧) النّمل ٧٣/٢٧.
(٨) الرّوم ٦/٣٠.
(٩) المؤمن ٦١/٤٠.

هذه هي الحقيقة المحزنة التي يقررها القرآن، والامر الواقع المؤسف الذي جاء الانبياء لتغييره. وهي الحقيقـة التي تقررها سورة العصر في هذه الكلّية ﴿إِنَّ الإِنْسانَ لَفي خُسْرٍ﴾، ثم تعقب ذلك باستثناء فئة قليلة ﴿إلاّ الَّذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبرِ﴾.

الحالة التدريجية في الخسارة:

وهذا الخسر الذي يحدث في حياة الانسان يحدث بالتدريج،ففيكل يوم يخسر شطرا من عمره، وهذا التدريج يفقد الانسان حالة الانتباه و تصيبه الغفلة فلا ينتبه من غفلته الا عند نفاد اخر لحظة من عمره.

و«الخسر» يستتبع وجود رأس مال، فان كل خسر لابد ان يكون في رأس مال مخزون. ورأس مال الانسان الذي يقع فيه الخسر ليس من عنده وانما هو من عند الله تعالى اودعه عنده ليتاجر به وينميه و ينتفع به. فالعقل والقلب والفؤاد والفطرة و الضمير والعاطفة والبصيرة و غيرها من رأس المال الذي اودعه الله عند الانسان، غير ان الانسان يعمل في اهدار وتضييع هذه المواهب الالٰهية بصورة مستمرة تدريجية بدل ان يستخدمها في الحركة الصاعدة الى الله، وفي التجارة مع الله.

وانـه لمن مقـابلة الجميل بالاسـاءة ان يقابل الانسان مواهب الله تعالى وصنايعه وفضله بالتضييع والتبديد والاهدار.

مسؤولية الانسان في هذه الخسارة:

والخاسر في هذه الحقيقة المحزنة هوالانسان فانه هو المسؤول عن خسرانه، وهوالذي يتحمل نتيجة هذا الخسران من السقوط والهلاك والعذاب، و لن يضر الله تعالى شيئا. ﴿وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً﴾[1].

(١) آل عمران ٣/١٤٤.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾ (١).

و لم يظلمهم الله تعالى في شيء، وانما هم الذين ظلموا انفسهم عن علم: ﴿وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ (٢).

هذه قصة الانسان في سورة العصر و هي مصدر الحزن المشهود في جو السورة المباركة اقتبسنا منها هذه اللمسات باختصار.

النهاية المفجعة للانسان:

ويسترسل الانسان في غفلته ولهوه ولعبه في الحياة الدنيا كلما جاءهم من الله بشير و نذير لينذرهم و يحذرهم من غفلتهم ولهوهم ولعبهم استهزؤا به، ولم يصرفهم عن اتباع الهوى و ما فيه من اللهو واللعب الى الحد الذي يدعوهم اليه انبياء الله. ﴿وَ ما يَأْتيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجوىٰ الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هذا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٣).

ولا ينتبه هؤلاء الناس من غفلتهم الا اذا حل بهم الموت فان سكرة الموت تمزق غطاء الغفلة. ﴿وَ جاءَتْ سُكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعيدِ * وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَديدٌ﴾ (٤).

واي آيات محزنات هذه الآيات؟ واي وقع حزين لهذه الايات في القلوب؟ عندئذ فقط ينتبه الانسان من غفلته المميتة في هذه الدنيا، وينادي بالويل حيث لا ينفعه النداء بالويل. ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فإذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) آل عمران: ١٧٧.
(٢) هود ١١/١٠١.
(٣) الانبياء ٢١/٢ ـ ٣.
(٤) ق ٥٠/١٩ـ٢٢.

يا وَيْلَنا لقَدْ كُنّا في غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنّا ظالِمينَ﴾[١].

هنالك يجاز المجرمون في نار جهنم ويستغيثون فلا تنفعهم استغاثتهم شيئا. ﴿حتّى إذا أخَذْنا مُتْرَفيهِمْ بِالْعَذابِ إذا هُمْ يَجْأَرُونَ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إنَّكُمْ مِنّا لا تُنْصَرُونَ﴾[٢].

و يعترف الانسان حينئذ بظلمه على نفسه وكفره، و لا يجد سبيلا للفرار والانكار. ولنسمع الى هذا الاقرار الحزين من المجرمين في الاعتراف وعلى انفسهم بالكذب والظلم ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الإنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ اياتي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أنْفُسِنا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ شَهِدُوا عَلى أنْفُسِهِمْ أنَّهُمْ كانُوا كافِرينَ﴾[٣].

وليتكم ترونهم و قد اطلوا على النار قد مسهم لهيبها و شهدوا حريقا وهم يقولون ليتنا نرد الى الدنيا فلا نكذب الانبياء و نكون من المؤمنين.

و لو ردوا لعادوا:

وآلم ما في هذه القصة المحزنة انهم لو ردوا الى الحياة الدنيا ـ ولا يردون ـ لعادوا الى ما نهوا عنه فاسمعوا الى القران كيف يرسم هذا المنظر الحزين: ﴿وَلَوْ ترى إذْ وُقِفُواْ عَلَى النّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِاياتِ رَبِّنا مِنَ الْمُؤْمِنينَ بَلْ بَدالَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾[٤]

وفي نارجهنم يصطرخون من شدة العذاب وقسوته ويدعون الله ان يخرجهم منها ليعملوا صالحا غير ماكانوا يعملون من قبل فيذكرهم الله بهذه الحقيقة المحزنة

(١) الانبياء ٢١/٩٧.
(٢) المؤمنون ٢٣/٦٤ ـ ٦٥.
(٣) الانعام ٦/١٣٠.
(٤) الانعام ٦/٢٧ ـ ٢٨.

التي لا يجدون سبيلا لانكارها. فاسمع اليه تعالى في القرآن: ﴿وَ الّذينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّم لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الذّي كُنّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظّالِمينَ مِنْ نَصيرٍ﴾[١].

والقـرآن الكـريم يرسم في اكثر من موضع مشهد الحسرة الاليمة لهؤلاء المجرمين في نار جهنم على ما فرطوا في الدنيا من قبل ولا تنفعهم يومئذ الحسرة ﴿قَدْ خَسِرَ الذّينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللهِ حَتّى إذا جاءَتْهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ ألا ساءَ ما يَزِرُونَ﴾[٢].

يــــوم الحســـرة:

وان القرآن ليسمى يوم القيامة «يوم الحسرة» لان الحسرة تحل فيه باكثر الناس يومذاك ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الاَمْرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

والآية الكريمة دقيقة في رسم مشهد الحسرة: ﴿اذا قضي الأمر﴾ وانتهى وحسم ﴿وهم في غفلة﴾.

تلك نهاية قصة الانسان المفجعة، والقرآن يرسم مشاهد هذه الحسرة والحزن و فجيعة الانسان في صور حزينة و وقع حزين، و لو قدر لنا ان ندرس القرآن من هذا البعـد لاكتشفنا بعدا جديدا للقرآن و لونا لهذا الكتاب جديراً بالدراسة و التأمل والتفكـير... فانه بحق «كتاب الحزن» كما هو «كتاب التوحيد» و «كتاب الدعوة» و«كتاب التشريع» و«كتاب العبرة».

(١) فاطر ٣٥/٣٦.

(٢) الانعام ٦/٣١.

(٣) مريم ١٩/٣٩.

مقابلة الإحسان بالاساءة:

ولنتأمل اكثر في هذا البعد من ابعاد القرآن فانه جدير باكثر من هذا بالتأمل و التفكير: ان القرآن يذكر الانسان ـ نوع الانسان الا من خرج بالاستثناء ـ بعدم الوفاء في مقابلة نعم الله، وبالاغترار بكرم الله و رحمته وحلمه، و بمقابلة احسان الله بالاساءة والكفران.

و هذه المقابلة بالاساءة والظلم هو كل مأساة الانسان و بؤسه و شقائه. و يرسم القرآن مشاهد كثيرة لهذا التعامل الانساني السيىء تجاه الله تعالى في مقابلة رحمته و فضله و لطفه و عفوه و كرمه بالسوء و الظلم و الكفران. وننقل اليكم بعض هذه الصور: ﴿يا أيُّهَا الإنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَريمِ * ألَّذي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ * في ايِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾[1].

إنّها بئس المعاملة والمقابلة لنعم الله تعالى و رحمته من قبل الانسان و ما كان احرى بهذا الانسان ان يقابل نعم الله تعالى عليه بالشكر والتواضع والعبودية والطاعة ولكن الانسان اتخذ نعم الله تعالى له سببا للغرور و الطغيان. ﴿كَلّا إنَّ الإنْسانَ لَيَطْغىٰ * اَنْ رَآهُ اسْتَغْنىٰ﴾[2].

صورة أُخرى في القرآن:

﴿وَ إذا أنْعَمْنا عَلَى الإنْسانِ أعْرَضَ وَ نَـأ بِجانِبِهِ وَإذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً﴾[3].

وما اعجب امر هذا الانسان في مقابلة نعم الله تعالى و فضله فاذا انعم الله

(١) الانفطار ٨٢/٦ـ ٨.

(٢) العلق ٩٦/٧.

(٣) الاسراء ١٧/٨٣.

عليه اعرض بوجهه عن الله، و كان حريا به ان يقبل بوجهه وقلبه الى الله، و اذا مسه الشر تمكن منه اليأس و كان حريا به ان يتضرع الى الله.

ان الانسان لكفور يؤوس، كفور اذا انعم الله عليه و يؤوس اذا مسه الشر، وهذه هي محنة الانسان وشقاؤه.

صورة أُخرى لبؤس الإنسان في القرآن:

﴿وَأَتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ أَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ﴾[1].

ظلوم بنفسه، كفار بنعم الله تعالى، وايّ ظلم وكفر اعظم من مقابلة نعم الله التي لا تحصىٰ بالظلم والكفر.

صـــور أخـرى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لايَشْكُرُونَ﴾[2].

﴿وَ إِذا أَذَقْنَا النّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُواْ بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ * فَلَمّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[3].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ

(١) ابراهيم ٣٤/١٤.

(٢) النمل ٧٣/٢٧.

(٣) يونس ٢١/١٠ ـ ٢٣.

أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِئاتُ عَنّي إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾(١).

﴿فَلَمّا نَجّاكُمْ إلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً﴾(٢).

﴿وَ إذا مَسَّ النّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنيبينَ إلَيْهِ ثُمَّ إذا أذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إذا فَريقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(٣).

والصور التي يذكرها القرآن بهذا الصدد كثيرة و متنوعة، وهي جميعها مطبوعة بطابع من الحزن العميق على بؤس الانسان وشقائه....ولقد كان حريا بهذا الانسان ان يقابل نعم الله تعالى بالشكر والعبودية والذكر والطاعة.

وينقل القرآن جملة وافرة من هذه الصور والامثلة من تاريخ بني اسرائيل الذين انعم الله تعالى عليهم بالوان كثيرة من النعم فقابلوا نعم الله عز شانه وفضله بالكفران والصدود والاعراض عن الله، و سورة البقرة غنية بهذه الامثله والصور:

فضل الله تعالى على الانسان و صدود الانسان عن الله:

وعدا صور التقابل هذه لنعم الله تعالى و فضله بالانسان، و كفران الانسان واعراضه وصدوده عن الله، فان في القرآن طائفتين منثورتين واسعا، وهما طائفة من الايات تذكر الانسان بنعم الله تعالى وفضله و رحمته على الانسان، و في مقابلها طائفة اخرى تنكر كفر الانسان و صدوده و اعراضه نذكرهما على وجه الاجمال وفي حدود استعراض نصوص القرآن الكريم فقط.

الطائفة الاولى.

نعم الله تعالى و فضله على الانسان:

(١) هود ١١/٩ ـ ١٠.

(٢) الأسراء ١٧/٦٧.

(٣) الروم ٣٠/٣٣.

يذكـر القرآن الكريم الناس بنعم الله تعالى وفضله عليهم باسهاب وتفصيل، ويشـرح ويلفت نظرهم باستمـرار الى ما حولهم من الـوان النعم الإلهية الظاهرة والباطنة. يقول تعالى:

﴿وَ إنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾[١].

وبـذكر الانسان بخلقه من سلالة من طين حتى انشاءه خلقاً سوياً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـا الإنْسـانَ مِنْ سُلالَـةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنـاهُ نُطْفَـةً في قَرارٍ مَكـينٍ * ثُمَّ خَلَقْـنَـا الـنُّـطْفَـةَ عَلَقَـةً فَخَلَقْنَـا الْـعَلَقَـةَ مُضْـغَـةً فَخَلَقْنَـا الْمُـضْـغَـةَ عِظامـاً فَكَـسَـوْنَـا الْـعِـظَامَ لَحْماً ثُمَّ أنْـشَـأْنـاهُ خَلْقـاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الْخالِقينَ﴾[٢].

وخلق الله الانسـان من ضعف ثم جعـل له من بعـد ضعف قوة: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَـلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْـفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَـلَ مِنْ بَعْـدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَليمُ الْقَديرُ﴾[٣].

وخلق الله تعالى للانسان السمع والبصر والفؤاد: ﴿ثُمَّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَليلاً ما تَشْكُرُون﴾[٤].

واتم خلقه في احسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ في أحْسَنِ تَقْويمٍ﴾[٥].

و علمه ما لم يعلم: ﴿عَلَّمَ الإنْسانَ مالَمْ يَعْلَمْ﴾[٦].

ومكن له في الارض و سخر له ما في السماوات والارض : ﴿وَ لَقَدْ مَكَّنّاكُمْ

(١) ابراهيم ٣٤/١٤.

(٢) المؤمنون ١٢/٢٣.

(٣) الروّم ٥٤/٣٠.

(٤) السّجدة ٩/٣٢.

(٥) التين ٤/٩٥.

(٦) العلق ٥/٩٦.

فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فيها مَعايِشَ قَليلاً ما تَشْكُرُونَ﴾[١].

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً﴾[٢].

واستخلفه في الارض :﴿وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَليفَةً﴾[٣].

﴿هُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾[٤].

واكرمه وفضله على كثير من خلقه:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً﴾[٥].

والهمه الخير والشر والفجور والتقوى: ﴿فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها﴾[٦].

و هداه السبيل: ﴿إِنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمّا شاكِراً وَ إِمّا كَفُوراً﴾[٧].

و يسّر له سبيل الهداية:﴿ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ﴾[٨].

و هداه النجدين:﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ .

و بعث اليه الانبياء و المرسلين ليأخذوا بيده اليه تعالى:﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْميزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[١٠].

(١) الأعراف ١٠/٧.
(٢) لقمان ٢٠/٣١.
(٣) البقرة ٣٠/٢.
(٤) فاطر ٣٩/٣٥.
(٥) الأسراء ٧٠/١٧.
(٦) الشمس ٨/٩١.
(٧) الدهر ٣/٧٦.
(٨) عبس ٢٠/٨٠.
(٩) البلد ١٠/٩٠.
(١٠)الحديد ٢٥/٥٧.

وليخرجهم من الظلمات الى النور: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ اِلَى النُّورِ﴾(١)

و ارسل معهم اليهم كتابا فيه برهان و نور: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبيناً﴾(٢).

و اكمـل لهم نعمـة(الدين) و اتم عليهم نعمته و رضي لهم الاسلام دينا: ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَ رَضيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ ديناً﴾(٣).

و دعاهم الى الحياة الحقيقة: ﴿يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اسْتَجيبُوا لله وَ لِلرَّسولِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحْييكُمْ﴾(٤)

و دعـاهم ـ بفضله ـ الى الايمان به والاستجـابـة له: ﴿فَلْيَسْتَجيبُـوا لي وَلْيُؤْمِنُوا بي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٥).

و اكرمهم بالدعوة الى عبادته: ﴿يا اَيُّهَا النّاسُ أُعبدُوا رَبَّكُمُ الّذي خَلَقَكُمْ وَالّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(٦).

و فتح لهم باب الدعاء و دعاهم اليه و اكرمهم بالقرب منه تعالى: ﴿وَ إذا سَأَلَـكَ عِبـادي عَنّي فَإِنّي قَريبٌ أُجيبُ دَعْـوَةَ الدّاعِ إذا دَعانِ فَلْيَسْتَجيبُوا لي وَلْيُؤْمِنُوا بي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٧).

و اكـرمهم بالـدعوة الى ذكره وشكره: ﴿ياأَيُّهَا النّاسُ إذْكُرواْ نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ﴾(٨).

(١) الحديد ٩/٥٧.

(٢) النساء ١٧٣/٤.

(٣) المائدة ٤/٥.

(٤) الأنفال ٢٤/٨.

(٥) البقرة ١٨٦/٢.

(٦) البقرة ٢١/٢.

(٧) البقرة ١٨٦/٢.

(٨) فاطر ٣/٣٥.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونَ﴾[(١)].

ودعاهم الى الحياة الطيبة:﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾[(٢)].

﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾[(٣)].

و دعاهم الى دار السلام و الامن:﴿وَاللَّهُ يَدْعُواْ إِلى دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(٤)].

و وعدهم ـ ان امنوا و اتقوا ـ نورا يمشون به في الناس و كفلين من رحمته:﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ امَنُوا اتَّقُوا اللهَ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾[(٥)].

و فتح لهم ـ اذا اسرفوا على انفسهم ـ بابِ التوبة من رحمته و دعاهم الى التوبة والعودة اليه:﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُواْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[(٦)].

و وعدهم ـ ان امنوا و اتقوا وعملوا الصالحات:ان يوفيهم اجورهم و يزيدهم من فضله في الدنيا والاخرة:﴿فَأَمَّا الَّذِينَ امَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[(٧)].

ذلك هو الطرف الاول من القضية فيما يتعلق بعلاقة الله تعالى بعباده و هو

(١) البقرة ١٥٢/٢.

(٢) الأنفال ٢٤/٨.

(٣) النحل ٩٧/١٦.

(٤) يونس ٢٥/١٠.

(٥) الحديد ٢٨/٥٧.

(٦) الزمّر ٥٤/٣٩.

(٧) النساء ١٧٣/٤.

كما قال عز اسمه: ﴿وَ إنْ تَعُدُّوانِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾[1].

فلننظرالى الطرف الاخر من القضية في علاقة الانسان بالله.

الطائفة الثانية.

جحود الانسان و كفره:

و لنتأمل الان في الطرف الثاني من هذه العلاقة في مقابلة الانسان لنعم الله تعالى. فقد رأينا كيف يسبغ الله تعالى نعمه على الانسان اسباغا و كيف تشملهم رحمة الله تعالى في الدنيا والاخرة....و ان ما يثير العجب حقاً اننا نرى الانسان ـ نوع الانسان الا من خرج باستثناء ـ يواجه هذه النعم الالهية بالنكران و الكفران والجحود والاعراض ومحاربة الله و مشاقة الله عن وعي و علم و ارادة: ﴿قُتِلَ الْإنْسانُ ما أكْفَرَهُ﴾[2].

و اليك الان هذه الطائفة من الايات التي تبين طبيعة علاقة الانسان بالله، و طبيعة المقابلة التي يقابل بها الانسان نعم الله وفضله و رحمته، وقد استخرجنا من كتاب الله اربعين عنوانا في علاقة الانسان بالله تعالى نذكرها فيما يلي من دون تعليق او شرح:

١ـ الاستخفاف بايات الله: ﴿وَ إذا تُتْلى عَلَيْهِمْ اياتُنا قالُواقَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الْأوَّلينَ﴾[3].

٢ـ الاستكبار على الله: ﴿وَالَّذينَ كَذَّبُوابِاياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ﴾[4].

(١) ابراهيم ٣٤/١٤.
(٢) عبس ١٧/٨٠.
(٣) الأنفال ٣١/٨.
(٤) الأعراف ٣٦/٧.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾[١].

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ﴾[٢].

٣ـ الاستنكاف عن عبادة الله:ـ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾[٣].

٤ـ الاستهزاء بآيات الله:ـ ﴿وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[٥].

٥ـ اسخاط الله:ـ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[٦].

٦ـ الاصرار على الباطل في معصية الله:ـ ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾[٧].

٧ـ الاضلال عن طريق الله:ـ ﴿وَجَعَلَ للهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[٨].

٨ـ الاعراض عن الله:ـ ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[٩].

٩ـ الافتراء على الله:ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أُولَئِكَ

(١) الأعراف ٧/٤٠.
(٢) فصلّت ٤١/٣٨.
(٣) النساء ٤/١٧٣.
(٤) الجاثية ٤٥/٩.
(٥) الحجر ١٥/١٠ ـ ١١.
(٦) محمد ٤٧/٢٨.
(٧) الجاثية ٤٥/٨.
(٨) الزمّر ٣٩/٨.
(٩) الأنعام ٦/٤.

يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشهادُ هؤُلاءِ الذَّينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ ألا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظّالِمِينَ﴾[١].

١٠ـ الإلحاد بالله:ـ ﴿إنَّ الذّينَ يُلْحِدُونَ في اياتنا لايَخْفَوْنَ عَلَيْنا﴾[٢].

١١ـ البخل على الله:ـ ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُواْ في سَبيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإنّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ﴾[٣].

١٢ـ التعجيز في ايات الله:ـ ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ في اياتِنا مُعاجِزينَ أُولئِكَ في الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾[٤].

١٣ـ التكـذيب لله ولاوليائه:ـ ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أساؤُا السُّوىٰٓ أَنْ كَذَّبُوا باياتِ اللهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[٥].

١٤ـ الجحود بالله:ـ ﴿فَإِنَّهُمْ لايُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظّالِمِينَ باياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[٦].

١٥ـ الجدال في ايات الله:ـ ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَريدٍ﴾[٧].

﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاكِتابٍ مُنيرٍ﴾[٨].

١٦ـ الخصومة مع الله:ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَالْإِنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذا هُوَخَصيمٌ مُبينٌ﴾[٩]

(١) هود ١٨/١١.
(٢) فصلّت ٤٠/٤١.
(٣) محمّد ٣٨/٤٧.
(٤) سبأ ٣٨/٣٤.
(٥) الرّوم ١٠/٣٠.
(٦) الأنعام ٣٣/٦.
(٧) الحجّ ٣/٢٢.
(٨) الحجّ ٨/٢٢.
(٩) يس ٧٧/٣٦.

١٧ـ الشرك بالله:ـ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً﴾[١].
﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾[٢]
١٨ـ الصد عن الله وسبيله:ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[٣].
١٩ـ الصدوف عن الله:ـ ﴿أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[٤].
٢٠ـ الطغيان على الله:ـ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾[٥].
﴿وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٦].
٢١ـ عبادة الله على حرف:ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾[٧].
٢٢ـ العدول عن الله:ـ ﴿أَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[٨].
٢٣ـ الغفلة عن الله:ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ * أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ﴾[٩]. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ﴾[١٠]
٢٤ـ قطع ما امر الله به ان يوصل:ـ ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[١١].

(١) النّساء ٤/٤٨.
(٢) النّساء ٤/١١٦. (٣) الأنفال ٨/٣٦. (٤) الأنعام ٦/٤٦.
(٥) العلق ٩٦/٦ـ ٧. (٦) المؤمنون ٢٣/٧٥. (٧) الحجّ ٢٢/١١. (٨) الأنعام ٦/١.
(٩) يونس ١٠/٧ـ ٨. (١٠) يونس ١٠/٩٢. (١١) الرّعد ١٣/٢٥.

٢٥ـ الكذب على الله:ـ ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الذِّينَ أساؤُا السُّوىٰ أنْ كَذَّبُواْ بِاياتِ اللهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[١].

٢٦ـ﴿ذلِكَ بِأنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنافِي الأُمِّيِّنَ سَبيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

﴿وَ إنَّ مِنْهُمْ لَفَريقاً يَلْوونَ ألْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾[٣].

٢٦ـ الكفر بالله:ـ ﴿قُتِلَ الإنْسانُ ما أكْفَرَهُ * مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ*مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾[٤].

٢٧ـ الكفران بنعم الله:ـ ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَريمٌ﴾[٥].

﴿وَمَنْ يَشْكُرْفَإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَميدٌ﴾[٦].

﴿فَكَفَرَتْ بِأنْعُمِ اللهِ فَأذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْجُوْعِ﴾[٧].

٢٨ـ الكنود بنعم الله:ـ ﴿إنَّ الإنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌوَإنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهيدٌوَإنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَديدٌ﴾[٨].

٢٩ـ اللجاج في الله:ـ ﴿وَلَوْرَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا مابِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّواْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُون﴾[٩].

٣٠ـ المجادلة في ايات الله والاستهانة بعهد الله وآياته وشراؤه بثمن بخس:ـ

﴿إنَّ الذِّينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَ أيْمانِهِمْثَمَناً قَليلاً أُولئِكَ لاخَلاقَ لَهُمْ فِي الْاخِرَةِ﴾[١٠].

﴿إشْتَرَواْ بِاياتِ اللهِ قَليلاً فَصَدُّواْعَنْ سَبيلِهِ﴾[١١].

٣١ـ المحاجة في الله:ـ ﴿وَالذَّينَ يُحاجُّونَ في اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجيبَ لَهُ

(١) الرّوم ١٠/٣٠.

(٢) (٣) آل عمران ٧٥/٣ ـ ٧٨. (٤) عبس ١٧/٨٠ ـ ١٨. (٥) النمل ٤٠/٢٧.

(٦) لقمان ١٢/٣١ (٧) النّحل ١١٢/١٦. (٨) العاديات ٦/١٠٠ ـ ٨. (٩) المؤمنون ٧٥/٢٣.

(١٠) آل عمران ٧٧/٣ (١١) التوبة ٩/٩.

حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ﴾[١].

٣٢ ـ محاربة الله:ـ ﴿وَالَّذينَ اتَّخَذُوامَسْجِداً ضِراراًوَ كُفْراً وَ تَفْريقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَ رَسُولَهُ﴾[٢].

﴿إِنَّما جَزاءُ الَّذينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً اَنْ يُقَتَّلُواْ﴾[٣].

٣٣ـ محاددة الله:ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فيها﴾.[٤]

إِنَّ الَّذينَ يُحادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.[٥]

﴿إِنَّ الَّذينَ يُحادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ فِي الأَذَلّينَ﴾.[٦]

٣٤ـ مشاقة الله:ـ ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَديدُ الْعِقابِ﴾.[٧]

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَديدُ الْعِقابِ﴾.[٨]

٣٥ ـ معصية الله:ـ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى﴾[٩].

﴿قالُواْ سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[١٠].

٣٦ ـ المكر في ايات الله:ـ ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرينَ﴾[١١].

﴿وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[١٢].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[١٣].

﴿وَإِذا أَذَقْنَا النّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ في

(١) الشورى ١٦/٤٢. (٢) التوبة ١٠٧/٩.

(٣) المائدة ٣٣/٥. (٤) التوبة ٣٦/٩. (٥) (٦) المجادلة ٥/٥٨ ـ ٢٠.

(٧) الأنفال ١٣/٨. (٨) الحشر ٤/٥٩. (٩) النازعات ٢١/٧٩ ـ ٢٢. (١٠) البقرة ٩٣/٢.

(١١) آل عمران ٥٤/٣. (١٢) النمل ٥٠/٢٧. (١٣) الأنفال ٣٠/٨.

ايا‌تِنا﴾[١].

٣٧ ـ نسيان الله وذكره:ـ ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾[٢].

﴿قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ اياتُنا وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى﴾[٣].

﴿إسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾[٤].

٣٨ ـ نقض عهد الله وميثاقه:ـ ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ اَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدّارِ﴾[٥].

٣٩ ـ هجر كتاب الله:ـ ﴿وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هذا الْقُرْانَ مَهْجوراً﴾[٦].

٤٠ ـ اليأس من رحمة الله:ـ ﴿وَإذا أَنْعَمْنا عَلَى الْأَنْسانِ اَعْرَضَ وَنَئا بِجانِبِهِ وَإذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً﴾[٧].

بؤس الانسان: تلك هي علاقة الانسان بالله: جحود واعراض ، وصدود وعصيان وافساد وظلم.

وعنـد ما نقابل هذه العلاقة بعلاقة الله تعالى بعباده والتي قوامها الرحمة والرأفة والحب والحلم والعفو تتجلى الحقيقة المحزنة الكبرى في حياة هذا الانسان وبؤس الانسان وشقاؤه.

انـه يتعـامـل مع الحب بالبغضاء، ومع الرحمة والرأفة بالمحاربة والمشاققة والمحاددة، ومع دعوة الله لعباده بالصدود والاعراض ، ومع اقبال الله تعالى على عباده بالكفر والجحود.

لقد خلقه الله تعالى في احسن تقويم فيسقط في ا سفل سافلين بما يجر الى

(١) يونس ٢١/١٠. (٢)التوبة ٦٧/٩. (٣) طه ١٢٦/٢٠.(٤) المجادلة ١٩/٥٨. (٥) الرّعد ٢٥/١٣.
(٦)الفرقان ٣٠/٢٥. (٧) الأسراء ٨٣/١٧.

نفسه من الكفر والجحود.

وانها لنتيجة مفجعة ان ينتهي هذا الانسان الا الذين امنوا وعملوا الصالحات الى اسفل سافلين بعد هذا التكريم والتقويم الالهي.

واننا لنقرأ هذه السورة المباركة من السور القصار في القران فنشعر بنبرة الحزن ووقعها الحزين للعاقبة المفجعة التي ينتهي اليها الانسان من السقوط في اسفل سافلين بعد ان اعده الله تعالى لأعلى عليين.

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سينِينَ وَهذا الْبَلَدِ الْأمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْأنْسانَ في أحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إلَّا الذَّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُمْ أجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[١].

ومن اول ما نزل من القرآن او اوائل ما نزل من القرآن نلتقي هذه الصوره القرآنية في سورة العلق عن المنشأ الوضيع للانسان ثم ما اكرم الله تعالى به الانسان من العلم بما لم يعلم ثم عاقبة هذا الانسان الوضيع بعد هذا التكريم الالهي من الغرور والطيش والطغيان.

﴿إقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذَّي خَلَقَ * خَلَقَ الْإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * إقْرأْوَ رَبُّكَ الْأكْرَمُ * الذَّي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ * كَلّا إنَّ الْإنْسانَ لَيَطْغى أنْ رَاهُ اسْتَغْنى إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾[٢].

المشهد الاخير لهذه العاقبة المفجعة:

ولنقرأ في القرآن المشهد الاخير لهذه العاقبه الحزينة والمفجعة للانسان...وما احرى بنا ان نتأمل في ايات القرآن في وسط هذه الغفلة والغرور الذي يكتنفنا من كل جانب لعل الله ان يجلي عن قلوبنا هذه الغفلة المظلمة.

وان الانسان لفي غفلته وطيشه وساعة الحساب منه رويدا رويدا و هو لا

(١) التين ٩٥/١ ـ ٦. (٢) العلق ٩٦/١ ـ ٨.

يشعر بها حتى تحل به. ﴿إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾(١).

فيقف الانسان بعد هذه الغفلة الطويلة والنكران الطويل لنعم الله وفضله موقف السؤال عن نعم الله تعالى عليه وعن مقابلته لنعم الله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾(٢).

﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعيمِ﴾(٣)

هنالك ينبؤهم الله تعالى بطيشهم وغرور وكفرهم وعصيانهم في الدنيا وقد نسوه واحصاه الله حسابا دقيقا ﴿فَيُنَبِّؤُهُمْ بِما عَمِلُواْ أَحْصاهُ وَ نَسُوهُ﴾(٤).

واي موقف عسير هذا الموقف امام ركام من السيئات تراكمت على الانسان بمرور الزمن وهو في عفلته وقد نساها ولكن الله تعالى لم ينسها وقد احصاها دقيقا ليواجهه بها. وهنالك تشهد عليهم جوارحهم و اعضاؤهم حيث تسكت السنتهم فلا يملكون جوابا ولا ردا ولا فرارا من ذنوبهم وسيئاتهم. ﴿حَتّى إذا ما جَاءُوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ * وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلاجُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لايَعْلَمُ كَثيراً مِمّا تَعْمَلُونَ * وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرينَ﴾(٥).

هنالك يعرضون على الله تعالى عرضا لا تخفى على الله منهم يومئذ خافية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾(٦).

ويا له من موقف فاضح و مخزي ان يعرض الانسان يومئذ على الله وعلى الشهداء من الانبياء، وعلى الناس لا تخفى منه عليهم خافية.

فيعرض عليهم كتاب اعمالهم حافلا بكل سيئاتهم لا يكاد يغادر صغيرة من

(١) الأنبياء ١/٢١. (٢) الصّافات ٢٤/٣٧. (٣) التكاثر ٨/١٠٢.

(٤) المجادلة ٦/٥٨. (٥) فصّلت ٢٠/٤١ ـ ٢٣. (٦) الحاقّة ١٨/٦٩.

اعمالهم ولا كبيرة.﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا فيهِ وَيَقُولُونَ ياوَيْلَتَنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاكَبِيرَةً إِلاّ كَبِيرَةً إِلاّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(١).

واعظم ما في هذا الموقف الرهيب هو ان يتجسد للانسان عمله في الدنيا امامه في صورة محسوسة مرئية ويحضر اليه عمله فلا يمكن ان ينفيه ولا يمكن ان يتحرر منه ولا يمكن ان ينكره ﴿وَوَجَدُواما عَمِلُوا حاضِراً﴾(٢).

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ﴾(٣)

انه يحضر عمله معه نفسه يومئذ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ وَعَلِمَتْ نَفْسٌ ماقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾(٤)

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾(٥) يومئذ يحضر الانسان اعماله فلا يتمكن ان يتخلص منها يود لو ان بينه وبينها امدا بعيدا ولكنه لايكون، عندئذ وياهول هذا الموقف الرهيب يأتي امر الله تعالى مالك يوم الدين بالقبض على المجرم والقائه في جهنم :﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاًفَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هٰهُنا حَمِيمٌ * وَلا طَعامٌ إِلاّ مِنْ غِسْلِينٍ * لايَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِئُونَ﴾(٦).

وان الانسان ليتصور هذا الامر الالهي الرهيب في المجرمين﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ فيتراءى له ان كل شيء في ذلك الموقف الرهيب يتسابق ويبادر لالقاء القبض على المجرمين، وان ملائكة غلاظا شدادا يبادرون ايهم قبل الاخر لتنفيذ حكم الله القهار على اولئك المجرمين الذين قابلوا نعم الله تعالى في الدنيا بالكفر والجحود. فتسوق

(١) الكهف ٤٩/١٨. (٢) (٣) التكوير ١٠/٨١ ـ ١٤. (٤) الانفطار ٥/٨٢.
(٥) آل عمران ٣٠/٣. (٦)الحاقة ٣٠/٦٩ ـ ٣٧.

الملائكة يومئذ المجرمين زمرا الى النار: ﴿وَسيقَ الّذينَ كَفَروا إلى جَهَنَّم زُمَراً حَتّى إذا جاءُوها فُتِحَتْ أبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خزَنَتُها ألَمْ يَأتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ اياتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرينَ قيلَ ادْخُلُوا أبْوابَ جَهَنَّم خالِدينَ فيها فَبِئْسَ مَثْوى الْمُتَكَبِّرينَ﴾[١].

وما اشقى الذين حقت عليهم كلمة العذاب يومئذ وقيل لهم ادخلوا جهنم خالدين فيها وهنالك في جهنم: انكال وعذاب وظلل من النار اعاذنا الله منها: ﴿إنَّ لَدَيْنا أنْكالاً وَجَحيماً وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أليماً﴾[٢].

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِوَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾[٣].

تلك نهاية هذه المسيرة المحزنة والمفجعة. وان الانسان ليقرأ هذه المسيرة الحزينة للانسان من يوم خلقه الله تعالى فاكرمه، واستخلفه وباهى به ملائكته، وانعم عليه وفضله على كثير مما خلق، وفتح له ابواب رحمته وهدايته، فواجه الانسان كل هذه الرحمة والفضل والجميل بالنكران والجحود والكفر والاعراض عن علم ووعي وارادة....الى ان ينتهي الانسان الى السقوط في اسفل سافلين في جهنم.

واقول ان الانسان ليقرأ هذه المسيرة المفجعة في القرآن فيتملكه حزن عميق على هذا الانسان وعلى تفريطه في الله تعالى، و حسرة على ما يؤول اليه امر هذا الانسان وما احسن قول هذا القائل: (والله ما اصبح اليوم عبد يتلو هذا القرآن يؤمن به إلّا كثر حزنه وقل فرحه، وكثر بكاؤه وقل ضحكه، وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته)[٤].

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَليلاً وَلْيَبْكُوا كَثيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٥].

(١) الزمّر ٣٩/٧١ ـ ٧٢. (٢) المزّمل ٧٣/١٢ ـ ١٣. (٣) الزمّر ٣٩/١٦. (٤) المحجة البيضاء: ٢/٢٤٤.

(٥) التوبة ٩/٨٢.

فهرس مواضيع الكتاب